سلسلة الكتب المختصرة في العلوم الإسلامية: ١

نور العينين

في

تفسير الزهراوين

أستاذ مشارك دكتور

عزير طورمش

IKSAD
Publishing House

سلسلة الكتب المختصرة في العلوم الإسلامية: ١

نور العينين

في

تفسير الزهراوين

أستاذ مشارك دكتور

عزير طورمش

Copyright © 2023 by iksad publishing house
All rights reserved. No part of this publication may be reproduced, distributed or transmitted in any form or by any means, including photocopying, recording or other electronic or mechanical methods, without the prior written permission of the publisher, except in the case of brief quotations embodied in critical reviews and certain other noncommercial uses permitted by copyright law.
Institution of Economic Development and Social Researches Publications®
(The Licence Number of Publicator: 2014/31220)
TÜRKİYE TR: +90 342 606 06 75
USA: +1 631 685 0 853
E mail: iksadyayinevi@gmail.com
www.iksadyayinevi.com

It is responsibility of the author to abide by the publishing ethics rules. The first degree responsibility of the works in the book belongs to the authors.
Iksad Publications – 2023©

ISBN: 978-625-367-549-3
Cover Design: Üzeyir DURMUŞ
November / 2023
Ankara / Türkiye
Size: 16x24cm

DOI: https://dx.doi.org/10.5281/zenodo.10442425

فهرس

تقديم I

المدخل: ما القرآن؟ 1

القسم الأول: سورة الفاتحة

القسم الثاني: سورة البقرة

الباب الأول: الهداية والإنسان 8

الفصل الأول: المؤمنون 8

الفصل الثاني: الكافرون 9

الفصل الثالث: المنافقون 9

الباب الثاني: الدعوة العامة.....13

الباب الثالث: تاريخ الدعوة 16

الفصل الأول: قصة آدم عليه السلام 16

الفصل الثاني: قصة بني إسرائيل..... 19

المبحث الأول: دعوة الإسلام..... 19

المبحث الثاني: النعمات والجحودات..... 21

المبحث الثالث: الصفات السيئة..... 26

المبحث الرابع: الأماني والمظالم..... 42

الباب الرابع: استبدال الدعاة 46

الفصل الأول: قصة إبراهيم عليه السلام..... 46

الفصل الثاني: مزاعم أهل الكتاب 49

الباب الخامس: استبدال المركز.....52

الباب السادس: تعليم الدعاة.....57

الفصل الأول: التعليم العامة 57

المبحث الأول: الصبر 57

المبحث الثاني: الإيمان 59
المبحث الثالث: العمل 61
المبحث الرابع: القاعدة العامة في الإيمان والعمل 64
الفصل الثاني: التعليم الخاصة 65
المبحث الأول: حقوق العباد..... 65
المطلب الأول: القصاص 66
المطلب الثاني: الوصية..... 67
المبحث الثاني: حقوق الله..... 68
المطلب الأول: العمل 68
الفرع الأول: الصوم..... 68
الفرع الثاني: الحج..... 71
الفرع الثالث: الجهاد..... 72
الفرع الرابع: الحج..... 74
المطلب الثاني: الإيمان..... 79
المطلب الثالث: مسائل شتى..... 82
المبحث الثالث: حقوق العباد..... 86
المطلب الأول: النكاح 86
الفرع الأول: النكاح الحقوقي 86
الفرع الثاني: النكاح الحقيقي 87
المطلب الثاني: الطلاق..... 88
الفرع الأول: الأيمان 88
الفرع الثاني: الإيلاء..... 89
الفرع الثالث: الطلاق وعدته..... 89
الفرع الرابع: الرضاع والأجرة..... 93
الفرع الخامس: الوفاة وعدته..... 95
الفرع السادس: المتعة والمهر 96
الفرع السابع: الصلاة والخوف..... 97

الفرع الثامن: الوفاة والسكنى 99
المبحث الرابع: حقوق الله 100
المطلب الأول: العمل 101
الفرع الأول: الجهاد والإنفاق 101
الفرع الثاني: طالوت وجالوت 102
المطلب الثاني: الإيمان 107
الفرع الأول: الإيمان بالله 108
الفرع الثاني: الإيمان بالآخرة 111
المبحث الخامس: حقوق العباد 113
المطلب الأول: الإنفاق 113
الفرع الأول: فضل الإنفاق 113
الفرع الثاني: أخلاق الإنفاق 113
المطلب الثاني: الربا 119
المطلب الثالث: الدين 122
الباب السابع: قوام الدعاة 127

القسم الثالث: سورة آل عمران

الباب الأول: خطاب الله عن أهل الكتاب 132
الفصل الأول: نصارى نجران 132
المبحث الأول: الوحي والإنسان 132
المبحث الثاني: قصص آل عمران 144
المطلب الأول: الأم والبنت حنة ومريم 145
المطلب الثاني: الأب والابن زكريا ويحيى 146
المطلب الثالث: الأم والابن مريم وعيسى 148
الفصل الثاني: الدعوة العامة 154
الفصل الثالث: مكائد اليهود 156
المبحث الأول: الكيد الأول 156
المبحث الثاني: الكيد الثاني 157

المبحث الثالث: الكيد الثالث 158
المبحث الرابع: الكيد الرابع 162
المبحث الخامس: الكيد الخامس 163
الفصل الرابع: التحذير العامة 165
الباب الثاني: خطاب الله للمؤمنين 165
المبحث الأول: علاقات مع أهل الكتاب 166
المطلب الأول: تحذير من أهل الكتاب 166
المطلب الثاني: أصناف أهل الكتاب 170
المبحث الثاني: غزوة أحد 173
المطلب الأول: قبل المعركة 173
المطلب الثاني: هزيمة المسلمين 175
المطلب الثالث: رجوع المشركين إلى مكة 181
المطلب الرابع: نعاس المسلمين في أحد 181
المطلب الخامس: رجوع المسلمين إلى المدينة 184
المطلب السادس: تعقيب المشركين بعد الغزو 189
المبحث الثالث: علاقات مع أهل الكتاب 192
المطلب الأول: مكائد اليهود 192
المطلب الثاني: التسليات والإيقاظات 194
المبحث الرابع: قوام المؤمن 196
أهم المراجع 202

تقديم

بسم الله الرحمـــن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين. أما بعد:

فإن فهم كتاب الله عز وجل هو الواجب الأول على كل مسلم بلا شك. كيف يمكن أن نكون عبدًا كما أحب الله تعالى بدون فهم القرآن؟ وكيف يمكن للمرء أن يدخل سبيل التقوى بدون أن يمسك به؟ بناء على هذه الحقيقة، نحن حاولنا أن نفهم القرآن منذ سنوات عديدة. ورأينا اليوم أنه من المناسب أن ننشر تفسير سور الفاتحة والبقرة وآل عمران التي هي من محصولات هذا العمل. ووفقنا على ذلك في عام ١٤٤١ للهجري، بين ٢٤ جمادى الآخر–٢٤ رمضان (عام ٢٠٢٠ للميلادي بين ١٨ فبراير–١٧ مايو) في الموسم المبارك المعروف بين العوام الأشهر الثلاثة، خلال الوقت الذي اضطر فيه جميع الناس للعيش في منازلهم بسبب تفشي فيروس كورونا. الحمد لله!

على وجه الخصوص يجب أن نذكر؛ نحن لم نشرع في عملنا هذا بحيث قد يكون لنا تفسير، ولكن دخلنا إلى هذا الطريق لنفهم القرآن، ولنفهمه للآخرين، وليكون هذا العمل زادا لنا في الآخرة.

وقد استفدنا في تفسيرنا الذي نسميه "نور العينين" من العشرات من كتب التفسير، وراجعنا في كتب العلوم السائرة مثل الحديث، والسير، والفقه. وفي نهاية بحثنا رأينا عين اليقين أنّ كل واحد من كتب التفسير يحتوي على بيانات مفيدة لا توجد في غيره، كما رأينا أنه لا يوجد تفسير واحد يكفي لفهم القرآن وحده. وفي النهاية، كل مفسر يبذل جهدًا فرديًا لفهم القرآن، فتارة يصيب وتارة يخطأ. وينطبق هذا الشأن على دراستنا؛ لأنه في أساسها عقلنا، وفهمنا، واحتياجاتنا. وكل هذه كانت مؤثرة في

ترجيحاتنا بين الآراء التي توجد في التفاسير، كما ترى في المفسرين الآخرين ... لذلك لا ندعي بأننا وصلنا إلى النقطة الأخيرة في تفسير هذه السور. في الواقع، تتكون هذه الدراسة من المعلومات التي اخترناها من التفاسير القديمة والجديدة في إطار معرفتنا ومعاييرنا العلمية. ومساهمتنا الشخصية فيه عبارة عن ترجيحتنا وعناويننا في الغالب.

ويمكننا أن نقول ما يلي حول نطاق تفسيرنا وميزاتها:

١. في هذه الدراسة قمنا بتفسير سورة البقرة وسورة آل عمران، وأضفنا مبدأها تفسير سورة الفاتحة. وحَثَّنَا على هذه الدراسة -بالإضافة إلى رغبتنا في فهم القرآن وتعليمها- قول النبي صلى الله عليه وسلم في هاتين السورتين: "اقْرَءُوا الْقُرْآنَ؛ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لأَصْحَابِهِ. اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ -الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ-؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ، وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ." قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ: السَّحَرَةُ. (مسلم، ٨٠٤).

٢. حاولنا فيه أن نوضح معاني الآيات من حيث اللغة، ثم فسرنا الآيات بالآيات والأحاديث. ونقلنا ما نعتقد أنه مفيد من روايات أسباب النزول. وعند الحاجة نقلنا بعض الروايات الأخرى من مصادر الحديث. ولقد بذلنا جهدنا لأن لا ننقل معلومات غير موثقة مثل الإسرائيليات الموضوعة. ومع ذلك، لم نتردد في الاقتباس مباشرة من الكتب المقدسة لليهود والمسيحيين من أجل تفهيم الموضوع في الآيات اللتي تتعلق بتاريخ الأديان. وقد استكملنا المعلومات الفقهية من كتب الفقه؛ لأن المعلومات الواردة في كتب التفسير في آيات الأحكام غير كافية. وفسرنا الآيات مختصراً في الغالب، ومطولاً إذا القتضى. وحجم تفسيرنا متوسط.

٣. وقد استفدنا في عملنا هذا من كتب المفسرين القديمة والحديثة. لا سيما من النسفي، والرازي، والقرطبي من القديمة؛ وابن عاشور، ورشيد رضا، وطنطاوي،

والزحيلي، والصابوني من الحديثة. وبالإضافة إلى هؤلاء استفدنا من آراء سائر المفسرين مثل الطبري، والبيضاوي، والبرسوي من المتقدمين؛ ومثل الشوكاني، والآلوسي، وأبو زهرة، وعزت دروزة من المتأخرين. وحاولنا أن نأخذ الحق حيث وجدناه من غير تعصب كما ترى في البيضاوي والنسفي في نقل العبارت من الزمخشري المعتزلي، وفي الرازي من أبي مسلم المعتزلي.

هذا الكتاب هو أول كتاب في مشروعنا الشخصي المكون من خمسة كتب بعنوان "سلسلة الكتب المختصرة في العلوم الإسلامية". وفي نطاق هذا المشروع قمنا بتأليف الكتب التي لا تتجاوز أحجامها ٣٠٠ صفحة في مجالات التفسير، والحديث، والكلام، والفقه، والسير. هدفنا هنا؛ إنشاء المتون التي تحتوي على المعلومات الأساسية اللازمة لكل طالب العلم، وتبعد عن الخرافات والمعلومات التي لا حاجة إليها اليوم، وتسهل فهمها، ويمكن للمدرس تعليمها لطلابه في سنتين. وهذه السلسلة هدية مني إلى الأمة التي حاولت إبقائها حية دائما في قلبي.

ومن الله التوفيق...

عزير طورمش
غفر الله ذنوبه

المدخل: ما القرآن؟

وهو خطاب من الله الذي خلق السموات والأرض إلى الإنسان الذي هو من خلقه... وهو مكتوب من الله العزيز الحميد إلى الناس الضعيف الجهول... وينبغي للإنسان أن يقدر هذا الشرف الذي أعطاه الله إياه... هيهات!... ومن الناس من يهتم بكلام الناس المشهورة ولكن لايهتمون بكلام الله... وهو غير المعقول... قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آَمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (البقرة، ١٦٥/٢).

وما القرآن؟ ونسأل هذا السؤال إلى القرآن ناظرين إلى ما يقول فيه على الإجمال. وهو يقول:

هو هدى: قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (البقرة، ٢/٢-٥). يهدي من يعتصم به بصدق وإخلاص إلى صراط مستقيم في كل أنحاء الحياة.

وهو حبل الله: قال الله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ (آل عمران، ١٠٣/٣). وقال النبي ﷺ: "إن هذا القرآن سبب طرفه بيدي الله وطرفه بأيديكم فتمسكوا به فإنكم لن تضلوا ولن تهلكوا بعده أبدا." (الطبراني، المعجم الكبير، ١٨٨/٢٢).

وهو روح: قال الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ﴾ (الشورى، ٥٢/٤٢). وإن القلب الخالي من القرآن مية كما البدن الخالي من الروح. وقال النبي ﷺ: "إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب." (الترمذي، ٢٩١٣). ونذكر هنا هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال، ٢٤/٨).

وهو شفاء: قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس، ٥٧/١٠). وهو شفاء للأمراض المعنوية كالكفر، والشرك، والغفلة، وغيرها.

وهو قرقان: قال الله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان، ١/٢٥). والفرقان كلام الله تعالى لفرقه بين الحق والباطل في الاعتقاد، والصدق والكذب في المقال، والصالح والطالح في الأعمال كما قال الراغب.

وهو عزيز: قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (فصلت، ٤١/٤١). والعزيز النفيس، وأصله من العزة وهي المنعة لأن الشيء النفسي يدافعَ عنه ويُحمَى عن النبذ؛ فإنه بيِّن الإتقان وعلوِّ المعاني ووضوح الحجة ومثل ذلك يكون عزيزًا. والعزيز أيضًا: الذي يَغلب ولا يُغلب، وكذلك حجج القرآن كما قال ابن عاشور.

وهو أحسن الحديث: قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (الزمر، ٢٣/٣٩). وكيف يعرض الإنسان عن أحسن الحديث؟

وهو بشير ونذير: قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ، بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ﴾ (فصلت، ٣/٤١-٤). وهو كتاب أنزل بَشِيراً وَنَذِيراً للعاملين به والمخالفين له.

نعم، والقرآن الكريم هدى للناس كما تقدم، وهو يخْرِجُ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ كما قال الله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (إبراهيم، ١/١٤)، ولكن بعض الناس لم يتبع هداه، وخاض ما لا فائدة له:

✓ بعضهم علق المصاحف بالجدار... قال أبو أمامة رضي الله عنه: "اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ هَذِهِ الْمَصَاحِفُ الْمُعَلَّقَةُ، فَإِنَّ اللهَ لَنْ يُعَذِّبَ قَلْبًا وَعَى الْقُرْآنَ."

(الدارمي، ٣٣٦٢).

✓ وبعضهم اقتصر على تلاوته للثواب... قال النبي ﷺ: "ليس القرآن بالتلاوة، ولا العلم بالرواية؛ ولكن القرآن بالهداية، والعلم بالدراية." (كنز العمال، ٢٤٦٢).

✓ وبعضهم اقتصر علي تلاوته للموتى... قال الله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ وَقُرْآَنٌ مُبِينٌ، لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ (يس، ٣٦/٦٩-٧٠).

✓ وبعضهم قرأه ليسأل به الناس... قال النبي ﷺ: "من قرأ القرآن فليسأل الله به؛ فإنه سيجيء أقوام يقرؤون القرآن يسألون به الناس." (الترمذي، ٢٩١٧).

✓ وبعضهم بحث فيه حساب أبجد وجفر. وهو ضلالة على الضلالة.

وينبغي للمؤمن أن يهدي بهداية القرآن، لا بغيره... قال النبي ﷺ: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه." (البخاري، ٥٠٢٧). وقال: "لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به أناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالا فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار." (مسلم، ٨١٥). وقال أيضا: "إن الله يرفع بهذا الكتاب أقواما ويضع به آخرين." (مسلم، ٨١٧).

وبعد هنا نقدم لكم نبذة عن هذا القرآن الذي وصفتُه على الإجمال وتفسيره...

ومن الله التوفيق...

القسم الأول: سورة الفاتحة

هذه السورة الكريمة مكية، وآياتها سبعٌ بالإجماع، إنْ كَانَتْ الْبَسْمَلَة مِنْهَا وَالسَّابِعَة ﴿صِرَاط الَّذِينَ﴾ إِلَى آخِرهَا، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ مِنْهَا فَالسَّابِعَة ﴿غَيْر الْمَغْضُوب﴾ إِلَى آخِرهَا.

أسمائها: وتسمى "الفاتحة" لافتتاح الكتاب العزيز بها حيث إنها أول القرآن في الترتيب لا في النزول، وهي -على قصرها ووجازتها- قد حوت معاني القرآن العظيم، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال، فهي تتناول أصول الدين وفروعه، تتناول العقيدة، والعبادة، والتشريع. وهي كالأم بالنسبة لبقية السور الكريمة، ولهذا تسمّى "أم الكتاب"؛ لأنها جمعت مقاصدة الأساسية. وهي تسمى "السبع المثاني"، وسميت بذلك لأنها سبع آيات تكرر في الصلاة.

فضائلها: روى أحمد في المسند (٨٦٨٢)؛ أن أبيَّ بن كعب قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ! مَا أُنْزِلَ فِي التَّوْرَاةِ، وَلاَ فِي الإِنْجِيلِ، وَلاَ فِي الزَّبُورِ، وَلاَ فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، إِنَّهَا السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيتُ." فهذا الحديث الشريف يشير إلى قوله تعالى في سورة الحجر (٨٧): ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعاً مِّنَ المثاني والقرآن العظيم﴾.

وروى البخاري في الصحيح (٤٤٧٤)؛ أن النبي ﷺ قال لأبي سعيد بن المعلَّى: "لأعلمنَّك سورة هي أعظم السور في القرآن؛ ﴿الحمد لله رب العالمين﴾. هي السبعُ المثاني، والقُرآن العظيم الذي أوتيتُه."

وقد ذكر العلماء أنه يسن للمسلم قبل القراءة أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم، استجابة لقوله تعالى: ﴿فَإِذا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطانِ الرَّجِيمِ﴾

(النحل، ١٦/١٩٨). لأن الشيطان أحرص ما يكون على العبد عند شروعه في الأمور الفاضلة، فيسعى في صرفه عن مقاصدها ومعانيها. ومعنى "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم": ألتجئ إلى الله وأتحصن به، واستجير بجنابه من الشيطان الرجيم أن يضرني في ديني أو دنياي. قال ابن كثير: "والشيطان في لغة العرب كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء." وهو مشتق من شطن إذا بعد، فهو بعيد بطبعه عن طباع البشر، وبعيد بفسقه عن كل خير. وقيل: مشتق من شاط؛ لأنه مخلوق من نار. والأول أصح. والرجيم: فعيل بمعنى مفعول. أي أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير. وقيل: رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والشكوك.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

﴿١﴾﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ الله اسم للموجود الحق، الجامع لصفات الإلهية، المنعوت بنعوت الربوبيه. في اشتقاقه اختلاف. قال بعض أهل اللغة: غير مشتق، هو اسم الذات. وقال بعضهم: مشتق. قيل: هو مشتق من "أَلَهَ"، أي عبد. أصله إله فحذفت همزته، وأدخل عليها الألف واللام، فخصّ بالباري تعالى. وقيل: هو من: "أَلِهَ"، أي تحيّر. ذلك أنّ العبد إذا تفكّر في صفاته تحيّر فيها. وقيل: هو من "وله" بمعنى تحير والتجأ واتّجَه. أصله وِلاه، فأبدل من الواو همزة، فعال بمعنى مفعول. وتسميته بذلك لكون كل مخلوق والها نحوه. إمّا بالتسخير فقط كالجمادات والحيوانات. وإمّا بالتسخير والإرادة معا كبعض الناس. وقيل: أصله من: "لاَهَ" يلوه لياها، أي احتجب. قالوا: وذلك إشارة إلى ما قال تعالى: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصارَ﴾ (الأنعام: ٦/١٠٣). والرحمن والرحيم ليستا بمعنى واحد: فالرحمن بمعنى عظيم الرحمة، والرحيم بمعنى دائم الرحمة؛ أو أن الرحمن صفة ذاتية هى مبدأ الرحمة والإحسان، والرحيم صفة فعل تدل على وصول الرحمة والإحسان وتعديهما إلى المنعم عليه. وقيل: إن الرحمن هو

المنعم على جميع الخلق، وأن الرحيم هو المنعم على المؤمنين خاصة. والمعنى: أبتدييء قراءتي متبركًا ومتيمنًا باسم الله. وترشد هذه الآية المسلمين إلى أن يبدأوا أعمالهم وأقوالهم باسم الله الرحمن الرحيم، التماسًا لمعونته وتوفيقه، ومخالفةً للوثنيين الذين يبدءون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم. ومن اللطائف: أن قوله "أَعُوذُ بالله" إشارة إلى نفي ما لا ينبغي من العقائد والأعمال، وقوله "بِسْمِ اللهِ" إشارة إلى ما ينبغي من الاعتقادات والعمليات. والبسملة ليست بآية من الفاتحة ولا من غيرها من السور، وإنما كتبت للفصل والتبرك للابتداء بها، وهو مذهب أبي حنيفة. وعند الشافعي أنها آية من الفاتحة ومن كل سورة.

﴿٢﴾﴿الْحَمْدُ﴾ هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار. ﴿لِلَّهِ﴾ مفيدة "لِ" قصر الحمد عليه سبحانه كما أن "ال" فى الحمد للاستغراق. أي أن جميع أجناس الحمد ثابتة لله رب العالمين؛ لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه. ﴿رَبِّ﴾ أي مالك ومربي. والله تعالى يربي العبد حتى يُبْلِغ به شيئًا فشيئا درجة الكمال. والرب اسم من أسماء الله تعالى. ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالَم. وهو كل موجود سوى الله تعالى. وهو مأخوذ من العلَم والعلامة؛ لأنه يدل على مُوجده. ﴿٣﴾﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ إن المربي قد يكون خشنًا جبارًا؛ لذا قرَن سبحانه كونه مربيًا بكونه الرحمن الرحيم، لِيَنْفِي بذلك هذا الاحتمال، ولِيُفْهِم عباده بأن ربوبيته لهم مصدرها عموم رحمته وشمول إحسانه. ﴿٤﴾﴿مَالِكِ﴾ وصف من الملك -بكسر الميم- بمعنى حيازة الشئ مع القدرة على التصرف فيه ﴿يَوْمِ الدِّينِ﴾ واليوم هنا يوم القيامة. والدين: الجزاء. والمعنى: أنه تعالى يتصرف فى أمور يوم الدين من حساب وثواب وعقاب، تصرف المالك فيما يملك. ﴿٥﴾﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي نقصر عباداتنا واستعاناتنا على صاحب هذه الأوصاف السابقة. وقدمت العبادة على الاستعانة، لكون الأولى وسيلة إلى الثانية. ﴿٦﴾﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ هو ما جاء به الإسلام من عقائد، وآداب، وأحكام. ﴿٧﴾﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ أي صراط ﴿الَّذِينَ أَنْعَمَ

اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ﴾ (النساء، ٦٩/٤) ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، كاليهود ﴿وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ كالنصارى.

هذه السورة سورة التوحيد؛ تحث بآياته الثلاثة الأولى على توحيد الربوبية وبآياته الآخر على توحيد الألوهية، فافهم!

وروى مسلم (٣٩٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: "مَنْ صَلَّى صَلاَةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ." ثَلاَثًا غَيْرُ تَمَامٍ. فَقِيلَ لأَبِي هُرَيْرَةَ: "إِنَّا نَكُونُ وَرَاءَ الإِمَامِ؟" فَقَالَ: "اقْرَأْ بِهَا فِي نَفْسِكَ."؛ فإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "قَالَ اللهُ تَعَالَى: قَسَمْتُ الصَّلاَةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نِصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ، فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ قَالَ اللهُ تَعَالَى: أَثْنَى عَلَيَّ عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ قَالَ: مَجَّدَنِي عَبْدِي -وَقَالَ مَرَّةً: فَوَّضَ إِلَيَّ عَبْدِي-. فَإِذَا قَالَ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قَالَ: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ قَالَ: هَذَا لِعَبْدِي وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ."

ويقول العبد بعد قراءة الفاتحة في الصلاة "آمين" أي استجب دعائنا؛ لأن النبي ﷺ قال: "إِذَا قَالَ الإِمَامُ: ﴿غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾ فَقُولُوا: آمِينَ؛ فَإِنَّهُ مَنْ وَافَقَ قَوْلُهُ قَوْلَ المَلاَئِكَةِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ." (البخاري، ٧٨٢)

تم تفسير سورة الفاتحة، والحمد لله رب العالمين،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين.

القسم الثاني: سورة البقرة

هذه السورة مَدَنِيَّة، وآياتها مِائَتَانِ وَسِتّ -أَوْ سَبْع- وثمانون آية. وتسمى بقصة البقرة التي ذكرت في آياتها ٦٧-٧٣. وهذه السورة إجابة الرب إلى عبده. قد دعا العبد إلى ربه في سورة الفاتحة بـــ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾، وأجاب الرب إلى عبده في سورة البقرة بـــ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾.

مسائلها: أشار الله تعالى إلى إعجاز القرآن وتحدى للمشركين أولاً (١)، ثم بين أن الهدى هدى القرآن (٢)، ثم ذكر أصناف الناس الثلاثة في تجاه الهدى وأوصافهم (٢-٢٠)، ثم دعا جميع الناس إلى الهدى عامة (٢١-٢٩)، ثم ذكر من تاريخ دعوة الهدى؛ قصة آدم عليه السلام والشيطان (٣١-٣٩)، وقصة موسى عليه السلام وبني إسرائيل (٤٠-١٢١). لقد نصّب الله بني إسرائيل ممثلين لطريق الهدى فترة طويلة، لكن هذه الْمَهَمَّة أخذت منهم عندما فضلوا الباطل على الحق إصرارًا؛ استبدل المركز (١٢٢-١٥٢) واستبدل الدعاة (١٥٣-٢٨٤). وربى الله تعالى الدعاة الجديدة في حقوق الله وفي حقوق العباد؛ يعنى في المعتقدات، والعبادات، والمعاملات، والحقوق، والأخلاق، وفي كل أنحاء الحياة. ثم ذكر من أدعية الدعاة المدرَّبة وبين بذلك ما نالوا هم من الدرجة (٢٨٥-٢٨٦) بعد تربية الله لهم. وختمت السورة بتعداد أوصاف المؤمنين كما بدأت بها. وهو حسن تناسب بين الأول والآخر.

فضائلها: قال النبي ﷺ في فضائل سورة البقرة:

"اقْرَءُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ؛ فَإِنَّ أَخْذَهَا بَرَكَةٌ، وَتَرْكَهَا حَسْرَةٌ. وَلاَ تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ." قَالَ مُعَاوِيَةُ: بَلَغَنِي أَنَّ الْبَطَلَةَ السَّحَرَةُ. (مسلم، ٨٠٤)

"لاَ تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ مَقَابِرَ. إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْفِرُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي تُقْرَأُ فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ." (مسلم، ٧٨٠)

"لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَإِنَّ سَنَامَ الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ. وَفِيهَا آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ،

هِيَ آيَةُ الكُرْسِيِّ." (الترمذي، ٢٨٧٨)

"الآيَتَانِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ البَقَرَةِ مَنْ قَرَأَ بِهِمَا فِي لَيْلَةٍ كَفَتَاهُ." (البخاري، ٥٠٤٠)

"مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنْ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ، لَمْ يَدْخُلْ ذَلِكَ الْبَيْتَ شَيْطَانٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ حَتَّى يُصْبِحَ: أَرْبَعًا مِنْ أَوَّلِهَا، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَآيَتَيْنِ بَعْدَهَا، وَثَلاَثٌ خَوَاتِيمُهَا." (الدارمي، ٣٤٢٥، منقطع)

قال الْمُغِيرَةُ بْنِ سُبَيْعٍ: "مَنْ قَرَأَ عَشْرَ آيَاتٍ مِنَ الْبَقَرَةِ عِنْدَ مَنَامِهِ، لَمْ يَنْسَ الْقُرْآنَ: أَرْبَعُ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِهَا، وَآيَةُ الْكُرْسِيِّ، وَآيَتَانِ بَعْدَهَا، وَثَلاَثٌ مِنْ آخِرِهَا " (الدارمي، ٣٤٢٨)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول: الهداية والإنسان

الفصل الأول: المؤمنون

والمؤمن من عقد قلبه جازمًا على أركان الإيمان الستة. وهو من الأمن. وأصل الأَمْن طمأنينة النفس وزوال الخوف. أي المؤمن من يعتمد على الله ويعتمد عليه الناس. من لا أمانة له فلا إيمان له.

الم ﴿١﴾ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

﴿١﴾﴿الم﴾ الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ. قال ابن كثير: "إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وهو قول جمع من المحققين." ﴿٢﴾﴿ذَلِك﴾ أَيْ هَذَا ﴿الْكِتَاب﴾ الَّذِي يَقْرَؤُهُ مُحَمَّد ﴿لاَ رَيْب﴾ لاَ شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ أي في مصدره ومحتوياته. وَجُمْلَة النَّفْي خَبَر مُبْتَدَؤُهُ ذَلِك. وَالإِشَارَة بِهِ لِلتَّعْظِيمِ. ﴿هُدًى﴾ خَبَر ثَانٍ. أَيْ هَادٍ ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ الوَاصِلِينَ إِلَى التَّقْوَى بِامْتِثَالِ الأَوَامِر وَاجْتِنَاب النَّوَاهِي. يسمون بذلك؛ لأنهم يحفظون أنفسهم من المحرمات في الدنيا ومن النار في العقبى. ﴿٣﴾﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ يُصَدِّقُونَ ﴿بِالْغَيْبِ﴾ بِمَا غَابَ عَنْهُمْ. أي بجميع أركان الإيمان الستة، ﴿وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بشروطها، وأركانها، وخشوعها، ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ أَعْطَيْنَاهُمْ ﴿يُنْفِقُونَ﴾ فِي طَاعَة الله. وليس للإنسان مال في الحقيقة. ﴿٤﴾﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أَيْ الْقُرْآن، ﴿وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِك﴾ أَيْ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل وغيرهما، ﴿وبالآخرة هم يوقنون﴾ يعلمون. أي يعتقدون اعتقادًا

جازمًا لا يلابسه شك. ﴿٥﴾﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ ﴿عَلَى هُدًى﴾ أي على هداية وبصيرة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي أُوتُوه مِن عنده. والهداية من الله فقط. ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ﴾ الْفَائِزُونَ بِالْجَنَّةِ، النَّاجُونَ من النار.

الفصل الثاني: الكافرون

الكفر في اللغة ستر الشيء. ووَصْف الليل بِالْكَافِرِ لستره الأشخاص، والزّرّاع لستره البَذْر في الأرض. والكافر السّاتر للحقّ. وكُفْرُ النّعمة وكُفْرَانُهَا: سترها بترك أداء شكرها. قال تعالى: ﴿فَلا كُفْرانَ لِسَعْيِهِ﴾ (الأنبياء، ٩٤/٢٠). وأعظم الكُفْرِ: جحود الوحدانيّة أو الشريعة أو النّبوّة. والكُفْرَانُ في جحود النّعمة أكثر استعمالاً، والكُفْرُ في الدّين أكثر، والكُفُورُ فيهما جميعا. إن اصطلاح الكفر يشمل نوعان: الكفر الظاهر والكفر الخفي. أما الكفر الظاهر يشمل المسيحية، واليهودية، والإلحادية، والتأليهية، والحلولية، وسائر أنواع الشرك. وأما الكفر الخفي فهو النفاق.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾

﴿٦﴾﴿إِنّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمراد به بعض الكفار المعاندين كَأَبِي جَهْل وَأَبِي لَهَب وَنَحْوهما ﴿سَوَاء عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتهمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ فَلاَ تَطْمَع فِي إِيمَانهمْ. وفي هذا تسلية للنبي ﷺ. وَالإِنْذَار إِعْلاَم مَعَ تَخْوِيف. ﴿٧﴾﴿خَتَمَ الله عَلَى قُلُوبهمْ﴾ أي طبع على قلوبهم فلا يدخل فيها نور، ولا يشرُق فيها إيمان. وهو نتيجة عنادهم لا سبب كفرهم. ﴿وَعَلَى سَمْعهمْ﴾ أَيْ مَوَاضِعه، فَلاَ يَنْتَفِعُونَ بِمَا يَسْمَعُونَهُ مِنْ الْحَقّ. وقرئ "على أسماعهم." ﴿وَعَلَى أَبْصَارهمْ غِشَاوَة﴾ غِطَاء، فَلاَ يُبْصِرُونَ الْحَقّ ﴿وَلَهُمْ عذاب عظيم﴾ قوي دائم.

الفصل الثالث: المنافقون

النفاق إظهار المرء خلافَ ما يُبْطِنُ. لفظ المنافق من النفاق. وزعم ابن سيده أنه

الدخول في الإسلام من وجه والخروج عنه من آخر. مشتق من نافقاء اليربوع؛ فإن إحدى جحريه يقال لها النافقاء –وهو موضع يُرَقِّقُه بحيث إذا ضرب رأسه عليها ينشق، وهو يكتمها ويُظْهِرُ غيرها–، فإذا أتى الصائد إليه من قِبَل القاصعاء –وهو جحره الظاهر الذي يَقْصَعُ فيه أي يدخل– ضرب النافقاء برأسه فانتفق أي خرج. فكما أن اليربوع يكتم النافقاء ويظهر القاصعاء كذلك المنافق يكتم الكفر ويظهر الإيمان، أو يدخل في الشرع من باب ويخرج من آخر. ويناسبه من وجه آخر وهو أن النافقاء ظاهره يُرَى كالأرض وباطنه الحفرة فيها، فكذا المنافق.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلاَ إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ ﴿١٤﴾ اللهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

ونزل في المنافقين: ﴿٨﴾﴿وَمِنَ النَّاس مَنْ يَقُول آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخر﴾ أَيْ يَوْم الْقِيَامَة؛ لأَنَّهُ آخِر الأَيَّام ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ في الحقيقة. وهم الذين آمنوا بأفواههم و لم تؤمن قلوبهم. ﴿٩﴾﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي يعملون عمل المخادِع بِإِظْهَارِ خِلاَف مَا أَبْطَنُوهُ مِنَ الْكُفْر لِيَدْفَعُوا عَنْهُمْ أَحْكَامه الدُّنْيَوِيَّة ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسهمْ﴾ في الحقيقة؛ لأَنَّ وَبَال خِدَاعهمْ رَاجِع إِلَيْهِمْ فَيُفْتَضَحُونَ فِي الدُّنْيَا بِإِطْلاَعِ اللهِ نَبِيّه عَلَى مَا أَبْطَنُوهُ وَيُعَاقَبُونَ فِي الآخِرَة. الخِداع: المكر والاحتيال وإظهار خلاف الباطن، وأصله الإِخفاء. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يَعْلَمُونَ أَنَّ خِدَاعهمْ لأَنْفُسِهِمْ. وَالْمُخَادَعَة

هُنَا مِنْ وَاحِد كَعَاقَبْت اللِّصّ. وَفِي قِرَاءَة "وَمَا يُخَادَعُونَ" ﴿١٠﴾﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَض﴾ شَكّ وَنِفَاق، فَهُوَ يُمْرِض قُلُوبهمْ، أَيْ يُضْعِفهَا. ﴿فَزَادَهُمْ اللهُ مَرَضًا﴾ بِمَا أَنْزَلَهُ مِنَ الْقُرْآن؛ لأنهم استمروا في شكهم ونفاقهم. ومن سنة الله أن المريض إذا لم يعالج مرضه زاد المرض لا محالة. ﴿وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم ﴿بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ بِالتَّخْفِيفِ أَيْ قَوْلهمْ آمَنَّا، وبِالتَّشْدِيدِ أَيْ نَبِيّ اللهِ. ﴿١١﴾﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَيْ لِهَؤُلَاءِ المنافقين ﴿لاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْض﴾ بِالنفاق وَالتَّعْوِيق عَنْ الإِيمَان ﴿قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ وَلَيْسَ مَا نَحْنُ فِيهِ بِفَسَادٍ. قَالَ اللهُ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ: ﴿١٢﴾﴿أَلاَ﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿إِنَّهُمْ هُمْ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لاَ يشعرون﴾ بذلك. ﴿١٣﴾﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاس﴾ أَصْحَاب النَّبِيّ ﷺ ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاء﴾ الْجُهَّال. أَيْ لاَ نَفْعَل كَفِعْلِهِمْ. قَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿أَلاَ إِنَّهُمْ هُمْ السُّفَهَاء وَلَكِنْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ذَلِك. ﴿١٤﴾﴿وَإِذَا لَقُوا﴾ أَصْله لَقِيُوا، حُذِفَتْ الضَّمَّة لِلاسْتِثْقَالِ ثُمَّ الْيَاء لالْتِقَائِهَا سَاكِنَة مَعَ الْوَاو ﴿الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينهمْ﴾ وإذا انفردوا ورجعوا إلى رؤسائهم وكبرائهم ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾ فِي الدِّين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾ بِهِمْ بِإِظْهَارِ الإِيمَان. ﴿١٥﴾﴿اللهُ يَسْتَهْزِئ بِهِمْ﴾ يُجَازِيهِمْ بِاسْتِهْزَائِهِمْ ﴿وَيَمُدّهُمْ﴾ يُمْهِلهُمْ ويزيدهم بطريق الإمهال والترك ﴿فِي طُغْيَانِهِمْ﴾ في ضلالهم وكفرهم ﴿يَعْمَهُونَ﴾ يَتَرَدَّدُونَ تَحَيُّرًا. حَال. ﴿١٦﴾﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلاَلَة بِالْهُدَى﴾ أَيْ اسْتَبْدَلُوهَا بِهِ ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتهمْ﴾ أَيْ مَا رَبِحُوا فِيهَا، بَلْ خَسِرُوا لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّار الْمُؤَبَّدَة عَلَيْهِمْ ﴿وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ وهو اسم فاعل من اهتدى. أي وما كانوا راشدين فِيمَا فَعَلُوا.

وبعد أن وصف الله تعالى حال المنافقين في الآيات السابقة، ساق مثلين لتوضيح سوء تصرفهم، وشدة حيرتهم واضطرابهم. فقال تعالى:

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ

الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

﴿١٧﴾﴿مَثَلهمْ﴾ صِفَتهمْ فِي نِفَاقهمْ ﴿كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ﴾ أَوْقَدَ ﴿نَارًا﴾ فِي ظُلْمَة ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ﴾ أَنَارَتْ ﴿مَا حَوْله﴾ فَأَبْصَرَ وَاسْتَدْفَأَ وَأَمِنَ مِمَّنْ يَخَافهُ ﴿ذَهَبَ اللَّه بِنُورِهِمْ﴾ أَطْفَأَهُ. وَجُمِعَ الضَّمِير مُرَاعَاة لِمَعْنَى الَّذِي ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَات لَا يُبْصِرُونَ﴾ مَا حَوْلهمْ مُتَحَيِّرِينَ عَنِ الطَّرِيق خَائِفِينَ. فَكَذَلِكَ هَؤُلَاءِ؛ دخلوا في الإسلام نفاقا، فظفِروا بِحَقْنِ دمائِهم، وبغنائم الجهاد، وسائر أحكام المسلمين، وتمتعوا بذلك في الدنيا قليلا. ثم صاروا إلى ظلمات العذاب الدائم في الآخرة. هُمْ ﴿١٨﴾﴿صُمّ﴾ عَنِ الْحَقّ فَلَا يَسْمَعُونَهُ سَمَاع قَبُول ﴿بُكْم﴾ خُرْس عَنِ الْخَيْر فَلَا يَقُولُونَهُ ﴿عُمْي﴾ عَنْ طَرِيق الْهُدَى فَلَا يَرَوْنَهُ ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ عَنِ الضَّلَالَة. ﴿١٩﴾﴿أَوْ﴾ مَثلهمْ ﴿كَصَيِّبٍ﴾ أي كمثل قومٍ أصابهم مطر شديد. الصيب المطر الغزير. مأخوذ من الصوَّبْ، وهو النزول بشدة. أَيْ يَنْزِل المطر ﴿مِنَ السَّمَاء﴾ أي من السحاب ﴿فِيهِ﴾ أي في المطر يصحبه ﴿ظُلُمَات﴾ مُتَكَاثِفَة ﴿وَرَعْد﴾ الصوت الذي يسمع بسبب اصطدام سحابتين مُحْمَلتين بشَحْنَتَيْن كَهْرَبِيَّتَيْن إحداهما موجبة (+) والأخرى سالبة (−) ﴿وَبَرْق﴾ هو الضوء الذي يحدُث بسبب الاصطدام ذاته ﴿يَجْعَلُونَ﴾ أي أصحاب الصيب ﴿أصابعهم﴾ أي أناملهم ﴿فِي آذَانهمْ مِنْ﴾ أَجْل ﴿الصَّوَاعِق﴾ لِئَلاَّ يَسْمَعُوهَا. الصواعق جمع صاعقة. من الصعق، وهو شدة الصوت الذي يصحبه قطعة من نار، لا تأتي على شيء إلا أهلكته. وأما الفرق بين البرق والصاعقة فهو أن البرق يكون بين السحابتين، والصاعقة تكون بين السحابة والأرض ﴿حَذَرَ﴾ خَوْفَ ﴿الْمَوْت﴾ مِنْ سَمَاعهَا. كَذَلِكَ هَؤُلَاءِ؛ إِذَا نَزَلَ الْقُرْآن، وَفِيهِ ذِكْر الْكُفْر الْمُشَبَّه بِالظُّلُمَاتِ، وَالْوَعِيد عَلَيْهِ الْمُشَبَّه بِالرَّعْدِ، وَالْحُجَج الْبَيِّنَة الْمُشَبَّهَة بِالْبَرْقِ، يَسُدُّونَ آذَانهمْ لِئَلاَّ يَسْمَعُوهُ فَيَمِيلُوا إِلَى الإِيمَان وَتَرْك دِينهمْ، وَهُوَ عِنْدهمْ مَوْت ﴿وَاللَّه مُحِيط بِالْكَافِرِينَ﴾ عِلْمًا

وَقُدْرَة فَلاَ يَفُوتُونَهُ. ﴿٢٠﴾﴿يَكَاد﴾ يَقْرَب ﴿الْبَرْق يَخْطَف أَبْصَارهمْ﴾ يَأْخُذهَا بِسُرْعَةٍ ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ﴾ أَيْ فِي ضَوْئِهِ ﴿وَإِذَا أَظْلَم عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ وَقَفُوا. تَمْثِيل لِإِزْعَاجِ مَا فِي الْقُرْآن مِنَ الْحُجَج قُلُوبهمْ وَتَصْدِيقهمْ لِمَا سَمِعُوا فِيهِ مِمَّا يُحِبُّونَ وَوُقُوفهمْ عَمَّا يَكْرَهُونَ ﴿وَلَوْ شَاءَ الله لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ بِمَعْنَى أَسْمَاعهمْ ﴿وَأَبْصَارهمْ﴾ الظَّاهِرَة كَمَا ذَهَبَ بِالْبَاطِنَةِ ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلّ شَيْء﴾ شَاءَهُ ﴿قَدِير﴾ ومنه إذهاب ما ذُكِرَ.

الباب الثاني: الدعوة العامة

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾

﴿٢١﴾﴿يَا أيها النَّاس﴾ أَنَّهُ عَامٌّ فِي جَمِيعِ النَّاسِ ﴿اُعْبُدُوا﴾ وَحِّدُوا ﴿رَبّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ أَنْشَأَكُمْ وَلَمْ تَكُونُوا شَيْئًا. الخلق: الإيجاد والاختراع بلا مثال. وأصله في اللغة التقدير. ﴿وَ﴾ خَلَقَ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ بِعِبَادَتِهِ عِقَابه. وَلَعَلَّ فِي الأَصْل لِلتَّرَجِّي، وَفِي كَلاَمه تعالى للتحقيق. ﴿٢٢﴾﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ خَلَقَ ﴿لَكُمْ الأَرْض فِرَاشًا﴾ حَال. الفراش: الوطاءُ والمهاد الذي يقعد عليه الإنسان وينام، ﴿وَالسَّمَاء بِنَاء﴾ سَقْفًا ﴿وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ﴾ أَنْوَاع ﴿الثَّمَرَات رِزْقًا لَكُمْ فَلاَ تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ شُرَكَاء فِي الْعِبَادَة. الأنداد: جمع ندّ. النِدُّ: المثل، ولا يقال إلا للمخالف المناوي ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّ الله هو الْخَالِق، وَالأصنام لاَ تَخْلُقُونَ، وَلاَ يَكُون إِلَهًا إِلاَّ مَنْ يَخْلُق.

وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ

مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ إِنَّ اللهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٦﴾ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢٧﴾

﴿٢٣﴾﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ﴾ شَكّ ﴿مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ مُحَمَّد مِنَ الْقُرْآن أَنَّهُ مِنْ عِنْد الله ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ﴾ "مِنْ" لِلْبَيَانِ. أَيْ هِيَ مِثْله فِي الْبَلَاغَة، وَحُسْن النَّظْم، وَالإِخْبَار عَنِ الْغَيْب. وَالسُّورَة قِطْعَة لَهَا أَوَّل وَآخِر، أَقَلّهَا ثَلَاث آيَات. ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ آلِهَتكُمْ الَّتِي تَعْبُدُونَهَا. فقد كانوا يزعمون أن آلهتهم تشهد لهم يوم القيامة بأنهم على حق. ﴿مِنْ دُونِ اللهِ﴾ أي من غَيْره لِتُعِينَكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي أَنَّ مُحَمَّدًا قَالَهُ مِنْ عِنْد نَفْسه، فَافْعَلُوا ذَلِك فَإِنَّكُمْ عَرَبِيُّونَ فُصَحَاء مِثْله. وَلَمَّا عَجَزُوا عَنْ ذَلِك قَالَ تَعَالَى: ﴿٢٤﴾﴿فإن لم تفعلوا﴾ ما ذُكِر لعجزكم ﴿وَلَنْ تَفْعَلُوا﴾ ذَلِك أَبَدًا لِظُهُورِ إِعْجَازه. اعْتِرَاض. ﴿فَاتَّقُوا﴾ بِالإِيمَانِ بأنه لَيْسَ مِنْ كَلَام الْبَشَر ﴿النَّار الَّتِي وَقُودهَا﴾ والوقود: ما يلقى في النار لإضرامها كالحطب ﴿النَّاس﴾ الْكُفَّار ﴿وَالْحِجَارَة﴾ والأصنام التي عبدوها كقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (الأنبياء، ٩٨/٢١) ﴿أُعِدَّتْ﴾ هُيِّئَتْ ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾ يُعَذَّبُونَ بِهَا. جُمْلَة مُسْتَأْنَفَة أَوْ حَال لاَزِمَة. ﴿٢٥﴾﴿وَبَشِّرْ﴾ أَخْبِرْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِاللهِ مُوَحِّدًا ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَات﴾ مِنَ الْفُرُوض وَالنَّوَافِل ﴿أَنَّ﴾ أَيْ بِأَنَّ ﴿لَهُمْ جَنَّات﴾ حَدَائِق ذَات أَشْجَار وَمَسَاكِن ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ أَيْ تَحْت أَشْجَارهَا وَقُصُورهَا ﴿الأَنْهَار﴾ كما جاء في

الآية: ﴿فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى﴾ (محمد، ١٥/٤٧) ﴿كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا﴾ أُطْعِمُوا مِنْ تِلْكَ الْجَنَّات ﴿مِنْ ثَمَرَة رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي﴾ أَيْ مِثْلُ مَا ﴿رُزِقْنَا مِنْ قَبْل﴾ أَيْ قَبْله فِي الْجَنَّة أو فِي الدُّنْيا لِتَشَابُهِ ثِمَارهَا، بِقَرِينَةِ ﴿وَأُتُوا بِهِ﴾ أَيْ جِيئُوا بِالرِّزْقِ ﴿مُتَشَابِهًا﴾ يُشْبِه بَعْضه بَعْضًا لَوْنًا وَيَخْتَلِف طَعْمًا. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاج﴾ مِنَ الْحُور وَغَيْرهَا ﴿مُطَهَّرَة﴾ من مساوي الأخلاق، ومن الحيض والاستحاضة، ومن البول والغائط وسائر الأقذار والأدناس ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ مَاكِثُونَ أَبَدًا، لاَ يَفْنَوْنَ وَلاَ يَخْرُجُونَ. وَنَزَلَ رَدًّا لِقَوْلِ الْيَهُود لَمَّا ضَرَبَ الله الْمَثَل بِالذُّبَابِ فِي قَوْله ﴿وَإِنْ يَسْلُبهُمْ الذُّبَاب شَيْئًا﴾ (الحج، ٧٣/٢٢)، وَالْعَنْكَبُوت فِي قَوْله ﴿كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوت﴾ (العنكبوت، ٤١/٢٩): "مَا أَرَادَ الله بِذِكْرِ هَذِهِ الأَشْيَاء الْخَسِيسَة؟" فَأَنْزَلَ الله: ﴿٢٦﴾﴿إن الله لا يستحيي أَنْ يَضْرِب﴾ يَجْعَل ﴿مَثَلاً﴾ مَفْعُول أَوَّل ﴿مَا﴾ نَكِرَة مَوْصُوفَة بِمَا بَعْدهَا مَفْعُول ثَانٍ. أَيْ أَيّ مَثَل كَانَ ﴿بَعُوضَة﴾ مُفْرَد الْبَعُوض، وَهِي حشرة معلومة تمتص إناثها دم الإنسان ﴿فَمَا فَوْقهَا﴾ في الصِّغر أو الكِّبر. أَيْ لا يَتْرُك بَيَانه لِمَا فِيهِ مِنَ الْحِكْمة. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أَيْ الْمَثَل ﴿الْحَقّ﴾ الثَّابت الْوَاقِع مَوْقِعه ﴿مِنْ رَبّهمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ الله بِهَذَا مَثَلاً﴾ تَمْيِيز. أَيْ بِهَذَا الْمَثَل. وَمَا اسْتِفْهَام إِنْكَار مُبْتَدَأ، وَذَا بِمَعْنَى الَّذِي بِصِلَتِهِ خَبَره. أَيْ أَيّ فَائِدَة فِيهِ؟ قَالَ تَعَالَى فِي جَوَابهمْ ﴿يُضِلّ بِهِ﴾ أَيْ بِهَذَا الْمَثَل ﴿كَثِيرًا﴾ عَنِ الْحَقّ لِكُفْرِهِمْ بِهِ ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِتَصْدِيقِهِمْ بِهِ ﴿وَمَا يُضِلّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ﴾ الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَته. ﴿٢٧﴾﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْد الله﴾ مَا عَهِدَهُ إِلَيْهِمْ فِي الْكُتُب مِنَ الإِيمَان بِمُحَمَّدٍ ﷺ أو ينقضون كل عهد وميثاق ﴿مِنْ بَعْد مِيثَاقه﴾ تَوْكِيده عَلَيْهِمْ. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَل﴾ مِنَ الإِيمَان بِالنَّبِيِّ، وَالرَّحِم، وَغَيْر ذَلِكَ. وَأَنْ بَدَل مِنْ ضَمِير بِهِ ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْض﴾ بِالْمَعَاصِي وَالتَّعْوِيق عَنِ الإِيمَان. ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ ﴿هُمْ الْخَاسِرُونَ﴾ لِمَصِيرِهِمْ إِلَى النَّار الْمُؤَبَّدَة عَلَيْهِمْ.

كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾

﴿٢٨﴾﴿كيف تكفرون﴾ أيها الناس ﴿بالله و﴾ قَدْ ﴿كُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ نُطَفًا فِي الأَصْلاَب ﴿فَأَحْيَاكُمْ﴾ فِي الأرحام والدينا بنفخ الروح فيكم. والاستفهام للتعجب مِنْ كُفْرهمْ مَعَ قِيَام الْبُرْهَان أَوْ لِلتَّوْبِيخِ. ﴿ثُمَّ يُمِيتكُمْ﴾ عِنْد انْتِهَاء آجَالكُمْ ﴿ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ تُرَدُّونَ بَعْد الْبَعْث فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. وَقَالَ دَلِيلاً عَلَى الْبَعْث لِمَا أنكروه: ﴿٢٩﴾﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الأَرْض﴾ أَيْ الأَرْض وَمَا فِيهَا ﴿جَمِيعًا﴾ لِتَنْتَفِعُوا بِهِ وَتَعْتَبِرُوا ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ أَيْ قَصَدَ بَعْد خَلْق الأَرْض ﴿إِلَى السَّمَاء فَسَوَّاهُنَّ﴾ الضَّمِير يَرْجِع إِلَى السَّمَاء. أَيْ صَيَّرَهَا كَمَا فِي آيَة أُخْرَى ﴿فَقَضَاهُنَّ﴾ (فصلت، ١٢/٤١) ﴿سَبْع سَمَاوَات وَهُوَ بِكُلِّ شَيْء عَلِيم﴾ مُجْمَلاً وَمُفَصَّلاً. أَفَلاَ تَعْتَبِرُونَ أَنَّ الْقَادِر عَلَى خَلْق ذَلِك ابْتِدَاء وَهُوَ أَعْظَم مِنْكُمْ قَادِرٌ عَلَى إعادتكم.

الباب الثالث: تاريخ الدعوة

الفصل الأول: قصة آدم عليه السلام

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاَءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ

إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾

﴿٣٠﴾﴿و﴾ اذكر يَا مُحَمَّد ﴿إِذْ قَالَ رَبّك لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِل فِي الأَرْض خَلِيفَة﴾ أي آدم وذريته، لأنه يخلُف بعضهم بعضا في عمارة الأرض، واستغنى بذكره عن ذكر ذريته لكونه الأصل. وقيل: الخليفة آدم، هو خليفة الله فِي تَنْفِيذ أَحْكَامِه فِي الدنيا. والخليفة من يخلف غيره وينوب منابه. فهو فعيل بمعنى فاعل، والتاء فيه للمبالغة ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِد فِيهَا﴾ بِالْمَعَاصِي ﴿وَيَسْفِك الدِّمَاء﴾ يُرِيقهَا بِالْقَتْلِ. والملائكة لا يعلمون الغيب، فلا بد أن يكونوا قد علموا ماذا سيكون من الفساد في الأرض وسفك الدماء بإخبار الله تعالى. ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّح﴾ التسبيح: تنزيه الله وتبرئته عن السوء. وأصله من السَّبْح، وهو الجري والذهاب. فالمسَبِّح جارٍ في تنزيه الله تعالى. ﴿بِحَمْدِك﴾ معنى الحمد قد تقدم. أي نسبح حامدين لك، ومتلبسين بحمدك، كقوله تعالى ﴿وَقَدْ دَخَلُوا بالكفر﴾ (المائدة، ٦١/٥) أي دخلوا كافرين. أي نقول سبحان الله وبحمده، كذلك نمجدك بكل خير، وننزهك عن كل سوء. ﴿وَنُقَدِّس لَك﴾ التقديس: التطهير والتنزيه. أي نُنَزِّهك عَمَّا لاَ يَلِيق بِك. فَاللام زَائِدَة، وَالْجُمْلَة حَال. والمعنى: ما الحكمة في استخلاف آدم؟ أو ألسنا أَحَقّ بِالاسْتِخْلاَفِ؟ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى ﴿إِنِّي أَعْلَم مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ مِنَ الْمَصْلَحَة فِي اسْتِخْلاَف آدَم. منها أن يكون فيهم الأنبياء والأولياء

والعلماء. ﴿٣١﴾﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ أي أسماء المسميات كلها. والمعنى: علّم آدم ذوات الأشياء المادية من نبات وجماد وحيوان، وخواصها، وأسمائها، وأصول العلوم، وقوانين الصناعات، وكيفية آلاتها. ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ﴾ أَيْ الْمُسَمَّيَات. وَفِيهِ تَغْلِيب الْعُقَلاء ﴿عَلَى الْمَلاَئِكَة فَقَالَ﴾ لَهُمْ تَبْكِيتًا ﴿أَنْبِئُونِي﴾ أَخْبِرُونِي ﴿بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ الْمُسَمَّيَات ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في زعمكم أني أستخلف في الأرض مفسدين سفاكين للدماء فقط. ﴿٣٢﴾﴿قَالُوا سُبْحَانك﴾ تَنْزِيهًا لَك عَنِ الاعْتِرَاض عَلَيْك ﴿لاَ عِلْم لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا﴾ إيَّاهُ ﴿إِنَّك أَنْت﴾ تَأْكِيد لِلْكَافِ ﴿الْعَلِيم﴾ بكل شيء ﴿الْحَكِيم﴾ في كل صنع. ﴿٣٣﴾﴿قال﴾ تعالى ﴿يا آدم أَنْبِئْهُمْ﴾ أَيْ الْمَلاَئِكَة ﴿بِأَسْمَائِهِمْ﴾ الْمُسَمَّيَات. فَسَمَّى كُلّ شَيْء بِاسْمِهِ وَذَكَرَ حِكْمَته الَّتِي خُلِقَ لَهَا ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ مُوَبِّخًا ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَم غَيْب السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ مَا غَابَ فِيهِمَا ﴿وَأَعْلَم مَا تُبْدُونَ﴾ مَا تُظْهِرُونَ مِنْ قَوْلكُمْ ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا﴾ إِلَخْ ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ تُسِرُّونَ مِنْ قَوْلكُمْ: "لَنْ يَخْلُق أَكْرَم عَلَيْهِ مِنَّا وَلاَ أَعْلَم." ﴿٣٤﴾﴿وَ﴾ اُذْكُرْ ﴿إِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ سُجُود تَحِيَّة بِالانْحِنَاءِ ﴿فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيس﴾ وهو ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ (الكهف، ٥٠/١٨) يعيش بَيْن الْمَلاَئِكَة ﴿أَبَى﴾ امْتَنَعَ مِنَ السُّجُود ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ تَكَبَّرَ عَنْهُ، و﴿قَالَ أَنَا خَيْر مِنْهُ﴾ (الأعراف، ١٢/٧) ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ أي صار بإبائه واستكباره من الكافرين؛ لأنه ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ (الكهف، ٥٠/١٨). ﴿٣٥﴾﴿وقلنا يا آدم اُسْكُنْ أَنْت﴾ تَأْكِيد لِلضَّمِيرِ الْمُسْتَتِر لِيَعْطِف عَلَيْهِ ﴿وَزَوْجك﴾ حَوَّاء. ﴿الْجَنَّة﴾ أي جنة الخلد. وقال الماتريدي: "الجنة هي اسم البقعة التي حُفت بالأشجار والغُروس وأنواع النبات. ثم لا يُدْرَى ما تلك الجنة التي أمر آدمُ وحواء بالكَون والمُقام فيها: أهي التي وُعد المتقون، أَو جنة من جنات الدنيا؛ إذ ليس في الآية بيان ذلك." ﴿وَكُلاَ مِنْهَا﴾ أَكْلاً ﴿رَغَدًا﴾ وَاسِعًا كثيرًا ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَة﴾ بِالأَكْلِ مِنْهَا. ونوع هذه الشجرة مجهول، والقول فيه رجم بالغيب، لا فائدة فيه ﴿فَتَكُونَا﴾ فَتَصِيرَا ﴿مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ العاصين. ﴿٣٦﴾﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَان عَنْهَا﴾ أي

أوقعهما في الزلة بسببها وأغواهما بالأكل منها. هذا إذا كان الضمير عائدًا إلى الشجرة. أما إذا كان عائدًا إلى الجنة فيكون المعنى أبعدهما وحوّلهما من الجنة. وَفِي قِرَاءَة "فَأَزَالَهُمَا" نَحَّاهُمَا. ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ۞ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ﴾ (الأعراف، ٧/١٩-٢٠) ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ أي من نعيم الجنة ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا﴾ من جنة الخلد أو من جنة الدنيا. والهبوط قد يستعمل في معنى النزول من فوق إلى أسفل، وقد يتسعمل في معنى الذهاب من مكان إلى مكان آخر كقوله تعالى: ﴿اهْبِطُوا مِصْرًا﴾ (البقرة، ٢/٦١). والخطاب لآدم وحواء وإبليس ﴿بَعْضكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ﴾ يعني إبليسَ وأَوْلاده، وإنسان وأولادَه بعضهم لبعض عدو ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرّ﴾ مَوْضِع استقرار وإقامة ﴿وَمَتَاع﴾ مَا تَتَمَتَّعُونَ بِهِ. والمتاع: اسم لما يستمتع به من مأكل ومشرب وملبس وحياة ﴿إِلَى حِين﴾ وَقْت انْقِضَاء آجَالكُمْ. ﴿٣٧﴾﴿فَتَلَقَّى آدَم مِنْ رَبّه كَلِمَات﴾ أي أخذها. وهذه الكلمات مفسّرة في موطن آخر: ﴿قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (الأعراف، ٧/٢٣)، فَدَعَا بِهَا ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ قَبِلَ تَوْبَته ﴿إِنَّهُ هُوَ التَّوَّاب﴾ عَلَى عِبَاده ﴿الرَّحِيم﴾ بِهِمْ. ﴿٣٨﴾﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا﴾ مِنَ الْجَنَّة ﴿جَمِيعًا﴾ كرر الأمر بالهبوط للتأكيد ولبيان أنَّ إقامة آدم وذريته في الأرض لا في الجنة ﴿فَإِمَّا﴾ فِيهِ إِدْغَام نُون إِنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الزَّائِدَة ﴿يَأْتِيَنكُمْ مِنِّي هُدًى﴾ كِتَاب وَرَسُول ﴿فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ﴾ فَآمَنَ بِي وَعَمِلَ بِطَاعَتِي ﴿فَلاَ خَوْف عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا ينالهم خوف ولا حزن في الآخرة بِأَنْ يَدْخُلُوا الْجَنَّة. والخوف راجع إلى المستقبل، والحزن إلى الماضي. ﴿٣٩﴾﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كُتُبنَا ﴿أُولَئِكَ أَصْحَاب النار هم فيها خالدون﴾ ما كثون أَبَدًا لاَ يَفْنَوْنَ وَلاَ يَخْرُجُونَ.

الفصل الثاني: قصة بني إسرائيل

المبحث الأول: دعوة الإسلام

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلاَ تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلاَ تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾

﴿٤٠﴾﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي أَوْلاد يَعْقُوب. إسرائيل لقب له ﴿اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ عَلَى آبَائِكُمْ مِنَ الإِنْجَاء مِنْ فِرْعَوْن، وَفَلْق الْبَحْر، وَتَظْلِيل الْغَمَام، وَغَيْر ذَلِكَ بِأَنْ تَشْكُرُوهَا بِطَاعَتِي ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي﴾ الَّذِي عَهِدْتُه إِلَيْكُمْ مِنَ الإِيمَان بِمُحَمَّدٍ ﴿أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ الَّذِي عَهِدْت إِلَيْكُمْ مِنَ الثَّوَاب عَلَيْهِ بدخول الجنة ﴿وإياي فارهبون﴾ خَافُونِ فِي تَرْك الْوَفَاء بِهِ دُون غَيْرِي. ﴿٤١﴾﴿وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْت﴾ مِنَ الْقُرْآن ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَاة بِمُوَافَقَتِهِ لَهُ فِي التَّوْحِيد وَالنُّبُوَّة ﴿وَلاَ تَكُونُوا أَوَّل كَافِر بِهِ﴾ مِنْ أَهْل الْكِتَاب؛ لأَنَّ خَلْفكُمْ تَبَعٌ لَكُمْ فَإِثْمهمْ عَلَيْكُمْ ﴿وَلاَ تَشْتَرُوا﴾ تَسْتَبْدِلُوا ﴿بِآيَاتِي﴾ الَّتِي فِي كِتَابكُمْ مِنْ نَعْت مُحَمَّد ﷺ ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ عَرَضًا يَسِيرًا مِنَ الدُّنْيَا. أَيْ لاَ تَكْتُمُوهَا خَوْف فَوَات مَا تَأْخُذُونَهُ مِنْ سَفَلَتِكُمْ ﴿وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾ خَافُونِ فِي ذَلِكَ دون غيري. فائدة: قال "فارهبون" في الأولى -الرهب دون التقوى-؛ لأنه خاطب الكافة. وقال فاتقون في الثاني -التقوى فوق الرهب-؛ لأنه خاطب العلماء، والتقوى أليق لهم. ﴿٤٢﴾﴿وَلاَ تَلْبِسُوا﴾ تَخْلِطُوا ﴿الْحَقّ﴾ الَّذِي أَنْزَلْت عَلَيْكُمْ ﴿بِالْبَاطِلِ﴾ الَّذِي تَفْتَرُونَهُ. ﴿وَ﴾ لاَ ﴿تَكْتُمُوا الْحَقّ﴾ نَعْت مُحَمَّد ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ الْحَقّ. ﴿٤٣﴾﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ صَلُّوا مَعَ الْمُصَلِّينَ مُحَمَّد وَأَصْحَابه. أي آمنوا وعملوا أيها اليهود! ﴿٤٤﴾﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاس بِالْبِرِّ﴾ بِالإِيمَانِ والعمل ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسكُمْ﴾ تَتْرُكُونَ الإيمان والعمل. أي لا تؤمنون

بمحمد ولا تعملون الأعمال الصالحات ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ التَّوْرَاة. وَفِيهَا الْوَعِيد عَلَى مُخَالَفَة الْقَوْل الْعَمَل ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ سُوء فِعْلكُمْ فَتَرْجِعُونَ. فَجُمْلَة النِّسْيَان محل الاستفهام الإنكاري. ﴿٤٥﴾﴿واستعينوا﴾ اطلبوا المعونه عن أُمُوركُمْ ﴿بِالصَّبْرِ﴾ على الطاعة والمعصية والْمَشَاقّ ﴿و﴾ بإقامة ﴿الصلاة﴾ أفردها بالذكر تعظيما لشأنه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت، ٢٩/٤٥) وَقِيلَ: الْخِطَاب لِلْيَهُودِ لَمَّا عَاقَهُمْ عَنِ الإِيمَان الشَّرَهُ وَحُبُّ الرِّيَاسَة فَأُمِرُوا بِالصَّبْرِ -وَهُوَ الصَّوْم- لأَنَّهُ يَكْسِر الشَّهْوَة، وَالصَّلاة لأَنَّهَا تُورث الْخُشُوع وَتَنْفِي الْكِبْر. ﴿وَإِنَّهَا﴾ أَيْ الصَّلاة أو الاستِعَانة ﴿لَكَبِيرَة﴾ ثَقِيلَة ﴿إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ جمع الخاشع، وهو المتواضع. والخشوع: هيئة في النفس يظهر منها في الجوارح سكون وتواضع. ﴿٤٦﴾﴿الذين يظنون﴾ يوقنون ﴿أنهم ملاقوا رَبِّهِمْ﴾ بِالْبَعْثِ ﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فِي الآخِرَة فيجازيهم.

المبحث الثاني: النعمات والجحودات

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٤٨﴾

﴿٤٧﴾﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيل اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْت عَلَيْكُمْ﴾ بِالشُّكْرِ عَلَيْهَا بِطَاعَتِي ﴿وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ﴾ أَيْ آبَاءَكُمْ ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ عَالَمِي زَمَانهمْ. ﴿٤٨﴾﴿واتقوا﴾ خافوا ﴿يوما﴾ وهو يوم القيامة ﴿لاَ تَجْزِي﴾ لا تقضي فِيهِ ﴿نَفْس عَنْ نَفْس شَيْئًا﴾ من الحقوق التي لزمتها ﴿وَلاَ يُقْبَل﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاء ﴿مِنْهَا﴾ أي لنفس كافرة ﴿شَفَاعَة﴾ الشافعين ﴿ولا يؤخذ منها عَدْل﴾ فِدَاء ﴿وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله.

وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلاَءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٩﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ

وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٥١﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَامُوسَى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

﴿٤٩﴾﴿وَ﴾ اذْكُرُوا ﴿إِذْ نَجَّيْنَاكُمْ﴾ أَيْ آبَاءَكُمْ. وَالْخِطَاب بِهِ وَبِمَا بَعْده لِلْمَوْجُودِينَ فِي زَمَن نَبِيّنَا بِمَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى آبَائِهِمْ تَذْكِيرًا لَهُمْ بِنِعْمَةِ اللهِ تَعَالَى لِيُؤْمِنُوا ﴿مِنْ آل فِرْعَوْن يَسُومُونَكُمْ﴾ يُذِيقُونَكُمْ ﴿سُوء الْعَذَاب﴾ أَشَدّه. وَالْجُمْلَة حَال مِنْ ضَمِير نَجَّيْنَاكُمْ ﴿يُذَبِّحُونَ﴾ بَيَان لِمَا قَبْله ﴿أَبْنَاءَكُمْ﴾ الْمَوْلُودِينَ ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ يَتْرُكُون ﴿نِسَاءَكُمْ﴾ أي بناتكم أحياء للخدمة؛ لأن الكهنة أنذروا فرعون بأنه يولد فِي

بَنِي إسْرَائِيل مولود يزول ملكه بسببه ﴿وَفِي ذَلِكُمْ﴾ الْعَذَاب أَوْ الإِنْجَاء ﴿بَلاَء﴾ ابْتِلاَء أَوْ إنْعَام ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ صفةٌ لِبلاء ﴿عَظِيمٌ﴾ صفةٌ ثانيةٌ. ﴿٥٠﴾﴿وَ﴾ اذْكُرُوا ﴿إذْ فَرَقْنَا﴾ فَلَقْنَا ﴿بِكُمْ﴾ بِسَبَبِكُمْ ﴿الْبَحْر﴾ حَتَّى دَخَلْتُمُوهُ هَارِبِينَ مِنْ عَدُوّكُمْ ﴿فَأَنْجَيْنَاكُمْ﴾ مِنَ الْغَرَق ﴿وَأَغْرَقْنَا آل فِرْعَوْن﴾ قَوْمه مَعَهُ ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ إلَى انْطِبَاق الْبَحْر عَلَيْهِمْ. ﴿٥١﴾﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا﴾ بِأَلِفٍ وَدُونَهَا ﴿مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَة﴾ نُعْطِيه عِنْد انْقِضَائِهَا التَّوْرَاة لِتَعْمَلُوا بِهَا ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ الْعِجْل﴾ الَّذِي صَاغَهُ لَكُمْ السَّامِرِيّ معبودًا كما اتخذ أهل مصر البقرة ﴿مِنْ بَعْده﴾ أَيْ بَعْد ذَهَابه إلَى مِيعَادنَا إلى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي بوضعكم العبادة غير موضعها. والجملة حال. أي عبدتموه ظالمين. ﴿٥٢﴾﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ﴾ مَحَوْنَا ذُنُوبكُمْ لتوبتكم ﴿مِنْ بَعْد ذَلِكَ﴾ الاتِّخَاذ ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لِكَيْ تَشكُروا عفوَه وتَستَمرُّوا بعد ذلك على الطاعة. ﴿٥٣﴾﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَاب﴾ التَّوْرَاة ﴿وَالْفُرْقَان﴾ عَطْف تَفْسِير. أَيْ الْفَارِق بَيْن الْحَقّ وَالْبَاطِل وَالْحَلاَل وَالْحَرَام. وقال بعضهم: التوراة والبرهان الفارق بين الكفر والإيمان من العصا واليد وغيرهما من الآيات ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ بِهِ مِنَ الضَّلاَل. ﴿٥٤﴾﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ الَّذِينَ عَبَدُوا الْعِجْل ﴿يَا قَوْمِ إنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسكُمْ بِاتِّخَاذِكُمْ الْعِجْل﴾ معبودًا ﴿فَتُوبُوا إلَى بَارِئُكُمْ﴾ أي توبوا إلى من خلقكم بريئًا من العيب والنقصان ﴿فَاقْتُلُوا أَنْفُسكُمْ﴾ بَعْضُكم بَعْضًا. أَيْ لِيَقْتُل الْبَرِيء مِنْكُمْ الْمُجْرِم، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ (النور، ٦١/٢٤) وقيل: كانت التوبة عندهم أن يقتل التائب نفسه إثباتًا لصدق توبته. وقيل: المراد بقتل النفس قتل شهواتها ﴿ذَلِكُمْ﴾ الْقَتْل ﴿خَيْر لَكُمْ عِنْد بَارِئِكُمْ﴾ فَوَفَّقَكُمْ لِفِعْلِ ذَلِكَ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ قَبِلَ تَوْبَتكُمْ ﴿إنَّهُ هُوَ التَّوَابُ الرَّحِيمُ﴾ تعليل لما قبله. أيْ إنَّ الذي يُكثر توفيقَ المذنبين لتوبة ويبالِغُ في قبولها منهم، وفي الإنعام عليهم. ﴿٥٥﴾﴿وَ﴾ اذكروا قول السبعين من أسلافكم الذين اختارهم موسى ﷺ حين ذهبوا معه إلى الطّور للاعتذار عن عبادة العجل وَسَمِعوا كَلاَمه ﴿إذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نُؤْمِن لَك حَتَّى نَرَى اللهَ جَهْرَة﴾ عيانًا ﴿فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَة﴾ فَمُتُّمْ ﴿وأنتم تنظرون﴾ إلى

هذه العقوبة. ﴿٥٦﴾﴿ثم بعثنا كم﴾ أحييناكم ﴿من بعد موتكم لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي لتشكروا الله على إنعامه عليكم بالبعث بعد الموت. ثم ذكّرهم تعالى بنعمته عليهم وهم في التية لما امتنعوا من دخول مدينة الجبارين وقتالهم وقالوا لموسى ﴿فاذهب أَنتَ وَرَبُّكَ فقاتلا﴾ (المائدة، ٥/٢٤)، فَعُوقِبُوا على ذلك بالضياع أربعين سنة يتيهون في الأرض، فقال تعالى: ﴿٥٧﴾﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَام﴾ سَتَرْنَاكُمْ بِالسَّحَابِ الرَّقِيق مِنْ حَرّ الشَّمْس فِي التِّيه ﴿وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ فِيهِ ﴿الْمَنّ﴾ وهو اسم جامع لكل رزق حسن يحصل بلا تعب. ومنه الكمأة كما قال النبي ﷺ: "الكمأة من المن." (البخاري، ٤٤٧٨). وقال بعضهم: والمنُّ كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه ﴿وَالسَّلْوَى﴾ وهو طائر صغير يقال له السماني طيب اللحم ﴿كُلُوا مِنْ طَيِّبَات﴾ لذيذاتِ أو حلالاتِ ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ وَلاَ تَدَّخِرُوا، فَكَفَرُوا النِّعْمَة وَادَّخَرُوا، فَقَطَعَ عَنْهُمْ ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ بِذَلِكَ ﴿وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسهمْ يَظْلِمُونَ﴾ لأَنَّ وَبَاله عَلَيْهِمْ. ﴿٥٨﴾﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ لَهُمْ بَعْد خُرُوجهمْ مِنَ التِّيه ﴿ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَة﴾ بَيْت الْمَقْدِس أَوْ أَرِيحَا. ﴿فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا﴾ وَاسِعًا لاَ حَجْر فِيهِ ﴿وَادْخُلُوا الْبَاب﴾ أَيْ بَابهَا ﴿سُجَّدًا﴾ ساجدين لله شكرًا على خَلاصكم من التيه ﴿وَقُولُوا حِطَّة﴾ أي قولوا: "يا ربنا! حطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا خطايانا." ﴿نَغْفِر﴾ وَفِي قِرَاءَة بِالْيَاءِ وَالتَّاء عَلَى صِيغَة المجهول ﴿لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ بِالطَّاعَةِ ثَوَابًا. ﴿٥٩﴾﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ مِنْهُمْ ﴿قَوْلاً غَيْر الَّذِي قِيلَ لَهُمْ﴾ فَقَالُوا: "حَبَّة فِي شَعِيرَة." وَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى أَسْتَاههمْ ﴿فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ فِيهِ وَضْع الظَّاهِر -أي الذين ظلموا- مَوْضِع الْمُضْمَر -أي هم- مُبَالَغَة فِي تَقْبِيح شَأْنهمْ ﴿رِجْزًا﴾ عَذَابًا. قيل: أي طَاعُونًا ﴿مِنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ بِسَبَبِ فِسْقهمْ. أَيْ خُرُوجهمْ عَنِ الطَّاعَة. فَهَلَكَ مِنْهُمْ فِي سَاعَة واحدةٍ سَبْعُونَ ألفا أو أقل. ﴿٦٠﴾﴿و﴾ اذْكُر ﴿إِذْ اسْتَسْقَى مُوسَى﴾ أَيْ طَلَبَ السُّقْيَا ﴿لِقَوْمِهِ﴾ وَقَدْ عَطِشُوا فِي التِّيه ﴿فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاك الْحَجَر﴾ أيّ حجر كان ﴿فَانْفَجَرَتْ﴾ انْشَقَّتْ وَسَالَتْ ﴿مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَة عَيْنًا﴾ بِعَدَدِ قبائلهم ﴿قَدْ عَلِمَ كُلّ أُنَاس﴾ جماعة إنسان. أي قبيلة مِنْهُمْ

﴿مَشْرَبَهُمْ﴾ مَوْضِع شُرْبِهِمْ. فَلاَ يَشْرَكهُمْ فِيهِ غَيْرهمْ. وَقُلْنَا لَهُمْ ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْق اللهِ﴾ الذي آتاكم من غير سعي ولا تعب. والمراد به المن والسلوى والعيون ﴿وَلاَ تَعْثَوْا﴾ أي لا تفسدوا إفسادا شديدا. والعثو أو العثيّ: أشد الفساد. ﴿فِي الأَرْض مُفْسِدِينَ﴾ حَال مُؤَكِّدَة. ﴿٦١﴾﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِر عَلَى طعام﴾ أي نوع ﴿وَاحِد﴾ وَهُوَ الْمَنّ وَالسَّلْوَى ﴿فَادْعُ لَنَا رَبّك يُخْرِج لَنَا﴾ شَيْئًا ﴿مِمَّا تُنْبِت الأَرْض مِنْ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿بَقْلِهَا﴾ خُضْرَتِها ﴿وَقِثَّائِهَا﴾ التي تُشْبِه الخيار ﴿وَفُومِهَا﴾ أي الثُّوم ﴿وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ﴾ لَهُمْ مُوسَى ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى﴾ أَخَسُّ ﴿بِالَّذِي هُوَ خَيْر﴾ أَشْرَفُ. أتفضلون البقل والثوم على المنّ والسلوى؟ وَالْهَمْزَة لِلإِنْكَارِ. فَأَبَوْا أَنْ يَرْجِعُوا فَدَعَا اللهَ تَعَالَى. فَقَالَ تَعَالَى ﴿اهْبِطُوا﴾ انْزِلُوا ﴿مِصْرًا﴾ مِنَ الأَمْصَار أو مصر فرعون. والأول عليه الأكثرون. ﴿فَإِنَّ لَكُمْ﴾ فِيهِ ﴿مَا سَأَلْتُمْ﴾ مِنَ النَّبَات. ﴿وَضُرِبَتْ﴾ جُعِلَتْ. ﴿عَلَيْهِمْ الذِّلَّة﴾ الذُّلّ وَالْهَوَان والحقارة ﴿وَالْمَسْكَنَة﴾ أَيْ الفاقة والفقر وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاء. مأخوذة من السكون؛ لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر. والضرب هنا كناية عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبَّة. وقيل: والمراد بالمسكنة في الآية: الضعف النفسي، والفقر القلبي. والذلة هوان تجيء أسبابه من الخارج. أما المسكنة فهي هوان ينشأ من داخل النفس. ﴿وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي صَارُوا أَحِقّاء بغضبه. ﴿ذَلِكَ﴾ أَيْ الضَّرْب وَالْغَضَب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أَيْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ﴾ كَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى ﴿بِغَيْرِ الْحَقّ﴾ أَيْ ظُلْمًا ﴿ذَلِكَ﴾ تكرار للإشارة ﴿بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ بسبب ارتكابهم أنواع المعاصي واعتدائهم حدود الله في كل شيء، مع كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء.

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾

﴿٦٢﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بِالأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلُ. قيل: بمحمد ﷺ ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي صاروا يهودا. يقال: هاد وتهود. أى دخل في اليهودية. وسموا بذلك نسبة إلى يهوذا

أكبر أولاد يعقوب -بقلب الذال دالا في التعريب-، أو سموا بذلك حين تابوا من عبادة العجل، من هاد يهود هودا بمعنى تاب. ﴿وَالنَّصَارَى﴾ جمع النصراني. وهم قوم عيسى عليه السلام. قيل: سموا بذلك لأنهم كانوا أنصارا له. وقيل: إن هذا الاسم مأخوذ من الناصرة، وهي القرية التي كان عيسى عليه السلام قد نزلها. ﴿وَالصَّابِئِينَ﴾ جمع صابئ، وهو الخارج من دين إلى دين. قيل: هم طَائِفَة بين المجوس والنَّصَارَى. قيل: هم الحنفاء الخارجون من الدين الباطل إلى الدين الحق كزيد بن عمرو. ﴿مَنْ آمَنَ﴾ من هذه الطوائف إيمانا خالصا ﴿بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ قبل بعثة محمد ﷺ ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ بشَرِيعَتِهِم ﴿فَلَهُمْ أَجْرُهمْ﴾ أَيْ ثَوَاب أَعْمَالهمْ ﴿عِنْدَ ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ في الآخرة. والخوف راجع إلى المستقبل، والحزن إلى الماضي كما تقدم. والله أعلم!

المبحث الثالث: الصفات السيئة

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾

﴿٦٣﴾﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾ عَهْدكُمْ بِالْعَمَلِ بِمَا فِي التَّوْرَاة. الميثاق: العهد المؤكد باليمين غاية التأكيد، فإن لم يكن مؤكدًا سمي عهدًا. ﴿و﴾ قَدْ ﴿رَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّور﴾ الطور اسم للجبل الذي كلّم الله عليه موسى عليه السلام أو أي جبل كان. و قيل في سبب رفع الطور: أن موسى عليه السلام لما جاء بني إسرائيل من عند الله بالألواح فيها التوراة، قال لهم: "خذوها والتزموها." فقالوا: "لا! إلا أن يكلمنا الله بها كما كلمك." فصعقوا ثم أحيوا، فقال لهم: "خذوها." فقالوا: "لا." فأمر الله الملائكة فاقتلعت جبلا فجعل عليهم مثل الظّلة وقيل لهم: "خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها، وإلا سقط عليكم الجبل." فسجدوا توبة لله، وأخذوا التوراة بالميثاق. ليس في هذه الآية إجبار على

الإيمان، ولكن فيها إجبار على العمل. وهو طبيعي معقول. وَقُلْنَا ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَاد ﴿وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾ بِالْعَمَلِ بِهِ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ أي لتتقوا من المعاصي والهلاك في الدنيا ومن الخزي والعذاب في الآخرة. ﴿٦٤﴾﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ ﴿مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الْمِيثَاق عَنِ الطَّاعَة ﴿فَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ﴾ بتوفيقكم للتوبة ﴿وَرَحْمَتُه﴾ بعفو ذنوبكم ﴿لَكُنْتُمْ مِنْ الخاسرين﴾ الهالكين.

وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿٦٥﴾ فَجَعَلْنَاهَا نَكَالاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾

﴿٦٥﴾﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ عَرَفْتُمْ ﴿الَّذِينَ اعْتَدَوْا﴾ تجاوزوا الحد ﴿منكم في السبت﴾ بِصَيْدِ السَّمَك. وَقَدْ نَهَيْنَاهُمْ عَنْهُ. (الأعراف، ١٦٣/٧-١٦٧) ﴿فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً﴾ مسخت صورتهم. وقال مجاهد: "إنما مسخت قلوبهم؛ فلا تقبل وعظا، ولا تعي زجرا." وهو أنسب. ﴿خَاسِئِينَ﴾ حقيرين ذليلين أو مُبْعَدِينَ مطرودين. ﴿٦٦﴾﴿فَجَعَلْنَاهَا﴾ أَيْ تِلْكَ الْعُقُوبَة ﴿نَكَالاً﴾ عِبْرَة مَانِعَة مِنْ ارْتِكَاب مِثْل مَا عَمِلُوا ﴿لِمَا بَيْن يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ أَيْ لِلأُمَمِ الَّتِي فِي زَمَانِهَا وَبَعْدهَا ﴿وَمَوْعِظَة لِلْمُتَّقِينَ﴾ لأَنَّهُمْ الْمُنْتَفِعُونَ بِخِلاَفِ غَيْرهمْ.

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ وَلاَ بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لاَ شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾

﴿٦٧﴾﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ﴾ قُتِلَ لبني إسرائيل قَتِيل لاَ يُدْرَى قَاتِله، وَسَأَلُوهُ أَنْ يَدْعُو اللهَ

أَنْ يُبَيِّنَهُ لَهُمْ، فَدَعَاهُ ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ﴾ جوابا لهم بعد إنزال الوحي له: ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ أي ثورا كما بينه بقوله: ﴿بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ والثوْرُ هو الذي يثير الأَرض، ويسقي الحرث، دون الأُنثى منها. ﴿قَالُوا أَتتخذنا هُزُوًا﴾ بأمر ذبخ البقرة المقدسة. ﴿قَالَ أَعُوذُ﴾ أَمْتَنِع ﴿بِاللهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ المستهزئين. فلما عَلِمُوا أَنَّهُ عَزَمَ ﴿٦٨﴾﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ﴾ أي ما صفتها؟ ﴿قَالَ﴾ مُوسَى ﴿إِنَّهُ﴾ أَيْ اللهَ ﴿يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ فَارِضٌ﴾ كبيرة ﴿وَلاَ بِكْرٌ﴾ صَغِيرَة سِنًّا ﴿عَوَانٌ﴾ وسط ﴿بَيْنَ ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُور مِنَ السِّنِينَ ﴿فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ بِهِ مِنْ ذَبْحهَا. ﴿٦٩﴾﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا﴾ شَدِيد الصُّفْرَة. وعن الحسن: "سوداء شديدة السواد." قيل: في دين الفراعن عجل أسود –فيما عدا مُثَلَّث أبيض صغير على جبهته– مقدس يقال له "آبيس." قد بدأ بنو إسرائيل أن يقدس هذا العجل في الأسر المصري، ولذلك صنع السامري عجلا، ولذلك امتنعوا عن ذبحه. ﴿تَسُرُّ النَّاظِرِينَ﴾ إِلَيْهَا بِحُسْنِهَا. ﴿٧٠﴾﴿قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَنَا مَا هِيَ﴾ أَسَائِمَة أَمْ عَامِلَة؟ ﴿إِنَّ الْبَقَرَ﴾ أَيْ جِنْسه الْمَنْعُوت بِمَا ذُكِرَ ﴿تَشَابَهَ عَلَيْنَا﴾ لِكَثْرَتِهِ فلم نهتد إلى المقصود ﴿وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ إِلَيْهَا. ﴿٧١﴾﴿قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لاَ ذَلُولٌ﴾ غَيْر مُذَلَّلَة بِالْعَمَلِ ﴿تُثِيرُ الأَرْضَ﴾ تُقَلِّبهَا لِلزِّرَاعَةِ. وَالْجُمْلَة صِفَة ذَلُول دَاخِلَة فِي النَّهْي ﴿وَلاَ تَسْقِي الْحَرْثَ﴾ الأَرْض الْمُهَيَّأَة لِلزِّرَاعَةِ ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ مِنَ العيوب أو من العمل. قيل: سائبة. ﴿لاشية﴾ لَوْن ﴿فِيهَا﴾ غَيْر لَوْنهَا ﴿قَالُوا الآن جِئْت بِالْحَقِّ﴾ نَطَقْت بِالْبَيَانِ التَّامّ. فَطَلَبُوهَا فَوَجَدُوهَا عِنْد الْفَتَى الْبَارّ بِأُمِّهِ فَاشْتَرَوْهَا بِمِلْءِ مِسْكهَا ذَهَبًا ﴿فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾ لكثرة أسئلتهم وترددهم أو لأنهم يعتبرونه مقدسا، وهو أنسب. وهكذا ذبح بنو إسرائيل اعتقادهم بقدسية البقرة في قلوبهم. والله أعلم! قال البيضاوي: "من أراد أن يعرف أعدى عدوه الساعي في إماتته الموت الحقيقي، فطريقُه أن يذبح بقرة نفسه –التي هي القوة الشهوية– حين زال عنها شَرَهُ الصبا، و لم يلحقها ضعفُ الكِبَر، وكانت معجَبة رائقة المنظر، غير

مذللة في طلب الدنيا، مسلمة عن دنسها، لا سِمَةَ بها من مقابحها بحيث يصل أثره إلى نفسه، فتحيا حياة طيبا."

وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾

في هاتين الآيتين أول قصة البقرة: ﴿٧٢﴾﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ فِيهِ إدْغَام الدَّال فِي التَّاء. أَيْ تَخَاصَمْتُمْ وَتَدَافَعْتُمْ بشأنها، وأصبح كل فريق يدفع التهمة عن نفسه وينسبها لغيره ﴿وَاللهُ مُخْرِجٌ﴾ مُظْهِر ﴿مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ مِنْ أَمْرهَا. ﴿٧٣﴾﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾ أي اضربوا القتيل بشيء من البقرة يحيا ويخبركم عن قاتله ﴿كَذَلِكَ يُحْيِي اللهُ الْمَوْتَى﴾ أي كما أحيا هذا القتيل أمام أبصاركم يحي الموتى من قبورهم. ﴿وَيُرِيكُمْ آيَاته﴾ دَلَائِل قُدْرَته ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تَتَدَبَّرُونَ، فَتَعْلَمُونَ أَنَّ الْقَادِر عَلَى إحْيَاء نَفْس وَاحِدَة قَادِر عَلَى إحْيَاء نُفُوس كَثِيرَة، فَتُؤْمِنُونَ.

ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾

أَيُّهَا الْيَهُود! ﴿٧٤﴾﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبكُمْ﴾ صَلَبَتْ عَنْ قَبُول الْحَقّ ﴿مِنْ بَعْد ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُور مِنْ إحْيَاء الْقَتِيل وَمَا قَبْله مِنَ الآيَات ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ فِي الْقَسْوَة ﴿أَوْ أَشَدّ قَسْوَة﴾ مِنْهَا ﴿وَإِنَّ مِنْ الْحِجَارَة لَمَا﴾ "مَا" بِمَعْنَى الَّذِي فِي مَوْضِع نَصْب اسْمُ "إِنَّ"، وَاللاَّمُ لِلتَّوْكِيدِ ﴿يَتَفَجَّر مِنْهُ الأَنْهَار﴾ ما فيه خروق واسعة يتدفق منها الماء الكثير ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّق فَيَخْرُج مِنْهُ الْمَاء﴾ ما ينشق انشقاقًا بالطول أو بالعرض فينبع منه الماء أيضًا. فِيهِ إدْغَام التَّاء فِي الأَصْل فِي الشِّين. ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِط﴾ يَنْزِل مِنْ عُلْو إِلَى أَسْفَل ﴿مِنْ خَشْيَة اللهِ﴾ وَقُلُوبكُمْ لاَ تَتَأَثَّر، وَلا تَلِين، وَلاَ تَخْشَع. قيل: هو مجاز عن انقيادها لأمر الله. ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ وَإِنَّمَا يُؤَخِّركُمْ لِوَقْتِكُمْ.

أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾

أيها المؤمنون! ﴿٧٥﴾﴿أفتطمعون﴾ أترجون ﴿أَنْ يُؤْمِنُوا﴾ الْيَهُود ﴿لَكُمْ﴾ أَيْ لأَجْلِكُمْ ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيق﴾ طَائِفَة ﴿مِنْهُمْ﴾ أَحْبَارهمْ ﴿يَسْمَعُونَ كَلَام اللهِ﴾ فِي التَّوْرَاة ﴿ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ﴾ يُغَيِّرُونَهُ ﴿مِنْ بَعْد مَا عَقَلُوهُ﴾ فَهِمُوهُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُمْ مُفْتَرُونَ. وَالْهَمْزَة لِلإِنْكَارِ. أَيْ لاَ تَطْمَعُوا، فَلَهُمْ سَابِقَة بالكفر.

وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلاَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلاَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٧﴾

﴿٧٦﴾﴿وإذا لقوا﴾ أي منافقوا اليهود ﴿الذين آمنوا قالوا آمنا﴾ بأن محمد ﷺ نَبِيّ وَهُوَ الْمُبَشَّر بِهِ فِي كِتَابنَا ﴿وَإِذَا خَلاَ﴾ انفرد ﴿بَعْضهمْ إِلَى بَعْض قَالُوا﴾ أَيْ رُؤَسَاؤُهُمْ الَّذِينَ لَمْ يُنَافِقُوا لِمَنْ نَافَقَ عَاتِبين عَلَيْهِم ﴿أَتُحَدِّثُونَهُمْ﴾ أَيْ الْمُؤْمِنِينَ ﴿بِمَا فَتَحَ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ أَيْ عَرَّفَكُمْ فِي التَّوْرَاة مِنْ نَعْت مُحَمَّد ﷺ ﴿لِيُحَاجُّوكُمْ﴾ لِيُخَاصِمُوكُمْ. وَاللام لِلصَّيْرُورَةِ ﴿بِهِ عِنْد رَبّكُمْ﴾ فِي الآخِرَة، وَيُقِيمُوا عَلَيْكُمْ الْحُجَّة فِي تَرْك اتِّبَاعه مَعَ عِلْمكُمْ بِصِدْقِهِ ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ أن هذه حجة عليكم حيث تعترفون به ثم لا تُتَابعونه؟ قَالَ تَعَالَى: ﴿٧٧﴾﴿أَوَلاَ يَعْلَمُونَ﴾ الاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ، وَالْوَاو الدَّاخِلَة عَلَيْهَا لِلْعَطْفِ ﴿أَنَّ اللهَ يَعْلَم مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُظْهِرُونَ. أفلا تَرْجِعُون عَنْ ذَلِكَ الرأي الفاسد والقول الكاذب؟

وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾

﴿٧٨﴾﴿وَمِنْهُمْ﴾ أَيْ الْيَهُود ﴿أُمِّيُّونَ﴾ جمع أمي، وهو الذي لا يحسن القراءة والكتابة. سميَّ بذلك نسبة إلى الأم؛ لأنه باقٍ على ما ولدته عليه أمه من عدم المعرفة. ﴿لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَاب﴾ التَّوْرَاة ﴿إِلاَّ أَمَانِيّ﴾ جمع أمنية، وهي ما يتمناه الإنسان

ويشتهيه. أي إلاَّ ما هم عليه من الأماني التي منّاهم بها أحبارهم؛ من أن الله يعفو عنهم ويرحمهم، وأن النار لن تمسهم إلا أيامًا معدودة (آل عمران، ٢٤/٣)، وأن آباءهم الأنبياء يشفعون لهم، وأنهم أبناء الله وأحباؤه (المائدة، ١٨/٥)، إلى غير ما هنالك من الأماني الفارغة ﴿وَإِنْ﴾ مَا ﴿هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ أي ما هم على يقين من أمرهم، بل هم مقلّدون للآباء تقليد أهل العمى والغباء.

فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾

﴿٧٩﴾﴿فَوَيْلٌ﴾ شِدَّة عَذَاب ﴿لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَاب﴾ المحرَّف ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ أَيْ مِنْ عِنْدهمْ ﴿ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْد الله لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ مِنَ الدُّنْيَا. والدنيا كلها من أولها إلى آخرها ثمن قليل. وَهُمُ الْيَهُود، غَيَّرُوا صِفَة النَّبِيّ فِي التَّوْرَاة، وَآيَة الرَّجْم، وَغَيْرهمَا، وَكَتَبُوهَا عَلَى خِلاَف مَا أُنْزِلَ ﴿فَوَيْل لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ مِنَ الْمُخْتَلَق ﴿وَوَيْل لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ﴾ مِنَ الرِّشَا، جَمْع رِشْوَة. قلت: الذين يقولون: إن الكتب التي نكتبون هي مكتوبة من قبل الله، أو إنها تأتي من عند الله في هذا النطاق.

وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٢﴾

﴿٨٠﴾﴿وَقَالُوا﴾ لَمَّا وَعَدَهُمُ النَّبِيّ النَّار ﴿لَنْ تَمَسَّنَا﴾ تُصِيبنَا ﴿النَّار إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَة﴾ أي قَلِيلَة، أربعين يومًا عدد أيام عبادة العجل، ثُمَّ تَزُول. ﴿قل﴾ لهم يا محمد ﴿أتخذتم﴾ حذفت منه هَمْزَة الْوَصْل اسْتِغْنَاء بِهَمْزَةِ الاسْتِفْهَام ﴿عِنْد الله عَهْدًا﴾ مِيثَاقًا مِنْهُ بِذَلِكَ ﴿فَلَنْ يُخْلِف الله عهده أَمْ تقولون على الله ما لا تعلمون﴾ فأخبر تعالى أن حال دعواهم متوقفة على أحد هذين الأمرين اللذين لا ثالث لهما: إما أن يكونوا قد

اتخذوا عند الله عهدا فتكون دعواهم صحيحةً. وإما أن يكونوا مُتَقَوِّلِين عليه فتكون كاذبةً. ﴿٨١﴾﴿بَلَى﴾ أي ليس الأمر كما ذكرتم، فإنه قول لا حقيقة له، ولكن ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ كُفْرا ﴿وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَته﴾ أَيْ اسْتَوْلَتْ عَلَيْهِ وَأَحْدَقَتْ بِهِ مِنْ كُلّ جَانب بِأَنْ مَاتَ كَافرا ﴿فَأُولَئِكَ أَصْحَاب النَّار هُمْ فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها أبدًا. ﴿٨٢﴾﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون﴾

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَّ اللهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ فَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٨٦﴾

﴿٨٣﴾﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاق بَنِي إِسْرَائِيل﴾ فِي التَّوْرَاة وَقُلْنَا ﴿لاَ تَعْبُدُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاء ﴿إِلا اللهَ﴾ خَبَرٌ بِمَعْنَى النَّهْي. وَقُرِئَ: "لاَ تعبدوا." ﴿وَ﴾ أَحْسِنُوا ﴿بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ برًّا ﴿وَذِي الْقُرْبَى﴾ ذي الْقَرَابَة. أي الأقرباء ﴿وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِين وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ أي قَوْلاً حسنا. ومن القول الحسن أمرهم بالمعروف، ونهيهم عن المنكر، وتعليمهم العلم، وبذل السلام، والبشاشة، وغير ذلك من كل كلام طيب. وَقُرِئَ فِي قِرَاءَة: "حَسَنًا." وُصِفَ بِهِ مُبَالَغَة. ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ بحقها على التعديل والخشوع ﴿وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ فَقَبِلْتُمْ ذَلِكَ، ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ أَعْرَضْتُمْ عَنِ الْوَفَاء بِهِ. فِيهِ الْتِفَات عَنِ الْغِيبَة. وَالْمُرَاد آبَاؤُهُمْ ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْكُمْ﴾ أي من آبائكم ﴿وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عَنْهُ كآبائكم. ﴿٨٤﴾﴿وَ﴾ اذكروا أيضًا يا بني إسرائيل ﴿إِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾

وَقُلْنَا ﴿لاَ تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾ تُرِيقُونَهَا بِقَتْلِ بَعْضكُمْ بَعْضًا ﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أَنْفُسكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ لاَ يُخْرِج بَعْضكُمْ بَعْضًا مِنْ دَاره ﴿ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ﴾ قَبِلْتُمْ ذَلِكَ الْمِيثَاق ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ على أنفسكم. وقيل: وأنتم أيها الموجودون تشهدون على إقرار أسلافكم، فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازًا. ﴿٨٥﴾﴿ثُمَّ﴾ نقضتم الميثاق أيضًا ﴿أَنْتُمْ هَؤُلاءِ﴾ أنتم مبتدأ، وهؤُلاءِ خبره ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسكُمْ﴾ بِقَتْلِ بَعْضكُمْ بَعْضًا، ﴿وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارهمْ﴾ غير مراقبين ميثاق الله ﴿تَظَاهَرُونَ﴾ بالتخفيف على حذف التاء. أي تَتَعَاوَنُونَ ﴿عَلَيْهِمْ بِالإِثْمِ﴾ بِالْمَعْصِيَةِ ﴿وَالْعُدْوَانِ﴾ الظُّلْم، ﴿وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أسارى﴾ وفي قراءة: "أَسْرى" ﴿تفادوهم﴾ تُنْقِذُوهُمْ مِنَ الأَسْر بِالْمَالِ أَوْ غَيْره، وَهُوَ مِمَّا عُهِدَ إِلَيْهِمْ ﴿وَهُوَ﴾ هو ضمير مبهم، تفسيره ﴿إِخْرَاجُهُمْ﴾ ﴿مُحَرَّم عَلَيْكُمْ إِخْرَاجهمْ﴾ أَيْ كَمَا حَرَّمَ تَرْك الْفِدَاء. وَالْجُمْلَة اعْتِرَاضية. يعني فكيف تستبيحون القتل والإخراج من الديار، ولا تستبيحون ترك الأسرى في أيدي عدوهم؟ وَكَانَتْ قُرَيْظَة حَالَفُوا الأَوْس، وَالنَّضِير الْخَزْرَج، فَكَانَ كُلّ فَرِيق يُقَاتِل مَعَ حُلَفَائِهِ، فيقتل اليهودي يهوديا آخر، وَيُخَرِّب دِيَارهمْ وَيُخْرِجهُمْ، فَإِذَا أُسِرُوا فَدَوْهُمْ، وَكَانُوا إِذَا سُئِلُوا: "لِمَ تُقَاتِلُونَهُمْ وَتَفْدُونَهُمْ؟" قَالُوا: "أُمِرْنَا بِالْفِدَاءِ." فَيُقَال: "فَلِمَ تقاتلونهم؟" فيقولون: "حياء أن تستذل حلفاؤنا." فقال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَاب﴾ وَهُوَ الْفِدَاء ﴿وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ وَهُوَ تَرْك الْقَتْل، وَالإِخْرَاج، وَالْمُظَاهَرَة. ﴿فَمَا جَزَاء من يفعل ذلك منكم إلاَّ خِزْيٌ﴾ هَوَان وَذُلّ ﴿فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾ وَقَدْ خُزُوا بِقَتْلِ قُرَيْظَة، وَنَفْي النَّضِير إِلَى الشَّام ﴿وَيَوْم الْقِيَامَة يُرَدُّونَ إِلَى أشد العذاب وما الله بغافل عما يعملون﴾ بالباء والتاء. ﴿٨٦﴾﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاة الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ﴾ بِأَنْ آثَرُوهَا عَلَيْهَا ﴿فَلاَ يُخَفَّف عَنْهُمْ الْعَذَاب وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ يُمْنَعُونَ مِنْهُ.

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾

﴿٨٧﴾﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَاب﴾ التَّوْرَاة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْده بِالرُّسُلِ﴾ أي أرسلنا على أثره الكثير من الرسل ﴿وآتينا عيسى بن مَرْيَم﴾ من بينهم ﴿الْبَيِّنَات﴾ الْمُعْجِزَات كَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَإِبْرَاء الأَكْمَه وَالأَبْرَص (آل عمران، ٤٩/٣) ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قَوَّيْنَاهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُس﴾ مِنْ إِضَافَة الْمَوْصُوف إِلَى الصِّفَة. أَيْ الرُّوح الْمُقَدَّسَة جِبْرِيل (النحل، ١٠٢/١٦) لِطَهَارَتِهِ، ينزل على الأنبياء ويقدس نفوسهم ويزكيها. فَلَمْ تَسْتَقِيمُوا. ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ يا بني إسرائيل ﴿رَسُول بِمَا لاَ تَهْوَى﴾ لا تُحِبّ ﴿أَنْفُسكُمْ﴾ مِنَ الْحَقّ ﴿اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تَكَبَّرْتُمْ عَنْ اتِّبَاعه. جَوَاب كُلَّمَا، وَهُوَ مَحَلّ الاسْتِفْهَام، وَالْمُرَاد بِهِ التَّوْبِيخ. ﴿ففَرِيقًا﴾ مِنْهُمْ ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ كَعِيسَى ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ الْمُضَارِع لِحِكَايَةِ الْحَال الْمَاضِيَة. أَيْ قَتَلْتُمْ كَزَكَرِيَّا ويحيى.

ثم أخبر تعالى عن اليهود المعاصرين للنبي ﷺ وبيّن ضَلالهم في اقتدائهم بالأسلاف. فقال حكاية عنهم:

وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾

﴿٨٨﴾﴿وَقَالُوا﴾ لِلنَّبِيِّ اسْتِهْزَاء ﴿قُلُوبنَا غُلْف﴾ جَمْع أَغْلَف. أَيْ يا محمد! قلوبنا مغطاة بأغطية فَلا تدخلها مَا تَقُول ولا تؤثرها. قال تعالى ﴿بَلْ﴾ لِلإِضْرَابِ ﴿لَعَنَهُمْ اللهُ﴾ أَبْعَدهمْ مِنْ رَحْمَته وَخَذَلَهُمْ عَنِ الْقَبُول ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ وَلَيْسَ عَدَم قَبُولهمْ لِخَلَلٍ فِي قُلُوبهمْ ﴿فَقَلِيلاً مَا يُؤْمِنُونَ﴾ مَا زَائِدَة لِتَأْكِيدِ الْقِلَّة. أَيْ إنهم لا يؤمنون إلا بقليل مما يجب عليهم الإيمان به. وقد وصفهم الله تعالى فيما سبق بأنهم كانوا يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض. وقيل: أراد بالقلة العدم. وقيل: معناه قليلا المؤمن منهم. رده الطبري.

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ

عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

﴿٨٩﴾﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَاب مِنْ عِنْد اللهِ﴾ هُوَ الْقُرْآن ﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ﴾ مِنَ التَّوْرَاة لا يخالفه ﴿وَكَانُوا من قبل﴾ مجيء النبي ﴿يستفتحون﴾ يستنصرون به ﴿عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يَقُولُونَ: "اللهُمَّ انْصُرْنَا عَلَيْهِمْ بِالنَّبِيِّ الْمَبْعُوث آخِر الزَّمَان." ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا﴾ مِنَ الْحَقّ، وَهُوَ بِعْثَة النَّبِيّ ﴿كَفَرُوا بِهِ﴾ حَسَدًا وَخَوْفًا وحِرْصًا عَلَى الرِّيَاسَة. وَجَوَاب "لَمَّا" الأُولَى دَلَّ عَلَيْهِ جَوَاب الثَّانِيَة ﴿فلعنة الله على الكافرين﴾ لكثرة كفرهم. ﴿٩٠﴾﴿بئسما﴾ أصلها "بئس ما". أي بئس شيءٌ ﴿اشتروا﴾ باعوا ﴿به أنفسهم﴾ أي إيمانهم ﴿أَنْ يَكْفُرُوا﴾ تفسير لـــ"ما" في "بئسما". أي بئس شيء أن يكفروا ﴿بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ مِنَ الْقُرْآن ﴿بَغْيًا﴾ أَيْ حَسَدًا عَلَى ﴿أَنْ يُنَزِّل اللهُ﴾ الْوَحْي ﴿مِنْ فَضْله عَلَى مَنْ يُشَاء من عباده﴾ لِلرِّسَالَةِ ﴿فبآؤا﴾ رَجَعُوا. أي عوقبوا ﴿بِغَضَبٍ﴾ مِنَ اللهِ بِكُفْرِهِمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ. وَالتَّنْكِير لِلتَّعْظِيمِ ﴿عَلَى غَضَبٍ﴾ زيادة على سابق غضبه عليهم ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَاب مُهِين﴾ يصحبه إهانة وإذلال في الدنيا والآخرة. ﴿٩١﴾﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ من الْقُرْآن ﴿قَالُوا نُؤْمِن بِمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ أي التوراة. قال تعالى ﴿وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ﴾ سِوَاهُ أَوْ بَعْده ﴿وَهُوَ الْحَقّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي يكفرون بالقرآن مع أنه هو الحق موافقًا لما معهم من كلام الله. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ﴾ أَيْ قَتَلْتُمْ ﴿أَنْبِيَاء اللهِ مِنْ قَبْل إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بِالتَّوْرَاةِ وَقَدْ نُهِيتُمْ فِيهَا عَنْ قَتْلهمْ. وَالْخِطَاب لِلْمَوْجُودِينَ مِنْ زَمَن نَبِيّنَا بِمَا فَعَلَ آبَاؤُهُمْ لِرِضَاهُمْ بِهِ. ﴿٩٢﴾﴿وَ﴾ اذكروا ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ كَالْعَصَا، وَالْيَد البيضاء، وَفَلْق

الْبَحْر ﴿ثُمَّ اتَّخَذْتُمْ الْعِجْل﴾ إلَهًا ﴿مِنْ بَعْده﴾ مِنْ بَعْد ذَهَابه إلَى الطور ﴿وَأَنْتُمْ ظالمون﴾ هو حال أي وأنتم واضعون العبادة غير موضعها؛ أو اعتراض أي وأنتم قوم عادتكم الظلم. ﴿٩٣﴾﴿وَ﴾ اذكروا ﴿إذْ أَخَذْنَا مِيثَاقكُمْ﴾ عَلَى الْعَمَل بِمَا فِي التَّوْرَاة ﴿وَرَفَعْنَا فَوْقكُمْ الطُّور﴾ الْجَبَل حِين امْتَنَعْتُمْ مِنْ قَبُولهَا لِيَسْقُط عَلَيْكُمْ وَقُلْنَا ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ بِجِدٍّ وَاجْتِهَاد ﴿وَاسْمَعُوا﴾ مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ سَمَاع قَبُول ﴿قَالُوا سَمِعْنَا﴾ قَوْلك ﴿وَعَصَيْنَا﴾ أَمْرك ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبهمْ الْعِجْل﴾ أَيْ خَالَطَ حُبُّهُ قُلُوبَهُمْ. والمراد أن حب عبادة العجل امتزج بدمائهم ودخل في قلوبهم، كما يدخل الصبغُ في الثوب والماء في البدن ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ أي بسبب كفرهم. يعني الإشراب نتيجة الكفر لا سببه. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿بِئْسَمَا﴾ شَيْئًا ﴿يَأْمُركُمْ بِهِ إيمَانكُمْ﴾ بِالتَّوْرَاةِ قتل الأنبياء، والعصيان، وعِبَادَة الْعِجْل ﴿إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بها كَمَا زَعَمْتُمْ. الْمَعْنَى لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ بها حقًّا؛ لأَنَّ الإيمان لم يَأْمُر بِعِبَادَةِ الْعِجْل وغيره. وَالْمُرَاد آبَاؤُهُمْ. أَيْ فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ لَسْتُمْ بِمُؤْمِنِينَ بِالتَّوْرَاةِ حقًّا؛ لأنكم كَذَّبْتُمْ مُحَمَّدًا، وَالإِيمَان بِهَا لا يَأْمُر بِتَكْذِيبِهِ.

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآخِرَةُ عِنْدَ اللهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

﴿٩٤﴾﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿إنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّار الآخِرَة﴾ أَيْ الْجَنَّة ﴿عِنْد الله خَالِصَة﴾ خَاصَّة ﴿مِنْ دُون النَّاس﴾ كَمَا زَعَمْتُمْ أنه ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ (البقرة، ١١١/٢) ﴿فَتَمَنَّوُا الْمَوْت إنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ بهذه الدعوى اشتاقوا الموت الذي يوصلكم إلى الجنة. ﴿٩٥﴾﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ﴾ من الكفر والمعاصي مثل كُفْرهمْ بِالنَّبِيِّ، وتحريف التوراة، وغير ذلك ﴿وَاللهُ عَلِيم بِالظَّالِمِينَ﴾ تهديد لهم. أي عالم بظلمهم وإجرامهم وسيجازيهم على ذلك. ﴿٩٦﴾﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ﴾ اليهود ﴿أَحْرَص النَّاس عَلَى حَيَاة و﴾ أحرص عَلَيْهَا ﴿من الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الْمُنْكِرِينَ

لِلْبَعْثِ لِعِلْمِهِمْ بِأَنَّ مَصِيرهمْ النَّار. ﴿يَوَدّ﴾ يَتَمَنَّى ﴿أَحَدهمْ لَو يُعَمَّر أَلْف سَنَة﴾ لَوْ بِمَعْنَى "أَنْ" ﴿وَمَا هُوَ﴾ "هو" مبهمًا و"أن يعمر" موضحه ﴿بِمُزَحْزِحِهِ﴾ مُبْعِده ﴿مِنَ الْعَذَاب﴾ النَّار ﴿أَنْ يُعَمَّر﴾ طول عمره. ﴿وَالله بَصِير بِمَا يعملون﴾ بالياء والتاء. أي فيجازيهم عليها.

أَقْبَلَتْ يَهُودُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالُوا: "يَا أَبَا الْقَاسِمِ! نَسْأَلُكَ عَنْ أَشْيَاءَ، فَإِنْ أَجَبْتَنَا فِيهَا اتَّبَعْنَاكَ وَصَدَّقْنَاكَ وَآمَنَّا بِكَ."... قَالُوا: "أَخْبِرْنَا مَنِ الَّذِي يَأْتِيكَ مِنَ الْمَلائِكَةِ؟ فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ يَأْتِيهُ مَلَكٌ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ بِالرِّسَالَةِ وَبِالْوُحْيِ. فَمَنْ صَاحِبُكَ؟ فَإِنَّهُ إِنَّمَا بَقِيَتْ هَذِهِ حَتَّى نُتَابِعَكَ." قَالَ: "هُوَ جِبْرِيلُ." قَالُوا: "ذَلِكَ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْحَرْبِ وَبِالْقَتْلِ. ذَاكَ عَدُوُّنَا مِنَ الْمَلاَئِكَةِ. لَوْ قُلْتَ مِيكَائِيلُ الَّذِي يَنْزِلُ بِالْقَطْرِ، وَالرَّحْمَةِ تَابَعْنَاكَ." فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ ﴿فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ (النسائي، السنن الكبرى، ٩٠٢٤) أي أصبح اليهود عدوا لجبريل إذا سمعوا أنه نزل القرآن على النبي ﷺ، إذ نعلم بإنهم يحبونه قبل هذا، كذلك رأيناه في العهد القديم (دنيال، ٨/١٥-٢٦، ٩/٢١-٢٧). سياق الآية الآتية يقتضي هذا المعنى.

قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٨﴾

﴿٩٧﴾﴿قُلْ﴾ لليهود ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيل﴾ بسبب تنزيله القرآن عليك فَليمت غيظًا ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ﴾ أَيْ الْقُرْآن ﴿عَلَى قَلْبك بِإِذْنِ الله﴾ أي إنما نزل بالقرآن على قلبك بأمر الله لا من تلقاء نفسه. إذًا فعداوته عداوة لله في الحقيقة ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْن يَدَيْهِ﴾ قَبْله مِنَ الْكُتُب، وفيها التوراة ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلاَلَة ﴿وَبُشْرَى للمؤمنين﴾ بالجنة. ﴿٩٨﴾﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلاَئِكَته وَرُسُله وَجِبْرِيل وَمِيكَال﴾ بسبب إمدادك ربك بهما في الغزوات. (مسلم، ٢٣٠٦). والله أعلم! عُطِفَ عَلَى الْمَلاَئِكَة من الْخَاصّ عَلَى الْعَامّ. وَفِي قِرَاءَة مِيكَائِيل. ﴿فَإِنَّ الله عَدُوّ لِلْكَافِرِينَ﴾ أي لفاعلي هذه العَداوات التي توجب

الكفر.

وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ ﴿٩٩﴾ أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٠﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾

﴿٩٩﴾﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿آيَات بَيِّنَات﴾ أي علامات واضحات دالّات على نبوتك. حال ردا لقول ابن صُورِيَّا لِلنَّبِيِّ: "مَا جِئْتَنَا بِشَيْءٍ." ﴿وَمَا يَكْفُر بها إلا الفاسقون﴾ أي الخارجون عن الطاعة الماردون على الكفر. ﴿١٠٠﴾﴿أو كلما﴾ والهمزة في قوله "أَوَكُلَّما" للتوبيخ، والواو للعطف على محذوف يقتضية المقام. أى أكفروا بالآيات البينات؟ وكلما ﴿عَاهَدُوا عَهْدًا﴾ مع الله أو مع رسول الله ﴿نَبَذَهُ﴾ طَرَحَهُ ﴿فَرِيق مِنْهُمْ﴾ بِنَقْضِهِ؟ ﴿بَلْ أكثرهم لا يؤمنون﴾ أي بل أكثر اليهود لا يؤمن بالتوراة الإيمان الصادق، لذلك ينقضون العهود والمواثيق. ﴿١٠١﴾﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُول مِنْ عِنْد اللَّه﴾ وهو مُحَمَّد ﷺ ﴿مُصَدِّق لِمَا مَعَهُمْ﴾ أي التوراة ﴿نَبَذَ فَرِيق مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب كِتَاب اللَّه وَرَاء ظُهُورهمْ﴾ أَيْ تعاليم كتاب الله التوراة التي أمرتهم باتباعه أو كتاب الله القرآن بعد ما لزمهم ﴿كَأَنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ مَا فِيه مِنْ أَنَّهُ نَبِيٌّ حقٌّ أو أنه كتاب الله.

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولاَ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلاَ تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿١٠٢﴾﴿واتبعوا﴾ عطف على نبذ ﴿ما تتلوا الشَّيَاطِين﴾ أَيْ ما اختلقته وقصته شياطين الجن والإنس كزعمهم أن سليمان عليه السلام كان ساحرا ﴿عَلَى مُلْك سُلَيْمَان﴾ أي على عهد ملكه. وذلك أن الشياطين كانوا يسترقون السمع، ثم يضمون إلى ما سمعوا أكاذيب يلفقونها ويلقونها إلى الكهنة، وقد دوَّنوها في كتب يقرءونها، ويعلمونها الناس. وفشا ذلك في زمن سليمان عليه السلام حتى قالوا: "إن الجن تعلم الغيب." وكانوا يقولون: "هذا علم سليمان. وما تم لسليمان ملكه إلا بهذا العلم. وبه سخر الجن، والإنس، والريح." ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَان﴾ أَيْ لَمْ يَعْمَل السِّحْر لأَنَّهُ كُفْر ﴿وَلَكِنَّ﴾ بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف ﴿الشَّيَاطِين كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاس السِّحْر﴾ الْجُمْلَة حَال مِنْ ضَمِير "كَفَرُوا" ﴿و﴾ يُعَلِّمُونَهُم ﴿مَا أُنْزِلَ﴾ أَيْ ما أُلْهِمَ مِنَ السِّحْر ﴿عَلَى الْمَلَكَيْنِ﴾ وَقُرِئَ بِكَسْرِ اللام. قيل: "هما ملَكان." وقيل: "هما ملِكان." وقيل: "هما جنان." وقيل: "هما رجلان ساحران يشبههما الناس ملَكين أو ملِكين." ﴿بِبَابِل﴾ فِي الْعِرَاق ﴿هَارُوت وَمَارُوت﴾ بدل أو عطف بيان للملكين. ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ﴾ زَائِدَة ﴿أَحَد حَتَّى يَقُولاَ﴾ لَهُ نُصْحًا أو محافظةً على حسن اعتقاد الناس بفضلهما إذ كانوا يقولون هما ملكان ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَة﴾ بَلِيَّة مِنَ الله إِلَى النَّاس لِيَمْتَحِنهُمْ بِتَعْلِيمِهِ ﴿فَلاَ تَكْفُر﴾ باعتقاد جوازه والعمل به ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه﴾ بِأَنْ يُبَغِّض كُلاًّ إِلَى الآخَر. ﴿وَمَا هُمْ﴾ أَيْ السَّحَرَة ﴿بِضَارِّينَ بِهِ﴾ بِالسِّحْرِ ﴿مِنْ﴾ زَائِدَة ﴿أَحَد إِلاَّ بِإِذْنِ الله﴾ بِإِرَادَتِهِ. أي أنهم ليس لهم قوة غيبية وراء الأسباب التي ربط الله بها المسببات ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ﴾ فِي الدُّنيا والآخِرَة ﴿وَلاَ يَنْفَعهُمْ﴾ وَهُوَ السِّحْر. ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ أَيْ الْيَهُود ﴿لَمَنْ اشْتَرَاهُ﴾ أي استبدل ما تتلو الشياطين من كتاب الله ﴿مَا لَهُ فِي الآخِرَة مِنْ خَلاَق﴾ نَصِيب فِي الْجَنَّة ﴿وَلَبِئْسَ مَا﴾ شَيْئًا ﴿شَرَوْا﴾ بَاعُوا ﴿بِهِ أَنْفُسهمْ﴾ أَيْ حَظّهَا مِنَ الآخِرَة ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ عِلْمًا يثمر العمل ما فعلوه. ﴿١٠٣﴾﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ أَيْ الْيَهُود ﴿آمَنُوا﴾ بِالتَّوْرَاة أو الْقُرْآن ﴿وَاتَّقَوْا﴾ عِقَاب الله بِتَرْكِ مَعَاصِيه كَالسِّحْرِ. وَجَوَاب لَوْ مَحْذُوف. أَيْ لأُثِيبُوا. دَلَّ عَلَيْهِ ﴿لَمَثُوبَة﴾ ثَوَاب. وَهُوَ مُبْتَدَأ، وَاللام فِيهِ

لِلْقَسَمِ. ﴿مِنْ عِنْد الله خَيْر﴾ مِمَّا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسهمْ. وهو خَبَره. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ هذا.

لما ذكر تعالى قبائح اليهود، وما اختصوا به من ضروب السحر، أعقبه ببيان نوع آخر من السوء والشر الذي يضمرونه للنبيّ ﷺ والمسلمين من الطعن والحقد والحسد:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾

﴿١٠٤﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا﴾ لِلنَّبِيِّ ﴿رَاعِنَا﴾ أَمْر مِنَ الْمُرَاعَاة. وَكَانُوا يَقُولُونَ لَهُ ذَلِكَ. وَهِيَ بِلُغَةِ الْيَهُود سَبّ مِنَ الرُّعُونَة -وهي الحُمْق-، فَسُرُّوا بِذَلِكَ، وَخَاطَبُوا بِهَا النَّبِيّ (النساء، ٤/٤٦)، فَنُهِيَ الْمُؤْمِنُونَ عَنْهَا ﴿وَقُولُوا﴾ بَدَلَهَا ﴿انْظُرْنَا﴾ أَيْ اُنْظُرْ إِلَيْنَا ﴿وَاسْمَعُوا﴾ مَا تُؤْمَرُونَ بِهِ سَمَاع قَبُول ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم هُوَ النَّار.

مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

﴿١٠٥﴾﴿مَا يَوَدّ﴾ يحب ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْل الْكِتَاب وَلاَ الْمُشْرِكِينَ﴾ مِنْ لِلْبَيَانِ ﴿أَنْ يُنَزَّل عَلَيْكُمْ مِنْ﴾ زَائِدَة ﴿خَيْر﴾ من وَحْي وغيره ﴿مِنْ رَبّكُمْ﴾ حَسَدًا لَكُمْ ﴿وَاللّه يَخْتَصّ بِرَحْمَتِهِ﴾ من نبوة وغيره ﴿من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أى كل خير يناله العباد في دينهم أو دنياهم إنما هو من عنده تعالى. وفي ذلك إشعار للحاسدين بأن يقلعوا عن حسدهم.

ثم قال تعالى ردًّا على اليهود حين طعنوا في القرآن بسبب النسخ:

مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ وَمَنْ

يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٠٨﴾

﴿١٠٦﴾﴿مَا﴾ شَرْطِيَّة ﴿نَنْسَخْ﴾ أي نُزِيلُ ونُبْطِلُ ﴿مِنْ آيَة﴾ من آيات القرآن. وقيل: من أيات الكتب الماضية ﴿أو نُنْسِها﴾ من النسيان الذي هو ضد الذكر. أي نمحها من القلوب. وَجَوَاب الشَّرْط ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا﴾ للعباد في العاجل أو الآجل. إما برفع المشقة عنكم، أو بزيادة الأجر لكم ﴿أَوْ مِثْلِهَا﴾ فِي التَّكْلِيف وَالثَّوَاب. ﴿١٠٧﴾﴿أَلَمْ تَعْلَم إِنَّ الله عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير﴾ وَمِنْهُ النَّسْخ. وَالاسْتِفْهَام لِلتَّقْرِيرِ. هذه الآية جاءت للتمهيد في تحويل القبلة. ﴿أَلَمْ تَعْلَم أَنَّ الله لَهُ مُلْك السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ يَفْعَل مَا يَشَاء ﴿وَمَا لَكُمْ مِنْ دُون الله﴾ أَيْ غَيْره ﴿مِنْ﴾ زَائِدَة ﴿وَلِيّ وَلاَ نَصِير﴾ فيتولاكم في تحصيل منافعكم، وينصركم في دفع مضارّكم. فمن ولايته لكم أن يشرع لكم من الأحكام ما تقتضيه حكمته ورحمته بكم. ﴿١٠٨﴾﴿أم﴾ أ ﴿تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولكُمْ﴾ بإغواء اليهود عن النسخ: "كيف يمكن النسخ؟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا؟" ﴿كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِنْ قَبْل﴾ مثل سؤال قَوْمه عن ذبح البقرة: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا﴾؟ (البقرة، ٦٧/٢) ﴿وَمَنْ يَتَبَدَّل الْكُفْر بِالإِيمَانِ﴾ أَيْ يأخذ الكفر بدل الإيمان بِتَرْكِ التعقل فِي الآيات والأحكام ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاء السَّبِيل﴾ خَرج عن الصراط السويّ. وفي تفسير هذه الآيات آراء مختلفة، ولكن هذا الرأي أنسب من جهة السياق. والله أعلم!

وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٩﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾

﴿١٠٩﴾﴿وَدَّ كَثِير مِنْ أَهْل الْكِتَاب لَوْ﴾ مَصْدَرِيَّة ﴿يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْد إِيمَانكُمْ كُفَّارًا﴾ بإغوائهم كما في النسخ ﴿حَسَدًا﴾ مَفْعُول لَهُ كَائِنًا ﴿مِنْ عِنْد أَنْفُسهمْ﴾ أَيْ حَمَلَتْهُمْ عَلَيْهِ أَنْفُسهمْ الْخَبِيثَة ﴿مِنْ بَعْد مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ الْحَقّ﴾ بالبراهين الساطعة ﴿فَاعْفُوا﴾ عَنْهُمْ. أَيْ فَلاَ تُجَازُوهُمْ ﴿وَاصْفَحُوا﴾ أَعْرِضُوا عن أفعالهم. العفو: ترك العقاب.

والصفح: ترك التثريب. فكل صفح عفو ولا عكس. ﴿حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ﴾ حتى يظهر الله حكمه فيهم -وهو القتل والطرد-. يعني قتل قريظة وجَلاَء بني النضير ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ هو يقدِر على الانتقام منهم. ولما أمرهم بالثقة بهذا الكتاب ما نسخ منه وما لم ينسخ، وأن لا يُعَوِّقهم عنه طعنُ الطاعنين ولا حسدُ الحاسدين، وأن يُعرضوا عن الغير، أمرهم بالإقبال على إصلاح النفس والإحسان إلى الغير مما اتصف به المهتدون. ﴿١١٠﴾﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ طَاعَة كَصِلَةٍ وَصَدَقَة ﴿تَجِدُوهُ﴾ أَيْ ثَوَابه ﴿عِنْدَ اللهِ إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

المبحث الرابع: الأماني والمظالم

وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَى تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾

﴿١١١﴾﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَنْ كَانَ هُودًا﴾ أي يهودًا. جمع هائد، والهائد التائب. ﴿أَوْ نَصَارَى﴾ أَيْ قَالَ الْيَهُود: "لَنْ يَدْخُلهَا إِلاَّ الْيَهُود." وَقَالَ النَّصَارَى: "لَنْ يَدْخُلهَا إِلاَّ النَّصَارَى." ﴿تِلْكَ﴾ الْقَوْلَة ﴿أَمَانِيّهِمْ﴾ خيالاتهم وأحلامهم. والأُمْنِيَّةُ: الصّورة الحاصلة في النّفس من تمنّي الشيء. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿هَاتُوا بُرْهَانكُمْ﴾ حُجَّتَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِيهِ. ﴿١١٢﴾﴿بَلَى﴾ إثبات لما نفوه. أي يَدْخُل الْجَنَّة غَيْرهمْ ﴿مَنْ أَسْلَمَ وَجْهه لِلَّهِ﴾ أَيْ انْقَادَ لأَمْرِهِ ﴿وَهُوَ مُحْسِن﴾ مُوَحِّد مُخْلِص ﴿فَلَهُ

أَجْره عِنْد رَبّه﴾ أَيْ ثَوَاب عَمَله الْجَنَّة ﴿وَلاَ خَوْف عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فِي الآخِرَة. ﴿١١٣﴾﴿وَقَالَتْ الْيَهُود لَيْسَتْ النَّصَارَى عَلَى شَيْء﴾ على دين صحيح مُعْتَدّ بِهِ؛ لأنهم يؤمنون بِالمتنبي عِيسَى والإنجيل ﴿وَقَالَتْ النَّصَارَى لَيْسَتْ الْيَهُود عَلَى شَيْء﴾ مُعْتَدّ بِهِ؛ لأنهم يكفرون بِعِيسَى والإنجيل ﴿وَهُمْ﴾ أَيْ الْفَرِيقَانِ ﴿يَتْلُونَ الْكِتَاب﴾ الْمُنَزَّل عَلَيْهِمْ. فكتاب الأولين -التوراة- يبشر برسول منهم ظهر ولم يؤمنوا به فهم مخالفون لكتابهم، وكتاب الآخرين -الإنجيل- يقول بلسان المسيح إنه جاء متمما لناموس موسى، لا ناقضا له، وهم قد نقضوه، فدينهم واحد، ترك بعضهم أوله، وبعضهم آخره، فلم يؤمن به كله أحدٌ منهم. وَالْجُمْلَة حَال. ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا قَالَ هَؤُلاَء ﴿قَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ الْمُشْرِكُونَ مِنَ الْعَرَب وَغَيْرهمْ ﴿مِثْل قَوْلهمْ﴾ بَيَان لِمَعْنَى كذَلِكَ. أَيْ قَالُوا لِكُلِّ ذِي دِين: "لَيْسُوا عَلَى شَيْء." ﴿فَالله يَحْكُم بَيْنهمْ يَوْم الْقِيَامَة فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أَمْر الدِّين؛ فَيَدْخُل الْمُحِقّ الْجَنَّة وَالْمُبْطِل النَّار. ﴿١١٤﴾﴿وَمَنْ أَظْلَم﴾ أَيْ لاَ أَحَد أَظْلَم ﴿مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِد الله أَنْ يُذْكَر فِيهَا اسْمه﴾ مثلاً مشركوا مكة الذين منعوا المسلمين من المسجد الحرام ﴿وَسَعَى فِي خَرَابهَا﴾ مثلاً مشركو الرومانيين الذين سعوا في خراب المسجد الأقصى. ﴿أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَائِفِينَ﴾ من المؤمنين محترمين. خَبَر بِمَعْنَى الأَمْر. أَيْ أَخِيفُوهُمْ بِالْجِهَادِ فلا يجرؤوا على تخريبها وتعطيلها ﴿لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْي﴾ هَوَان بِالْقَتْلِ، وَالسَّبْي، وَالْجِزْيَة ﴿وَلَهُمْ فِي الآخِرَة عَذَاب عَظِيم﴾ هُوَ النَّار. وإذا حيل بين المسلم وبين المساجد فله أن يصلي في أي مكان كان؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿١١٥﴾﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب﴾ أَيْ الأَرْض كُلّهَا. قال النبي ﷺ: "جُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا." (البخاري، ٣٣٥) ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا﴾ وُجُوهكُمْ فِي الصَّلاَة إليه بِأَمْرِهِ ﴿فَثَمَّ﴾ هُنَاكَ ﴿وَجْه الله﴾ الوجه الجهة. والمراد بوجه الله الجهة التي ارتضاها؛ أولاً كانت المسجد الأقصى، ثم المسجد الحرام. ﴿إِنَّ الله وَاسِع﴾ يريد التوسعة على عباده ﴿عَلِيم﴾ بمصالحهم. هذه الآية ليست بمنسوخة كما فهمت!

وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾

﴿١١٦﴾﴿وَقَالُوا﴾ أي الفِرَق الثلاثة التي ذكرت في الأعلى ﴿اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا﴾ اليهود قالوا: "عزير ابن الله." والنصارى قالوا: "المسيح ابن الله." والمشركون قالوا: "الملائكة بنات الله." قَالَ تَعَالَى ﴿سُبْحَانه﴾ جملة اعتراضية. أي أنزهه عَنْ ذلك ﴿بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ أي هو خالقه ومالكه، لا والده ﴿كُلّ لَهُ قَانِتُونَ﴾ مُطِيعُونَ كُلّ بِمَا يُرَاد مِنْهُ. ﴿١١٧﴾﴿بَدِيع السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ مُوجِدهمْ لاَ عَلَى مِثَال سَبَقَ ﴿وَإِذَا قَضَى﴾ أَرَادَ ﴿أَمْرًا﴾ أَيْ إِيجَاده ﴿فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ أَيْ يحدث فورا.

وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلاَ تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾

﴿١١٨﴾﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ من المشركين أو من أهل الكتاب ﴿لَوْلاَ﴾ هَلاَّ ﴿يُكَلِّمنَا اللهُ﴾ بِأَنَّك رَسُوله ﴿أَوْ تَأْتِينَا آيَة﴾ مِمَّا اقْتَرَحْنَاهُ عَلَى صِدْقك. ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا قَالَ هَؤُلاَءِ ﴿قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ﴾ مِنْ كُفَّار الأُمَم الْمَاضِيَة لأَنْبِيَائِهِمْ ﴿مِثْل قَوْلهمْ﴾ في مَطالبهم ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبهمْ﴾ فِي الْكُفْر وَالْعِنَاد. ﴿قَدْ بَيَّنَّا الآيَات لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ بما لا يدع مجالا للشك لدى طالبي الحق بالدليل والبرهان، ولديهم الاستعداد للعلم واليقين، وعندهم الفهم الصحيح بسبب إنصافهم وصفاء نفوسهم، وبُعْدهم عن العناد والمكابرة. هم يَعْلَمُونَ أَنَّهَا آيَات فَيُؤْمِنُونَ. فِيهِ تَسْلِيَة لِلنَّبِيِّ ﷺ. ﴿١١٩﴾﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاك﴾ يَا مُحَمَّد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بالشريعة النيّرة والدين القويم ﴿بَشِيرًا﴾ مَنْ أَجَابَ إِلَيْهِ بِالْجَنَّةِ ﴿وَنَذِيرًا﴾ مَنْ لَمْ يُجِبْ إِلَيْهِ بِالنَّارِ ﴿وَلاَ تُسْأَل عَنْ أَصْحَاب الْجَحِيم﴾ أي لست مسئولا عن كفرهم، إنما عليك البلاغ، وعلينا الحساب. الجحيم المتأجج من النَّار.

وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾

﴿١٢٠﴾﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْك الْيَهُود وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِع مِلَّتهمْ﴾ دِينهمْ ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى الله﴾ أَيْ دينه أو كتابه. والهدى بمعنى الهادي إلى طريق الفلاح في الدنيا والآخرة ﴿هُوَ الْهُدَى﴾ وَمَا عَدَاهُ ضَلاَل. ﴿وَلَئِنْ﴾ لاَم قَسَم ﴿اتَّبَعْت أَهْوَاءَهُمْ﴾ الَّتِي يَدْعُونَك إِلَيْهَا فَرْضًا ﴿بَعْد الَّذِي جَاءَك مِنَ الْعِلْم﴾ الْوَحْي مِنَ الله ﴿مَا لَك مِنَ الله من ولي﴾ بحفظك ﴿ولا نصير﴾ يمنعك منه. ﴿١٢١﴾﴿والذين آتَيْنَاهُمْ الْكِتَاب﴾ من اليهود والنصارى. يراد به بعضهم كما في قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ (النساء، ١٥٣/٤). مُبْتَدَأ ﴿يَتْلُونَهُ﴾ التوراة والإنجيل ﴿حَقَّ تِلاَوَته﴾ أَيْ يتَّبعونه حق اتباعه، باتباع الأمر والنهي. فالتلاوة لها معنيان. أحدهما: القراءة. الثاني: الاتباع فعلا؛ لأن من اتبع غيره يقال: تلاه. قال الله تعالى: ﴿والقمر إذا تلاها﴾ (الشمس، ٢/٩١). وَالْجُمْلَة حَال وَحَقّ نُصِبَ عَلَى الْمَصْدَر. وَالْخَبَر ﴿أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي بالقرآن. ومن هؤلاء عبد الله بن سلام من اليهود، وعدي بن حاتم وتميم الداري من النصارى. يعود الضمير من قوله ﴿يؤمنون به﴾ إلى "الهدى" في قوله: ﴿قل إن هدى الله هو الهدى﴾. ﴿وَمَنْ يَكْفُر بِهِ﴾ أَيْ بالقرآن ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث اشتروا الضلالة بالهدى.

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿١٢٣﴾

﴿١٢٢﴾﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيل اذْكُرُوا نِعْمَتِي الَّتِي أَنْعَمْت عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ تَقَدَّمَ مِثْله. ﴿١٢٣﴾﴿واتقوا﴾ خافوا ﴿يوما لا تجزي﴾ تُغْنِي ﴿نَفْس عَنْ نَفْس﴾

فِيهِ ﴿شَيْئًا وَلاَ يقبل منها عدل﴾ فداء ﴿ولا تنفعها شَفَاعَة وَلاَ هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ أي ليس لهم من يمنعهم وينجيهم من عذاب الله. كذلك اختتم الله قصة بني إسرائيل بما ذكر في أول القصة (وانظر إلى الآية ٤٧-٤٨) تذكيرًا لهم وإنذارًا كرة أخرى.

الباب الرابع: استبدال الدعاة

لما ضل **بنو إسرائيل** عن الصراط السوي عزلهم الله عن الإمامة، وأعطاها لمحمد ﷺ من **بني إسماعيل** وأمته، وكذا استبدل دعاة الإسلام بغيرهم. وفي آيات هذا الباب -من ١٢٤ إلى ١٤١- يبين هذا الموضوع، والله أعلم!

الفصل الأول: قصة إبراهيم عليه السلام

وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ ﴿١٢٤﴾

﴿١٢٤﴾﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ ابْتَلَى﴾ اخْتَبَرَ ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وَفِي قِرَاءَة "إِبْرَاهَام" ﴿رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ بِأَوَامِرِ وَنَوَاهٍ كَلَّفَهُ بِهَا ﴿فَأَتَمّهنَّ﴾ أَدَّاهُنَّ تَامَّات. ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُ ﴿إِنِّي جَاعِلك لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ قُدْوَة فِي الدِّين بسبب إتمامك الكلمات ﴿قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ أَوْلاَدِي اجْعَلْ أَئِمَّة ﴿قَالَ لاَ يَنَال عَهْدِي﴾ بِالإِمَامَةِ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ مِنْهُمْ.

فلما مات إبراهيم عليه السلام أعطى الله راية الإسلام بني إسحاق عليه السلام، فلما ضل بنو إسرائيل أعطاها من اصطفى من بني إسماعيل -وهو محمد ﷺ-، وبذلك استبدل الله الدعاة بغيرهم، وبعده استبدل القبلة بغيرها كما سيجيء.

وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ

قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾

﴿١٢٥﴾﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ﴾ الْكَعْبَة ﴿مَثَابَة لِلنَّاسِ﴾ مَرْجِعًا يَثُوبُونَ إِلَيْهِ مِنْ كُلّ جَانِب. المثابة مكان يثوب إليه النّاس على مرور الأوقات. وقيل: مكان يكتسب فيه الثواب. والثواب ما يرجع إلى الإنسان من جزاء أعماله. ﴿وَأَمْنًا﴾ مَأْمَنًا لَهُمْ مِنَ الظُّلْم وَالإِغَارَات الْوَاقِعَة فِي غَيْره. كَانَ الرَّجُل يَلْقَى قَاتِل أَبِيهِ فِيهِ فَلاَ يَهِيجه ﴿واتخذوا﴾ أيها الناس ﴿مِنْ مَقَام إِبْرَاهِيم﴾ هُوَ الْحَجَر الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ إبراهيم عليه السلام عِنْد بِنَاء الْبَيْت ﴿مُصَلًّى﴾ مَكَان صَلاَة بأن تصلوا خلفه ركعتي الطواف. ﴿وَعَهِدْنَا﴾ أَمَرْنَاهُمَا ﴿إِلَى إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل﴾ بعد إتمامه بـــ﴿أَنْ طَهِّرَا بَيْتِي﴾ مِن الأنجاس والأَوْثَان ﴿لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ﴾ الْمُقِيمِينَ فِيهِ ﴿وَالرُّكَّع السُّجُود﴾ جَمْع رَاكِع وَسَاجِد. أي المصلين.

﴿١٢٦﴾﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا﴾ الْمَكَان ﴿بَلَدًا آمِنًا﴾ ذَا أَمْن. وَقَدْ أَجَابَ الله دُعَاءَهُ فَجَعَلَهُ حَرَمًا لاَ يُسْفَك فِيهِ دَم إِنْسَان، وَلاَ يُظْلَم فِيهِ أَحَد، وَلاَ يُصَاد صَيْده، وَلاَ يُخْتَلَى خَلاَهُ (البخاري، ١٨٣٣) ﴿وَارْزُقْ أَهْله مِنَ الثَّمَرَات﴾ لِيُقبلوا على طاعتك ويتفرغوا لعبادتك. وَقَدْ فَعَلَ بِنَقْلِ الطَّائِف مِنَ الشَّام إِلَيْهِ. وَكَانَ أَقْفَر لاَ زَرْع فِيهِ وَلاَ مَاء. ﴿مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللهِ وَالْيَوْم الآخِر﴾ بَدَل مِنْ أَهْله. وَخَصَّهُمْ بِالدُّعَاءِ لَهُمْ مُوَافَقَة لِقَوْلِهِ ﴿لاَ يَنَال عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى ﴿وَ﴾ أَرْزُقُ أيضًا ﴿مَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ﴾ فِي الدُّنْيَا ﴿قَلِيلاً﴾ مُدَّة حَيَاته ﴿ثُمَّ أَضْطَرّهُ﴾ أُلْجِئهُ وأسوقه فِي الآخِرَة ﴿إِلَى عَذَاب النَّار﴾ فَلاَ يَجِد عَنْهَا مَحِيصًا ﴿وَبِئْسَ الْمَصِير﴾ المرجع هي. ﴿١٢٧﴾﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ يَرْفَع إِبْرَاهِيم الْقَوَاعِد﴾ الأُسُس. وقيل: الْجُدُر ﴿مِنَ الْبَيْت﴾ وهو الكعبة ﴿وَإِسْمَاعِيل﴾

واختلف فيمن بنى البيت أولاً. فقيل: الملائكة. وقيل: آدم عليه السلام. وقيل: إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وهو أصح. يَقُولاَنِ أو يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا﴾ تقربنا إليك ببناء هذا البيت ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لدعائنا ﴿الْعَلِيمُ﴾ بضمائرنا ونياتنا. ﴿١٢٨﴾﴿ربنا واجعلنا مسلمين﴾ منقادين ﴿لك و﴾ اجعل ﴿من ذريتنا﴾ أَوْلاَدنَا. ومن للتبعيض. وَأَتَى بِهِ لِتَقَدُّمِ قَوْله ﴿لاَ يَنَال عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة، ١٢٤). ﴿أُمَّةً﴾ جَمَاعَة ﴿مُسْلِمَةً لَكَ﴾ أي من يسلم وجهه لك ويخضع لعظمتك. ﴿وَأَرِنَا﴾ عَلِّمْنَا ﴿مَنَاسِكَنَا﴾ أي مواقف الحج وأعماله. والمناسك: جمع منسك -بفتح السين وكسرها- بمعنى الفعل وبمعنى الموضع من النسك. والنسك هو العبادة. وشاعت تسمية أعمال الحج بالمناسك كالطواف، والسعي، والذبح. ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ سَأَلاَهُ التَّوْبَة مَعَ عِصْمَتهمَا تَوَاضُعًا وَتَعْلِيمًا لِذُرِّيَّتِهِمَا. ﴿١٢٩﴾﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ﴾ أَيْ فِي الأمة المسلمة ﴿رَسُولاً مِنْهُمْ﴾ مِنْ أَنْفُسهمْ. فاستجاب الله الدعاء ببعثة محمد ﷺ كما جاء في الحديث: "أَنَا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبِشَارَةُ عِيسَى، وَرُؤْيَا أُمِّي آمِنَةَ الَّتِي رَأَتْ." (الحاكم، ٣٥٦٦) ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ﴾ أي ما يشهد بوحدانية الله، وبصدق رسوله ﷺ فيما يبلغه عنه ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ﴾ الْقُرْآن العظيم ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ السنة المطهرة وفهم القرآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرهُمْ مِنَ الشِّرْك وسائر الأرجاس ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ﴾ الْغَالِب في حكمه، لا يُغلب على ما يريد ﴿الْحَكِيمُ﴾ ذو الحكمة فِي صنعه. الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها.

وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٣١﴾

﴿١٣٠﴾﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّة إِبْرَاهِيمَ﴾ أي لا يُعرض عن دين إبراهيم ﴿إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسه﴾ جَهِلَ أَنَّهَا مَخْلُوقَة لِلَّهِ يَجِب عَلَيْهَا عِبَادَته، أَوْ اسْتَخَفَّ بِهَا، وَامْتَهَنَهَا. ﴿وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا﴾ اخْتَرْنَاهُ من بين سائر الخلق بالرسالة والإمامة ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَة

لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ الَّذِينَ لَهُمُ الدَّرَجَات الْعُلَى. وَاذْكُرْ ﴿١٣١﴾﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبّه أَسْلِمْ﴾ انْقَدْ لِلَّهِ وَأَخْلِصْ لَهُ دِينك ﴿قال أسلمت لرب العالمين﴾ أى أخلصت اوانقدت.

الفصل الثاني: مزاعم أهل الكتاب

وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾

﴿١٣٢﴾﴿وَوَصَّى﴾ وَفِي قِرَاءَة: "أَوْصَى" ﴿بِهَا﴾ بِالْمِلَّةِ أو بالكلمة، وهي ﴿أسلمت لرب العالمين﴾ ﴿إِبْرَاهِيم بَنِيهِ وَ﴾ كذلك ﴿يَعْقُوبُ﴾ أوصى بملة إبراهيم بَنِيهِ قَالَ: ﴿يَا بَنِيّ إِنَّ اللهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ﴾ دِين الإِسْلاَم ﴿فَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ نَهَى عَنْ تَرْك الإِسْلاَم وَأَمَرَ بِالثَّبَاتِ عَلَيْهِ إِلَى مُصَادَفَة الْمَوْت. وَلَمَّا قَالَ الْيَهُود لِلنَّبِيِّ أَلَسْت تَعْلَم أَنَّ يَعْقُوب يَوْم مَاتَ أَوْصَى بَنِيهِ بِالْيَهُودِيَّةِ نَزَلَ: ﴿١٣٣﴾﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاء﴾ حُضُورًا ﴿إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ﴾ أي مقدماته ﴿إِذْ﴾ بَدَل مِنْ "إِذْ" قَبْله. واعلموا أنه ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي﴾ بَعْد مَوْتِي ﴿قَالُوا نَعْبُد إِلَهك وَإِلَه آبَائِك إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل وَإِسْحَاق﴾ عَدّ إِسْمَاعِيل مِنَ الآبَاء تَغْلِيب؛ وَلأَنَّ الْعَمّ بِمَنْزِلَةِ الأَب ﴿إِلَهًا وَاحِدًا﴾ بَدَل مِنْ إِلَهك ﴿ونحن له مسلمون﴾ وَ"أَمْ" بِمَعْنَى هَمْزَة الإِنْكَار. أَيْ ما كنتم يا معشر اليهود المكذبين محمدا حاضرين حين احتضر يعقوب، فلا تكذبوا عليه؟

ثم رد الله تعالى على اليهود أنهم نسلُ الأنبياء وحفدتهم، فلا يدخلون النار إلا أياما معدودات بقوله:

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٤﴾

أيها اليهود! ﴿١٣٤﴾﴿تِلْكَ﴾ أي إِبْرَاهِيم، وَيَعْقُوب، وَبَنِيهِمَا. وَأَنَّثَ لِتَأْنِيثِ خَبَره

﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ سَلَفَتْ ومضت. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من العمل ﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ آبائكم من خير. أي إنما تسألون عما كنتم تعملون. يومئذ لا ينفع نسبكم ولا حسبكم!

وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾ قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٧﴾ صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٨﴾

﴿١٣٥﴾﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ "أَوْ" لِلتَّفْصِيلِ، وَقَائِل الأَوَّل يَهُود الْمَدِينَة، وَالثَّانِي نَصَارَى نَجْرَان. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿بَلْ﴾ نَتَّبِع ﴿مِلَّة إِبْرَاهِيم حَنِيفًا﴾ حَال مِنْ إِبْرَاهِيم. أي مَائِلاً عَنِ الأَدْيَان الباطلة إِلَى الدِّين الْقَيِّم ﴿وما كان من المشركين﴾ برأه مما نسبه اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية. وفيه تعريض بإشراكهم. ﴿١٣٦﴾﴿قُولُوا﴾ خِطَاب لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ مِنَ الْقُرْآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ مِنَ الصُّحُف ﴿وَإِسْمَاعِيل وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب وَالأَسْبَاط﴾ الأحفاد. وهم أولاد يعقوب الاثنا عشر وأبناؤهم. قال الصابوني: "والصحيح أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب، وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب كما نبّه عليه المحققون." ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى﴾ مِنَ التَّوْرَاة ﴿وَعِيسَى﴾ مِنَ الإِنْجِيل ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ﴾ الآخَرون ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ مِنَ الْكُتُب وَالآيَات ﴿لاَ نُفَرِّق بَيْن أَحَد مِنْهُمْ﴾ فَنُؤْمِن بِبَعْضٍ وَنَكْفُر بِبَعْضٍ كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى ﴿ونحن له مسلمون﴾ أي نحن له وحده مطيعون، مستجيبون له في كل ما أمرنا به وما نهانا عنه. ﴿١٣٧﴾﴿فَإِنْ آمَنُوا﴾ أَيْ الْيَهُود وَالنَّصَارَى ﴿بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ﴾ أي فإن آمنوا إيمانًا مثل إيمانكم ﴿فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ إلى الحق كما اهتديتم ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الإِيمان بما دعوهم إليه ﴿فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاق﴾ خِلاف مَعَكُمْ

﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ﴾ يَا مُحَمَّد شِقَاقهمْ بالآيات والحفظ والنصر ﴿وَهُوَ السَّمِيع﴾ لما ينطقون به ﴿الْعَلِيم﴾ بما يضمرونه في قلوبهم من المكر والشر. وَقَدْ كَفَاهُ إيَّاهُمْ مثلاً بِقَتْلِ قُرَيْظَة، وَنَفْي النَّضِير، وَضَرْب الْجِزْيَة عَلَى أهل نجران، وإبطال مزاعمهم بآيات القرآن. ﴿١٣٨﴾﴿صِبْغَة اللهِ﴾ مَصْدَر مُؤَكِّد لِـــ﴿آمَنَّا باللهِ﴾، وَنَصْبُهُ بِفِعْلٍ مُقَدَّر. أَيْ صَبَغَنَا اللهِ. وَالْمُرَاد بِهَا دِينه. أي ما نحن عليه من الإيمان هو دين الله الذي صبغنا به، وأشربناه في قلوبنا، فظهر أثره علينا كما يظهر الصبغ في الثوب ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ لاَ أَحَد ﴿أَحْسَن مِنَ اللهِ صِبْغَة﴾ تَمْيِيز ﴿وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ﴾ ولا نعبد أحدًا سواه.

قَالَ الْيَهُود لِلْمُسْلِمِينَ: "نَحْنُ أَهْل الْكِتَاب الأَوَّل، وَقِبْلَتنَا أَقْدَم، وَلَمْ تَكُنْ الأَنْبِيَاء مِنَ الْعَرَب، وَلَوْ كَانَ مُحَمَّد نَبِيًّا لَكَانَ منا." فنزلت:

قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٩﴾ أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللهِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٠﴾

﴿١٣٩﴾﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿أَتُحَاجُّونَنَا﴾ تُخَاصِمُونَنَا وتجادلنا ﴿فِي اللهِ﴾ أَنْ اصْطَفَى نَبِيًّا مِنَ الْعَرَب زاعمين أنكم ﴿أبناء الله وأحباؤه﴾ (المائدة، ١٨/٥)، وأن الأنبياء منكم دون غيركم ﴿وَهُوَ رَبّنَا وَرَبّكُمْ﴾ أي ربُّ الجميع على السواء، فَلَهُ أَنْ يَصْطَفِي مَنْ يَشَاء ﴿وَلَنَا أَعْمَالنَا﴾ نُجَازِي بِهَا ﴿وَلَكُمْ أَعْمَالكُمْ﴾ تُجَازُونَ بِهَا ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ﴾ الدِّين وَالْعَمَل دُونكُمْ، فَنَحْنُ أَوْلَى بِالاصْطِفَاء. وَالْهَمْزَة لِلإِنْكَارِ، وَالْجُمَل الثلاث أحوال. ﴿١٤٠﴾﴿أم﴾ بل أ ﴿تَقُولُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاء ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب وَالأَسْبَاط كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿أَأَنْتُمْ أَعْلَم أَمْ اللهُ﴾ أَيْ اللهُ أَعْلَم، وَقَدْ بَرَّأَ مِنْهُمَا إِبْرَاهِيم بِقَوْلِهِ ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيم يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا﴾ (آل عمران، ٦٧/٣)، وَالْمَذْكُورُونَ مَعَهُ تَبَعٌ لَهُ. ﴿وَمَنْ أَظْلَم مِمَّنْ كَتَمَ﴾ أَخْفَى عَنِ النَّاس ﴿شَهَادَةً عِنْده﴾ كَائِنَة ﴿مِنَ اللهِ﴾ وهي شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية. والمعنى أن أهل الكتاب لا

أحد أظلم منهم؛ لأنهم كتموا هذه الشهادة وهم عالمون بها. وفيه تعريض بكتمانهم شهادة الله لمحمد ﷺ بالنبوة في كتبهم ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من كتمان الشهادة وتكذيب الرسل. وهو تَهْدِيد لَهُمْ.

تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾

يا أهل الكتاب! ﴿١٤١﴾﴿تِلْكَ﴾ أي آباؤكم الضالون ﴿أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ﴾ سَلَفَتْ ومضت. ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ﴾ من العمل ﴿وَلاَ تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ آبائكم من شر ككتمان الشهادة. أي إنما تسألون عما كنتم تعملون؛ لأن الله عز وجل يقول: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ (الأنعام، ١٦٤/٦). قال النسفي: كررت هذه الآية للتأكيد، ولأن المراد بالأول الأنبياء عليهم السلام، وبالثاني أسلاف اليهود والنصارى.

الباب الخامس: استبدال المركز

استبدال الدعاة يقتضي استبدال المركز ليقطع دعاية الدعاة القديمة. لذلك ولي الدعاة الجديدة إلى القبلة الجديدة –وهي الكعبة– بعد إعطاء فرصة للتفكير لليهود. وفي آيات هذا الباب –من ١٤٢ إلى ١٥٢– يبين هذا الموضوع، والله أعلم!

سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾

﴿١٤٢﴾﴿سيقول السفهاء﴾ ضعفاء العقول ﴿مِنَ النَّاس﴾ وهم اليهود لكراهتهم التوجه إلى الكعبة وأنهم لا يرون النسخ، أو المنافقون لحرصهم على الطعن والاستهزاء، أو المشركون لقولهم "رغب عن قبلة آبائه، ثم رجع إليها، لماذا فعل ذلك؟"، بل كلهم قالوا: ﴿مَا وَلاَّهُمْ﴾ صَرَفَهم ﴿عَنْ قِبْلَتهمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ عَلَى استقبالها في الصلاة. وهي بيت المقدس. وَالإِتْيَان بِالسِّينِ الدَّالَّة عَلَى الاسْتِقْبَال مِنَ الإِخْبَار بالغيب ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب﴾ أَيْ الْجِهَات كُلّهَا، فَيَأْمُر بِالتَّوَجُّهِ إِلَى أَيّ جِهَة شَاءَ، لاَ اعْتِرَاض عَلَيْهِ ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاء﴾ هِدَايَته ﴿إِلَى صِرَاط﴾ طَرِيق ﴿مُسْتَقِيم﴾ دِين الإِسْلاَم. ﴿١٤٣﴾﴿وَكَذَلِكَ﴾ كَمَا هَدَيْنَاكُمْ إِلَى الإسلام ﴿جَعَلْنَاكُمْ﴾ يَا أُمَّة مُحَمَّد ﴿أُمَّةً وَسَطًا﴾ بعيدًا عن الإفراط والتفريط في العقيدة والعمل خِيَارًا عُدُولاً ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاء عَلَى النَّاس﴾ لتشهدوا على الأمم يوم القامة أن رسلهم بلّغتهم، أو لتكونوا الشخصيات المثالية على سائر الأمم، كأنه أنسب (وانظر إلى النساء، ٤/٤١) ﴿وَيَكُون الرَّسُول عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ أَنَّهُ بَلَّغَكُمْ، أو يكون عليكم مثالاً أكملاً. ﴿وَمَا جَعَلْنَا﴾ صَيَّرْنَا ﴿الْقِبْلَة الَّتِي كُنْت عَلَيْهَا﴾ قيل: المراد بالقبلة هنا القبلة الأولى -المسجد الأقصى- لقوله ﴿كنت عليها﴾. وقيل: الثانية -المسجد الحرام-، فتكون الكاف زائدة، أي أنت الآن عليها. روي أن رسول الله ﷺ كان يصلي بمكة إلى الكعبة، ثم أمر بالصلاة إلى بيت المقدس بعد الهجرة سِتَّة أَوْ سَبْعَة عَشْر شَهْرًا تأليفًا لليهود، ثم حُوِّل إلى الكعبة ﴿إِلاَّ لِنَعْلَم﴾ لنُفرق أو لنُظهر أو لِنَرَى. والعرب تضع العلم مكان الرؤية، والرؤية مكان العلم، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ﴾ (الفيل، ١٠٥/١) ، بمعنى ألم تعلم. ﴿مَنْ يَتَّبِع الرَّسُول﴾ فَيُصَدِّقهُ ﴿مِمَّنْ يَنْقَلِب عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ أَيْ يَرْجِع إِلَى الْكُفْر شَكًّا فِي الدِّين، وَظَنًّا أَنَّ النَّبِيّ ﷺ فِي حِيرَة مِنْ أَمْره. ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَة مِنَ الثَّقِيلَة وَاسْمهَا مَحْذُوف. أَيْ وَإِنَّهَا ﴿كَانَتْ﴾ أَيْ التَّوْلِيَة إِلَيْهَا ﴿لَكَبِيرَة﴾ شَاقَّة ثقيلة عَلَى النَّاس ﴿إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللهُ﴾ مِنْهُمْ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانكُمْ﴾ أَيْ صَلاَتكُمْ إِلَى بَيْت الْمَقْدِس، أو تصديقكم بأنه قبلة قبل التحويل؛ بَلْ يُثِيبكُمْ عَلَيْهَا على كلا الاحتمالين. نزلت حين

سألوه ﷺ عَمَّنْ مَاتَ وهو يصلي إلى بيت المقدس قَبْل التحويل (البخاري، ٤٤٤٦) ﴿إن الله بالناس لرؤوف رَحِيم﴾ أي لأنه رؤوف بعباده، ذو رحمة بخلقه، فلا يضيع عمل عامل منهم. وَالرَّأْفَة شِدَّة الرَّحْمَة، وجمع بينهما كما في الرحمن الرحيم، وقدم الأبلغ مراعاة للفاصلة، والمعنى متقارب.

قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

﴿١٤٤﴾﴿قَدْ﴾ لِلتَّحْقِيقِ ﴿نَرَى تَقَلُّبَ﴾ تَرَدُّد وتَصَرُّف ﴿وَجْهك فِي﴾ جِهَة ﴿السَّمَاء﴾ مُتَطَلِّعًا إِلَى الْوَحْي وَمُتَشَوِّقًا لِلأَمْرِ بِاسْتِقْبَالِ الْكَعْبَة. وَكَانَ يَوَدّ ذَلِكَ موافقة لإبراهيم، ومخالفة لليهود، ولأنها أدعى للعرب إلى الإيمان؛ لأنها مفخرتهم ومَزَارهم ومطافهم ﴿فَلَنُوَلِّيَنَّكَ﴾ نُحَوِّلَنَّك ﴿قِبْلَة تَرْضَاهَا﴾ تُحِبّهَا، ﴿فَوَلِّ﴾ اسْتَقْبِلْ ﴿وَجْهك﴾ فِي الصَّلَاة ﴿شَطْر﴾ نَحْو ﴿الْمَسْجِد الْحَرَام﴾ أَيْ الْكَعْبَة، ﴿وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ﴾ أيها المؤمنون ﴿فَوَلُّوا وُجُوهكُمْ﴾ فِي الصَّلَاة ﴿شَطْره﴾ أيضًا ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ﴾ أَيْ التَّوَلِّي إِلَى الْكَعْبَة ﴿الْحَقّ﴾ الثَّابِت المنزَّل ﴿مِنْ رَبّهمْ﴾ لأنهم لما علموا من كتابهم أن محمدا ﷺ نبي علموا أنه لا يقول إلا الحق ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عما يعملون﴾ فالأول وعيد للكافرين بالعقاب على الجحود والإباء، والثاني وعد للمؤمنين بالثواب على القبول والأداء.

وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٥﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾

﴿١٤٥﴾﴿وَلَئِنْ﴾ لَام الْقَسَم ﴿أَتَيْت الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب بِكُلِّ آيَة﴾ حجة عَلَى نبوتك ﴿مَا تَبِعُوا﴾ أَيْ لاَ يَتْبَعُونَ ﴿قِبْلَتك﴾ عِنَادًا ﴿وَمَا أَنْت بِتَابِعٍ قِبْلَتهمْ﴾ قَطْعٌ لِطَمَعِهِ فِي

إسْلاَمهمْ، وَطَمَعهمْ فِي عَوْده إلَيْهَا ﴿وَمَا بَعْضهمْ بِتَابِعٍ قِبْلَة بَعْض﴾ أي إن النصارى لا يتبعون قبلة اليهود، كما أن اليهود لا يتبعون قبلة النصارى، لما بينهم من العداوة ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْت أَهْوَاءَهُمْ﴾ الَّتِي يَدْعُونَك إلَيْهَا ﴿مِنْ بَعْد مَا جَاءَك مِنَ الْعِلْم﴾ الْوَحْي ﴿إنَّك إذًا﴾ إنْ اتَّبَعْتهمْ فَرْضًا ﴿لمن الظالمين﴾ أي تكون ممن ارتكب أفحش الظلم. ﴿١٤٦﴾﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَاب يَعْرِفُونَهُ﴾ أي محمدًا، أو القرآن، أو تحويل القبلة. والأول أظهر لقوله ﴿كَمَا يعرفون أبناءهم﴾ بنعته في كتبهم. أي لا يشكون. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقّ﴾ نَعْته ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى بينه في كتابهم. ﴿١٤٧﴾﴿الْحَقّ مِنْ رَبّك﴾ فلا تلتفت إلى أوهام هؤلاء الجاحدين ﴿فَلاَ تَكُونَن مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشَّاكِّينَ فِيهِ. والخطاب للرسول، والمراد أمته.

وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللهُ جَمِيعًا إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾

﴿١٤٨﴾﴿وَلِكُلٍّ﴾ مِنَ الأُمَم ﴿وِجْهَة﴾ قِبْلَة ﴿هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ فِي صَلاَته. ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَات﴾ أي اتركوا المجادلة في القبلة –وهي من الوسائل–، وبَادِرُوا إلَى الطَّاعَات – وهي المقاصد–. ﴿أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ الله جَمِيعًا﴾ يَجْمَعكُمْ يَوْم الْقِيَامَة فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ فيقدر على الإماتة، والإحياء، والجمع. ﴿١٤٩﴾﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْت﴾ لِسَفَرٍ ﴿فَوَلِّ وَجْهك شَطْر الْمَسْجِد الْحَرَام وَإِنَّهُ لَلْحَقّ مِنْ رَبّك وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ بِالتَّاءِ وَالْيَاء. ﴿١٥٠﴾﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْت

فَوَلِّ وَجْهك شَطْر الْمَسْجِد الحرام﴾ هذا أمر ثالث باستقبال الكعبة؛ لأن القبلة كان أول ما نسخ من الأحكام الشرعية، فدعت الحاجة إلى التكرار والتأكيد، ولأن موقع التحويل كان صعبا في نفوسهم جدا، فأكد الأمر ليرى الناس الاهتمام به، فيخف عليهم، وتسكن نفوسهم إليه. يا أيها المؤمنون! ﴿وحيث ما كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهكُمْ شَطْره﴾ كَرَّرَهُ لِلتَّأْكِيدِ ﴿لِئَلاَّ يَكُون لِلنَّاسِ﴾ الْيَهُود أَوْ الْمُشْرِكِينَ ﴿عَلَيْكُمْ حُجَّة﴾ أَيْ لِتَنْتَفِي مُجَادَلَتهمْ لَكُمْ فِي التولي مِنْ قَوْل الْيَهُود: "يَجْحَد دِينَنَا وَيَتْبَع قِبْلَتَنَا!" وَقَوْل الْمُشْرِكِينَ: "يَدَّعِي مِلَّة إبْرَاهِيم وَيُخَالِف قِبْلَته!" ﴿إِلاَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ بِالْعِنَادِ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ: "مَا تَحَوَّلَ إِلَيْهَا إِلاَّ مَيْلاً إِلَى دِين آبَائِهِ." أو شيئًا آخر. وَالاسْتِثْنَاء مُتَّصِل. وَالْمَعْنَى: لاَ يَكُون لأَحَدٍ عَلَيْكُمْ كَلاَم إِلاَّ كَلاَم هَؤُلاَءِ ﴿فَلاَ تَخْشَوْهُمْ﴾ عن مخالفتهم ﴿وَاخْشَوْنِي﴾ فلا تخالفوا أمري؛ ﴿وَلأُتِمّ﴾ عُطِفَ عَلَى ﴿لِئَلاَّ يَكُون﴾ ﴿نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ﴾ بِالْهِدَايَةِ إِلَى مَعَالِم دِينكُمْ أو بدخول الجنة ﴿وَ﴾ كذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ إِلَى الْحَقّ. ﴿١٥١﴾﴿كما أرسلنا﴾ إما أن يتعلق بما قبله، أي ﴿ولأتم نعمتي﴾ عليكم في الآخرة بالثواب كما أتممتها عليكم في الدنيا بإرسال الرسول؛ أو بما بعده، أي كما ذكر تكم بإرسال الرسول فاذكروني بالطاعة أذكركم بالثواب ﴿فِيكُمْ رَسُولاً مِنْكُمْ﴾ مُحَمَّدًا ﷺ ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتنَا﴾ الْقُرْآن ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ يُطَهِّركُمْ مِنْ الشِّرْك والمعاصي ﴿وَيُعَلِّمكُمْ الْكِتَاب﴾ الْقُرْآن ﴿وَالْحِكْمَة﴾ السنة المطهرة وفهم القرآن ﴿ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون﴾ أي يعلمكم من أمور الدنيا والدين الشيء الكثير الذي لم تكونوا تعلمونه أو يعلمكم مالا سبيل إلى معرفته إلا بالوحي. ﴿١٥٢﴾﴿فَاذْكُرُونِي﴾ بما شرعت من أمر القبلة، وبما أتممت عليكم من النعمة بإرسال رسول منكم يعلمكم ويزكيكم، وبكل ما أنعمت عليكم من ثمرات ذلك، ولا تنسوا أنني أنا المتفضل بإفاضة هذه النعم عليكم ﴿أَذْكُرْكُمْ﴾ بإدامتها، وتمكينها، والزيادة عليها من النصر، والسلطان، وغير ذلك من أسباب السعادة. ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ نِعْمَتِي ﴿وَلاَ تَكْفُرُونِ﴾ بالمعصية. ويتم الذكر والشكر إذا كانا بالقلب، واللسان مع العمل

الذي اقتضاه الذكر والشكر. وقال السري السقطي: "الشكر أن لا نعصي الله بنعمه." وقال الجنيد: "أن لا ترى معه شريكًا في نعمه." وقيل: "هو الإقرار بالعجز عن الشكر." والحاصل أن شكر القلب المعرفة، وشكر اللسان الحمد، وشكر الأركان الطاعة.

الباب السادس: تعليم الدعاة

الفصل الأول: التعليم العامة

المبحث الأول: الصبر

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٣﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾

﴿١٥٣﴾﴿يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا﴾ على أمور دنياكم وآخرتكم ﴿بالصَّبْرِ﴾ على الطاعة والمعصية والْمَشَاقّ ﴿و﴾ بإقامة ﴿الصلاة﴾ على الوجه الأكمل؛ فبالصبر تنالون كل فضيلة، وبالصلاة تنتهون عن كل رذيلة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ (العنكبوت، ٢٩/٤٥) ﴿إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بالنصر والمعونة والحفظ والتأييد. قال الله تعالى في الآية ٤٥ و ١٥٣: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾. والخطاب في الأولى لليهود، وفي الثانية للمسلمين. ﴿١٥٤﴾﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ هُمْ ﴿أَمْوَاتٌ بَلْ﴾ هُمْ ﴿أَحْيَاءٌ﴾ أَرْوَاحهمْ فِي حَوَاصِل طُيُور خُضْر تَسْرَح فِي الْجَنَّة حَيْثُ شَاءَتْ (الترمذي، ٣٠١١) ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ بذلك؛ لأن حياة الشهيد لا تعلم حسًّا.

﴿١٥٥﴾﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم﴾ لَنَخْتَبِرَنَّكُم، فَنَنْظُر أَتَصْبِرُونَ أَمْ لاَ ﴿بِشَيْءٍ﴾ بقليل من كل واحدة من هذه البلايا ﴿مِنَ الْخَوْف﴾ مثل خوف الله، والعدو، والآفات، والبلايا ﴿وَالْجُوعِ﴾ مثل القحط، وصوم شهر رمضان ﴿وَنَقْص مِنَ الأَمْوَال﴾ مثل موت المواشي، والزكاة ﴿وَالأَنْفُس﴾ مثل القتل، والموت، والمرض، والشيب، وفقدان الأحباء ﴿وَالثَّمَرَات﴾ مثل ثمرات الحرث، وموت الأولاد ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ عَلَى هذه الْبَلاَيا بِالْجَنَّةِ. هُمْ ﴿١٥٦﴾﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَة﴾ بَلاَء ﴿قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ﴾ -مَلِكًا وَعَبِيدًا- يَفْعَل بِنَا مَا يَشَاء ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ فِي الآخِرَة فَيُجَازِينَا. ﴿١٥٧﴾﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَات﴾ ثناء أو رأفة أو مَغْفِرَة ﴿مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَة﴾ نعمة. قال الرازي: "فاعلم أن الصلاة من الله هي الثناء والمدح والتعظيم. وأما رحمته فهي النعم التي أنزلها به عاجلا ثم آجلا." ﴿وأُولئك هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ إِلَى الصَّوَاب.

إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾

﴿١٥٨﴾﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ﴾ رَبوتان بِمَكَّة ﴿مِنْ شَعَائِرِ اللهِ﴾ من أَعْلاَم دِينه. الشعائر جمع الشعيرة. وهي في اللغة: العلامة. ومنه الشِّعار. وأشعر الهَدْي جعل له علامة ليعرف بها. والشعائر: كلُّ ما تعبّدنا الله به من أمور الدين كالطواف، والسعي، والأذان، ونحوه. ﴿فَمَنْ حَجّ الْبَيْت أَوْ اعْتَمَرَ﴾ أصل الحَجِّ القصد للزيارة. والاعْتِمَارُ والْعُمْرَةُ: الزيارة التي فيها عِمَارَةُ الودّ، وجعل في الشّريعة للقصد المخصوص. ﴿فَلاَ جُنَاح عَلَيْهِ﴾ إِثْم عَلَيْهِ ﴿أَنْ يَطَّوَّف﴾ أصله يتطوّف. فِيهِ إِدْغَام التَّاء فِي الأَصْل فِي الطَّاء ﴿بِهِمَا﴾ بِأَنْ يَسْعَى بَيْنهمَا سَبْعًا. نَزَلَتْ لَمَّا كَرِهَ الْمُسْلِمُونَ ذَلِكَ لأَنَّ أَهْل الْجَاهِلِيَّة كَانُوا يَطُوفُونَ بِهِمَا، وَعَلَيْهِمَا صنمان يمسحونهما. وهما إساف ونائلة. وكان من أهّل لمناة لا يسعى بين الصفا والمروة ﴿وَمَنْ تَطَوَّعَ﴾ فعل طاعةً فرضا أو نفلا. والتطوع لغة: الإتيان بالفعل طوعا لا كرها، ثم أطلق على التبرع بالخير، لأنه طوع لا كره، وعلى الإكثار من الطاعة بالزيادة على الواجب. ﴿خَيْرًا﴾ عَمِلَ مَا لَمْ يَجِب عَلَيْهِ

مِنْ طَوَاف وَغَيْره. وقيل: بالتطوف بينهما ﴿فَإِنَّ الله شَاكِر﴾ لِعَمَلِهِ بِالإِثَابَةِ عَلَيْهِ ﴿عَلِيم﴾ بِهِ. قال الرازي: "أنه تعالى لما قال: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع﴾ إلى قوله: ﴿وبشر الصابرين﴾ قال: ﴿إن الصفا والمروة من شعائر الله﴾ وإنما جعلهما كذلك لأنهما من آثار هاجر وإسماعيل مما جرى عليهما من البلوى. واستدلوا بذلك على أن من صبر على البلوى لا بد وأن يصل إلى أعظم الدرجات وأعلى المقامات."

المبحث الثاني: الإيمان

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٦١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿١٦٢﴾

وَنَزَلَ فِي الْيَهُود ﴿١٥٩﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ من أحبار اليهود ﴿مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَات وَالْهُدَى﴾ كَنَعْت مُحَمَّد ﷺ ﴿مِنْ بَعْد مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَاب﴾ التَّوْرَاة ﴿أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمْ الله﴾ يُبْعِدهُمْ مِنْ رَحْمَته ﴿وَيَلْعَنُهُمْ اللاعِنُونَ﴾ الْمَلائِكَة وَالْمُؤْمِنُونَ، أَوْ كُلّ شَيْء بِالدُّعَاءِ عليهم باللعنة. ﴿١٦٠﴾﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا﴾ رَجَعُوا عَنْ ذَلِكَ ﴿وَأَصْلَحُوا﴾ عَمَلهمْ ﴿وَبَيَّنُوا﴾ مَا كَتَمُوا ﴿فَأُولَئِكَ أَتُوب عَلَيْهِمْ﴾ أَقْبَل تَوْبَتهمْ ﴿وَأَنَا التَّوَّاب الرَّحِيم﴾ قابل التوبة واسع الرحمة. ﴿١٦١﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّار﴾ حَال ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَة الله وَالْمَلائِكَة وَالنَّاس أَجْمَعِينَ﴾ أَيْ هُمْ مُسْتَحِقُّونَ ذَلِكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة. وَالنَّاس؛ قِيلَ عَامّ، وَقِيلَ الْمُؤْمِنُونَ. ﴿١٦٢﴾﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ اللعْنَة وَالنَّار الْمَدْلُول بِهَا عَلَيْهَا ﴿لاَ يُخَفَّف عَنْهُمُ الْعَذَاب﴾ طَرْفَة عَيْن ﴿وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ ولا يُمْهَلُونَ ليتوبوا ويصلحوا، أو لا ينظر إليهم نظر مغفرة ورحمة.

وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ

وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾

﴿١٦٣﴾﴿وَإِلَهكُمْ﴾ الْمُسْتَحِقّ لِلْعِبَادَةِ مِنْكُمْ ﴿إِلَه وَاحِد﴾ لاَ نَظِير له لا فِي ذَاته وَلاَ فِي صِفَاته ﴿لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ﴾ هُوَ ﴿الرَّحْمَن الرَّحِيم﴾ قوله ﴿وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ معطوف على قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ ما أَنْزَلْنا﴾ (البقرة، ١٥٩/٢). وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ مسوقة لإثبات نبوة النبي ﷺ، وجملة ﴿وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ﴾ لإثبات وحدانية الله تعالى. وَلما طَلَبُوا آية على ذلك فنزلت: ﴿١٦٤﴾﴿إن في خلق السماوات والأرض﴾ وما فيهما مِنَ الْعَجَائِب ﴿وَاخْتِلاَف اللَّيْل وَالنَّهَار﴾ بِالذَّهَابِ وَالْمَجِيء، وَالزِّيَادَة وَالنُّقْصَان ﴿وَالْفُلْك﴾ الفلك ما عظم من السفن، ويستعمل لفظ الفلك للواحد والجمع. والظاهر أن المراد به هنا الجمع بدليل قوله تعالى ﴿الَّتِي تَجْرِي﴾ تَسير ﴿فِي الْبَحْر﴾ على وجه الماء، وَلاَ تَرْسُب وهي مُوَقِّرَةٌ بالأثقال ﴿بِمَا يَنْفَع النَّاس﴾ أي بما فيه مصالح الناس من أنواع المتاجر والبضائع ﴿وَمَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ﴾ مَطَر ﴿فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ﴾ بِالنَّبَاتِ ﴿بَعْد مَوْتهَا﴾ يُبْسِهَا ﴿وَبَثَّ﴾ فَرَّقَ وَنَشَرَ. والبث التفريق والنشر لما كان خافيًا ﴿فِيهَا﴾ في الأرض ﴿مِنْ كُلّ دَابَّة﴾ لأَنَّهُمْ يَنْمُونَ بِالْخِصْبِ الْكَائِن عَنْهُ ﴿وَتَصْرِيف الرِّيَاح﴾ تَقْلِيبهَا في الجهات المختلفة، حَارَّة وَبَارِدَة، خفيفة وشديدة ﴿وَالسَّحَاب﴾ الْغَيْم ﴿الْمُسَخَّر﴾ الْمُذَلَّل بِأَمْرِ اللهِ تَعَالَى يَسير إِلَى حَيْثُ شَاءَ اللهُ ﴿بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض﴾ بِلاَ عَلاَقَة وهو يحمل الماء الغزير ثم يصبُّه على الأرض قطرات قطرات

﴿لآيَات﴾ دَالاَّت عَلَى وَحْدَانِيّته تَعَالَى ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَتَدَبَّرُونَ. ﴿١٦٥﴾﴿وَمِنَ النَّاس مَنْ يَتَّخِذ﴾ على رغم هذه الآيات ﴿مِنْ دُون اللهِ﴾ أَيْ غَيْره ﴿أَنْدَادًا﴾ أَصْنَامًا ورؤساء ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾ بِالتَّعْظِيمِ وَالْخُضُوع ﴿كَحُبِّ اللهِ﴾ أي يعظمونهم ويخضعون لهم كحب المؤمنين لله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ مِنْ حُبّهمْ لِلأَنْدَادِ؛ لأَنَّهُمْ لاَ يَعْدِلُونَ عَنْهُ بِحَالٍ مَا، وَالْكُفَّار يَعْدِلُونَ عنها فِي الشِّدَّة إِلَى الله ﴿وَلَوْ يَرَى﴾ الآن نتيجة شركهم ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ أنفسهم بِاتِّخَاذِ الأَنْدَاد ﴿إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَاب﴾ أي كما سيرون العذاب يوم القيامة، وكما سيرون ﴿أَنَّ الْقُوَّة﴾ الْقُدْرَة وَالْغَلَبَة ﴿لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللهَ شَدِيد الْعَذَاب﴾ أي لَوْ عَلِمُوا فِي الدُّنْيَا شِدَّة عَذَاب الله وَأَنَّ الْقُدْرَة لِلَّهِ وَحْده كوَقْت مُعَايَنَتهمْ لَهُ وَهُوَ يَوْم الْقِيَامَة لَمَّا اتَّخَذُوا مِنْ دُونه أَنْدَادًا. ﴿١٦٦﴾﴿إِذْ﴾ أي يومئذ ﴿تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا﴾ أَيْ الرُّؤَسَاء ﴿مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ أَيْ من الأتباع أَنْكَرُوا إِضْلاَلهمْ ﴿وَرَأَوْا الْعَذَاب وَتَقَطَّعَتْ﴾ عُطِفَ عَلَى تَبَرَّأَ ﴿بِهِمْ﴾ عَنْهُمْ ﴿الأَسْبَاب﴾ الْوَصْل الَّتِي كَانَتْ بَيْنهمْ فِي الدُّنْيَا مِنْ الأَرْحَام والمودة ﴿١٦٧﴾﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّة﴾ رجعة إلى الدنيا ﴿فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ﴾ أَيْ الْمَتْبُوعِينَ ﴿كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا﴾ اليوم. وجواب "إذ" ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ﴾ عاقبة ﴿أَعْمَالهمْ﴾ السَّيِّئَة ﴿حَسَرَات﴾ أي أسباب نَدَامَات ﴿عَلَيْهِمْ﴾ أي صارت أعمالهم الخبيثة أسباب حسرة عليهم يوم القيامة ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنَ النَّار﴾ بَعْد دُخُولهَا.

ومن شأن الرؤساء المضلين أن يضل أتباعهم في المآكل كما يضلونهم في المعتقدات. قال الله تعالى تحذيرا منه:

المبحث الثالث: العمل

يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلاَلاً طَيِّبًا وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٩﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ

الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾

ونزلت فيمن حرم السوائب ونحوها: ﴿١٦٨﴾﴿يَا أيها النَّاس كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْض حَلاَلاً طَيِّبًا﴾ والطيب هنا الحلال، فهو تأكيد لاختلاف اللفظ، وهذا قول مالك في الطيب. وقال الشافعي: "الطيب المستلذ، فهو تنويع، ولذلك يمنع أكل الحيوان القذر." قال الرازي: "الطيب في اللغة قد يكون بمعنى الطاهر والحلال. يوصف بأنه طيب، لأن الحرام يوصف بأنه خبيث قال تعالى: ﴿قل لا يستوي الخبيث والطيب﴾ (المائدة، ١٠٠/٥). والطيب في الأصل هو ما يستلذ به ويسطاب." وقال بعضهم: وقوله ﴿طَيِّبًا﴾ صفة مقررة ومؤكدة لمعنى يستفاد من قوله ﴿حَلالاً﴾، وهو طهارة المأكول، وخلوه من القذارة، وعدم إيقاعه في ضرر في العقول والأبدان. ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَات﴾ طُرُق ﴿الشَّيْطَان﴾ أي لا تقتدوا بآثار الشيطان فيما يزينه لكم من المعاصي والفواحش ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوّ مُبِين﴾ بَيِّن الْعَدَاوَة. ﴿١٦٩﴾﴿إِنَّمَا يَأْمُركُمْ بِالسُّوءِ﴾ أي كل ما يغضب الله تعالى من المعاصي؛ لأنها تسوء صاحبها وتحزنه في الحال أو المآل ﴿وَالْفَحْشَاء﴾ ما عظم قبحه من الأقوال والأفعال. قال النسفي: بالسوء بالقبيح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القبح من العظائم ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى الله مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ مِنْ تَحْرِيم مَا لَمْ يُحَرِّم وَغَيْره. ﴿١٧٠﴾﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ أَيْ الْكُفَّار ﴿اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ الله﴾ مِنَ التَّوْحِيد وَتَحْلِيل الطَّيِّبَات ﴿قَالُوا﴾ لاَ ﴿بَلْ نَتَّبِع مَا أَلْفَيْنَا﴾ وَجَدْنَا ﴿عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ مِنْ عِبَادَة الأَصْنَام، وَتَحْرِيم السَّوَائِب وَالْبَحَائِر. قال تعالى ﴿أ﴾ يتبعونهم ﴿ولو كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا﴾ مِنْ أَمْر الدين ﴿ولا يهتدون﴾ إلى الحق. والهمزة للإنكار. ﴿١٧١﴾﴿وَمَثَل﴾ صِفَة ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَمَنْ يَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴿كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ﴾ يَصِيحُ وَيُصَوِّتُ ﴿بِمَا لاَ يَسْمَع إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء﴾ قيل: الدعاء والنداء بمعنى واحد أى أن ثانيهما تأكيد للأول. وقيل: أولهما الصياح بالبهائم لتأتى. وثانيهما الصياح بها لتذهب. أَيْ لا يسمع إلا صَوْتًا وَلاَ يَفْهَم مَعْنَاهُ، إنهم فِي سَمَاع الْمَوْعِظَة وَعَدَم تَدَبُّرهَا كَالْبَهَائِمِ تَسْمَع صَوْت رَاعِيهَا وَلاَ تَفْهَمهُ. هُمْ ﴿صُمّ بُكْم عُمْي فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ الموعظة.

خاطب الناس عامةً بأن يأكلوا مما في الأرض حلالا طيبا، ثم وجه الخطاب إلى المؤمنين خاصةً؛ لأنهم أحق بالفهم، وأجدر بالعلم، وأحرى بالاهتداء، فقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧٣﴾

﴿١٧٢﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَات﴾ حَلاَلاَت ﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ﴾ وحده عَلَى خلق هذه النعم وإباحتها لكم ﴿إن كنتم إياه تعبدون﴾ ولا تجعلوا له أندادا ترجعون إليهم بالتحليل والتحريم. ﴿١٧٣﴾﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةَ﴾ أَيْ أَكْلهَا، وَهِيَ مَا لم يُذَكَّ شرعا. وَخُصَّ مِنْهَا السَّمَك وَالْجَرَاد بالسنة ﴿وَالدَّم﴾ أَيْ الْمَسْفُوح كَمَا فِي الأَنْعَام (الأنعام، ١٤٥/٦) ﴿وَلَحْم الْخِنْزِير﴾ خَصَّ اللحْم؛ لأَنَّهُ مُعْظَم الْمَقْصُود وَغَيْرُه تَبَع لَهُ ﴿وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللهِ﴾ أَيْ ذُبِحَ عَلَى اسْم غَيْره. وَالإِهْلاَل رَفْع الصَّوْت، وَكَانُوا يَرْفَعُونَهُ عِنْد الذَّبْح لآلِهَتِهِمْ ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ أَيْ أَلْجَأَتْهُ الضَّرُورَة إِلَى أَكْل شَيْء مِمَّا ذُكِرَ من المحرمات فَأَكَلَهُ ﴿غَيْر بَاغٍ﴾ غير طالب للمحرم وهو يجد غيره، أو غير طالب له لإشباع لذته. من البغاء، وهو الطلب ﴿وَلاَ عَادٍ﴾ متجاوز قدر الضرورة. من العداوة، وهو تجاوز الحد ﴿فَلاَ إِثْم عَلَيْهِ﴾ فِي الأَكْل من المحرمات؛ لأن الإلقاء بنفسه إلى التهلكة بالموت جوعا أشد ضررا ﴿إِنَّ اللهَ غَفُور﴾ لمن أكل من الحرام عند الضرورة ﴿رَحِيم﴾ به إذ رخص له في الحرام عند الاضطرار. قال القرطبي: "أي يغفر المعاصي، فأولى لا يؤاخذ بما رخص فيه، ومن رحمته أنه رخص." وفي هذه الآية دليل على القاعدتين المشهورتين: "الضرورات تبيح المحظورات" و "مَا أُبِيحَ لِلضَّرُورَةِ يَتَقَدَّرُ بِقَدْرِهَا."

والحرام من وجهة نوعان: شيء حرم ابتلاعه، وكسب حرم استعماله. في الأعلى ذكر الأول، وفي الأسفل يذكر الثاني:

إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾

﴿١٧٤﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ﴾ وَهُمُ الْيَهُود ﴿يَكْتُمُونَ﴾ بإخفاء الآيات أو التأويل الباطل، أوله للأمي والثاني للقاريء ﴿مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾ الْمُشْتَمِل عَلَى نُعُوت مُحَمَّد ﷺ أو الأحكام التي لا يحبونها ساداتهم ﴿وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ يعني أخذوا الرشاء. وسماه قليلا لانقطاع مدته وسوء عاقبته. يَأْخُذُونَ بَدَل كتمانهم مِنْ سَفَلَتهمْ، فَلاَ يُظْهِرُونَ ما يكتمون خَوْف فَوْته عَلَيْهِمْ ﴿أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ أي إنه حرام يعذبهم الله عليه بالنار. فسمي ما أكلوه من الرشاء نارا؛ لأنه يؤديهم إلى النار ﴿وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ غَضَبًا عَلَيْهِمْ ﴿وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرهُمْ مِنْ دَنَس الذُّنُوب ﴿وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم هُوَ النَّار. ﴿١٧٥﴾﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى﴾ أي استبدلوا الكفر بالإيمان ﴿وَالْعَذَاب بِالْمَغْفِرَةِ﴾ أي واستبدلوا الجحيم بالجنة ﴿فَمَا أَصْبَرهمْ عَلَى النَّار﴾ أي ما أشدَّ صبرهم على نار جهنم؟ وهو تعجيب للمؤمنين من جراءة أولئك الكفار على اقتراف أنواع المعاصي. ﴿١٧٦﴾﴿ذَلِكَ﴾ أي ذلك العذاب الأليم ﴿بِأَنَّ﴾ بِسَبَبِ أَنَّ ﴿اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ أي الله أنزل كتابه التوراة ببيان الحق فكتموا وحرّفوا ما فيه. ﴿وَ﴾ بسبب ﴿إِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ﴾ أي الذين اختلفوا في تأويله وتحريفه ﴿لَفِي شِقَاق﴾ خِلاف ﴿بَعِيد﴾ عن الحق والصواب. يعني سبب تعذيبهم شيئان: الكتمان والاختلاف.

المبحث الرابع: القاعدة العامة في الإيمان والعمل

لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى

وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

يا أهل الكتاب والمؤمنين! ﴿١٧٧﴾﴿لَيْسَ الْبِرّ﴾ البر اسم جامع للطاعات، وأعمال الخير المقربة إلى الله تعالى ﴿أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهكُمْ﴾ فِي الصَّلاَة ﴿قِبَل الْمَشْرِق وَالْمَغْرِب﴾ قال الرازي: "فكأنه تعالى قال: ليس البر المطلوب هو أمر القبلة، بل البر المطلوب هذه الخصال التي عدها." ذلك أن استقبال الجهة المعينة إنما شرع لأجل تذكير المصلي بالإعراض عن كل ما سوى الله تعالى في صلاته، وليكون شعارا لاجتماع الأمة. ﴿وَلَكِنَّ الْبِرّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلاَئِكَة وَالْكِتَاب وَالنَّبِيِّينَ﴾ أي ولكن البرَّ برُّ من آمن بالله، فحذف المضاف، وهو كثير في الكلام كقوله ﴿وأشربوا في قلوبهم العجل﴾ (البقرة، ٩٣/٢) أي حب العجل. والمراد بالكتاب الكتب أو القرآن. ولم يذكر الإيمان بالقدر هنا؛ لأنه في الأصل جزء من الإيمان بالله، وهو متعلق بعلمه وقدرته عز وجل ﴿وَآتَى الْمَال عَلَى حُبّه﴾ أي على حب الله، أو حب المال، أو حب الإيتاء، يريد أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه ﴿ذوي القربى﴾ القرابة ﴿واليتامى والمساكين وابن السَّبِيل﴾ الْمُسَافِر المنقطع عن ماله ﴿وَالسَّائِلِينَ﴾ المعونة بدافع الحاجة ﴿وَفِي﴾ فَكّ ﴿الرِّقَاب﴾ الْمُكَاتَبِينَ وَالأَسْرَى ﴿وَأَقَامَ الصَّلاَة وَآتَى الزَّكَاة﴾ الْمَفْرُوضَة، وَمَا قَبْله فِي التَّطَوُّع ﴿وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا﴾ الله أَوْ النَّاس ﴿وَالصَّابِرِينَ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَدْح ﴿فِي الْبَأْسَاء﴾ الْفَقْر ﴿وَالضَّرَّاء﴾ الْمَرَض ﴿وَحِين الْبَأْس﴾ وَقْت الْقِتَال فِي سَبِيل الله ﴿أُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذُكِرَ من الإيمان والعبادة والأخلاق ﴿الَّذِينَ صَدَقُوا﴾ فِي إِيمَانهمْ أَوْ ادِّعَاء الْبِرّ ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ المتقون﴾ حقًّا.

الفصل الثاني: التعليم الخاصة

المبحث الأول: حقوق العباد

المطلب الأول: القصاص

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾

﴿١٧٨﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمُ الْقِصَاص﴾ الْمُسَاواة. أي أن يفعل بالجاني مثل ما فعل بالمجني عليه ﴿فِي الْقَتْلَى﴾ جمع قتيل. أي في المقتولين. يُقْتَل ﴿الْحُرّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْد بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى﴾ قال الحنفية: "المراد به الرد علي ما كان يفعله بعض القبائل، من أنهم يأبون أن يقتلوا في عبدهم إلا حرا، وفي امرأتهم إلا رجلا، على ما جاء في حديث الشعبي، فأبطل ما كان من الظلم، وأكد فرض القصاص على القاتل دون غيره. فليس في الآية دلالة على أنه لا يقتل الحر بالعبد أو أنه لا يقتل الرجل بالمرأة." خلافا للجمهور في العبد. ويؤيد هذا قوله عز وجل: ﴿النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (المائدة، ٥/٤٥) ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ﴾ مِنَ الْقَاتِلِينَ ﴿مِنْ﴾ دَمِ أو دية ﴿أَخِيهِ﴾ الْمَقْتُولِ ﴿شَيْءٌ﴾ أي من قصاص، أو دية، أو بعض دية؛ لأنه تعالى قال في الدية: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾ (النساء، ٤/٩٢). وَفِي ذِكْرِ أَخِيهِ تَعَطُّف دَاعٍ إِلَى الْعَفْو، وَإِيذَان بِأَنَّ الْقَتْل لا يَقْطَع أُخُوَّة الإِيمَان. ﴿فَاتِّبَاع﴾ على الْعَافِي لِلْقَاتِلِ ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِأَنْ يُطَالِبهُ بِالدِّيَةِ بِلاَ عُنْف ﴿وَأَدَاء﴾ عَلَى الْقَاتِل الدِّيَة ﴿إِلَيْهِ﴾ أَيْ الْعَافِي، وَهُوَ الْوَارِث ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ بِلاَ مَطْل وَلاَ بَخْس. ﴿ذَلِكَ﴾ الحكم المذكور من العفو وأخذ الدية ﴿تَخْفِيف﴾ تَسْهِيل ﴿مِنْ رَبّكُمْ﴾ عَلَيْكُمْ ﴿وَرَحْمَة﴾ بِكُمْ حَيْثُ وَسَّعَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يُحَتِّم وَاحِدًا مِنْهُمَا كَمَا حَتَّمَ عَلَى الْيَهُود الْقِصَاص ﴿فَمَنْ اعْتَدَى بَعْد ذَلِكَ﴾ من الطرفين بالقتل أو البخس ﴿فَلَهُ عَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم فِي الآخِرَة بِالنَّارِ أَوْ فِي الدنيا بالمعاقبة. ﴿١٧٩﴾﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاص حَيَاة﴾ لأَنَّ الْقَاتِل إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ يُقْتَل ارْتَدَعَ فَأَحْيَا نَفْسه وَمَنْ أَرَادَ قَتْله ﴿يَا أُولِي الأَلْبَاب﴾ ذَوِي الْعُقُول الخالصة. والأَلْبابِ جمع لب، وهو العقل الخالص من

شوائب الأوهام، أو العقل الذكي الذي يستبين الحقائق بسرعة وفطنة، ويستخرج لطائف المعاني من مكامنها ببراعة وحسن تصرف. شَرَعَ الله لكم القصاص ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الْقَتْل مخافة القود.

المطلب الثاني: الوصية

لما ذكر أن لولي الدم أن يقتص، فيكون هذا الذي يقتص منه قد حضرته الوفاة، فكان له أن يوصي بما يوصيه، هذا أوان الوصية، فالآية مرتبطة بما قبلها ومتصلة بها، فلذلك سقطت واو العطف.

كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿١٨٠﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٨١﴾ فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨٢﴾

﴿١٨٠﴾﴿كُتِبَ﴾ فُرِضَ أو شُرِعَ ﴿عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ أي إذا دنا منه فظهرت أمارته ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ مَالاً ﴿الْوَصِيَّةُ﴾ مَرْفُوع بِـــ﴿كُتِبَ﴾. أَيْ فَلْيُوصِ ﴿لِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالعدل؛ بأن لا يزيد على الثلث، وألا يوصي للأغنياء ويترك الفقراء ﴿حَقًّا﴾ لازما. مَصْدَر مُؤَكِّد لِمَضْمُونِ الْجُمْلَة قَبْله ﴿عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وَهَذَا مَنْسُوخ بِآيَةِ الْمِيرَاث (النساء، ١١/٤) عند الجمهور. وَيدل عليه قوله ﷺ: "لاَ وَصِيَّة لِوَارِثٍ." (الترمذي، ٢١٢٠). قال أبو زهرة: "هذا ما عليه الجمهرة العظمى من الفقهاء. ولا يقال إن آية الميراث نسخت آية الوصية؛ لأنها بقيت شريعتها في غير الوارثين." ﴿١٨١﴾﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ﴾ أي من غيَّر هذه الوصية ﴿بعد ما سمعه﴾ بعد ما علمها من وصيّ أو شاهد ﴿فإنما إثمه﴾ أي إثم هذه التبديل ﴿عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ لأنهم خانوا وخالفوا حكم الشرع ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيع﴾ لِقَوْلِ الْمُوصِي ﴿عَلِيم﴾ بِفِعْلِ الْمبدل، فَمُجَازٍ عَلَيْهِ. ﴿١٨٢﴾﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ﴾ مُخَفَّفًا وَمُثَقَّلاً ﴿جَنَفًا﴾ مَيْلاً عَنِ الْحَقّ خَطَأً ﴿أَوْ

إِثْمًا﴾ بِأَنْ تَعَمَّدَ ذَلِكَ بِالزِّيَادَةِ عَلَى الثُّلُث أَوْ تَخْصِيص غني مثلا ﴿فأصلح بينهم﴾ بين الموصِي وَالْمُوصَى لَهُ بِالأَمْرِ بِالْعَدْلِ ﴿فَلاَ إِثْم عَلَيْهِ﴾ في ذلك ﴿إن الله غفور﴾ لمائل عن الحق في وصيته متى أصلحت وصيته ﴿رحيم﴾ بمصلح؛ لأنه أبطل الجور في الوصية.

المبحث الثاني: حقوق الله

ذكر الله تعالى في هذا الفصل بعض العبادات المؤقتة على ترتيب زمني؛ أولاً ذكر أحكام الصوم (رمضان)، ثم ميقات الحج (شوال)، ثم أحكام الجهاد (ذي القعدة –وهو من الأشهر الحرم التي ينهى فيها القتال–)، ثم أحكام الحج (ذي الحجة). والله أعلم!

المطلب الأول: العمل

الفرع الأول: الصوم

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٨٥﴾ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

﴿١٨٣﴾﴿يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمْ الصِّيَام كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ مِنَ الأُمَم ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الْمَعَاصِي؛ فَإِنَّهُ يَكْسِر الشَّهْوَة الَّتِي هي مبدؤها. ﴿١٨٤﴾﴿أَيَّامًا﴾ نُصِبَ بِـ﴿الصِّيَامِ﴾ أَوْ يَصُومُوا مُقَدَّرًا ﴿مَعْدُودَات﴾ مُؤَقَّتات بعدد معلوم. أي قلائل. وَهِيَ رَمَضَان كَمَا سَيَأْتِي. وَقَلَّلَهُ تَسْهِيلاً عَلَى الْمُكَلَّفِينَ ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ حِين شُهُوده ﴿مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَر﴾ أَيْ مُسَافِرًا سَفَر الْقَصْر وَأَجْهَدَهُ الصَّوْم فِي الْحَالَيْنِ فَأَفْطَرَ ﴿فَعِدَّة﴾ فَعَلَيْهِ عِدَّة مَا أَفْطَرَ ﴿مِنْ أَيَّام أُخَر﴾ يَصُومهَا بَدَله. ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ﴾ أي يصمومونه بعُسْرٍ ومشقةٍ لِكِبَرٍ أَوْ مَرَضٍ لاَ يُرْجَى بُرْؤُهُ. والعرب لا تقول: "فلان أطاق الشيء." إلا إذا كانت قدرته عليه في نهاية الضعف بحيث يتحمله بمشقة وعسر ﴿فِدْيَة﴾ هِيَ ﴿طَعَام مِسْكِين﴾ فـ﴿طعام﴾ بدل من ﴿فدية﴾. أَيْ قَدْر مَا يَأْكُلهُ فِي يَوْمه. وهو عند الحنفية نصف صاع من بر، أو صاع من غيره، أو بدله؛ وعند الجمهور مُدّ مِنْ غَالِب قُوت الْبَلَد لِكُلِّ يَوْم ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا﴾ أي فمن زاد على القدر المذكور في الفدية ﴿فَهُوَ﴾ أَيْ التَّطَوُّع ﴿خَيْر لَهُ﴾ للمُطِيقِينَ. وانظر إلى (البخاري، ٤٥٠٥) لرأي آخر. وقال لغير المطيقين: ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾ في السفر والمرض ﴿خَيْر لَكُمْ﴾ من الإِفْطَار ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ خَيْر لَكُمْ، فَافْعَلُوهُ. والأيام المعدودات التي فرضتها عليكم أيها المؤمنون هي: ﴿١٨٥﴾﴿شَهْر رَمَضَان الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآن﴾ أي ابتدأ فيه إنزاله فِي لَيْلَة الْقَدْر مِنْهُ ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ حَال، هَادِيًا لَهُمْ مِنَ الضَّلاَلَة ﴿وَبَيِّنَات مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَان﴾ على الحال، أي وهو آيات واضحات مكشوفات مما يهدي إلى الحق ويفرق بين الحق ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْر فَلْيَصُمْهُ﴾ أي فمن كان حاضرًا مقيمًا صحيحًا في الشهر فليصم فيه ولا يفطر ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَر فَعِدَّة مِنْ أَيَّام أُخَر﴾ تَقَدَّمَ مِثْله، وَكُرِّرَ لِئَلاَّ يُتَوَهَّم نَسْخُه بِتَعْمِيمِ ﴿مَنْ شَهِدَ﴾. وبذلك رخص لكم؛ لأنه ﴿يُرِيد اللهُ بِكُمْ الْيُسْر وَلاَ يُرِيد بِكُمْ الْعُسْر﴾ وَلِذَا أَبَاحَ لَكُمْ الْفِطْر فِي الْمَرَض وَالسَّفَر ﴿وَلِـ﴾أنه يريد أن ﴿تُكْمِلُوا الْعِدَّة﴾ أي عدة شهر رمضان بقضاء ما أفطرتم ﴿وَلِـ﴾أنه يريد أن ﴿تُكَبِّرُوا اللهَ﴾ بالقال والحال عِنْد

إِكْمَالِ العدة وفي مدة العمر. وفي هذه الآية إشارة إلى مشروعية التكبير في عيد الفطر ﴿عَلَى مَا هَدَاكُمْ﴾ أَرْشَدَكُمْ لِمَعَالِمِ دِينه، والرخص ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ أي ولأنه يريد أن تشكروا له على هذه النعم كلها. والجمل الأربع معطوف على قوله ﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ إذ هذه الجمل تعليل لما قبلها من قوله ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ إلى قوله ﴿فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾.

واعلم أنه تعالى لما أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر، عقبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم، سميع لأقوالهم، مجيب لدعائهم، مجازيهم على أعمالهم تأكيدًا له وحثًا عليه:

﴿١٨٦﴾﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ فأخبرهم ﴿فَإِنِّي قَرِيب﴾ عِلْمًا ﴿أجيب دعوة الداع إذا دعان﴾ متى صدر الدعاء من قلب سليم، ونفس صافية، وجوارح خاشعة بعين ما طلبه أو بغيره ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ دُعَائِي بِالطَّاعَةِ ﴿وليؤمنوا﴾ أي يداوموا على الإيمان ﴿بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ يَهْتَدُونَ.

ثم رجع الصوم فقال:

﴿١٨٧﴾﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَة الصِّيَام الرَّفَث﴾ الإفضاء ﴿إِلَى نِسَائِكُمْ﴾ بِالْجِمَاعِ. الرَّفَثُ كلام متضمّن لما يستقبح ذكره من ذكر الجماع ودواعيه، وجعل كناية عن الجماع. وكان بعض أصحاب النبي يرون الجماع والأكل والشرب بعد النوم حرام بالأمر أو الرأي. فنزلت هذه الآية ونسخت الأمر أو أبطلت الرأي ﴿هُنَّ لِبَاس لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاس لَهُنَّ﴾ كِنَايَة عَنْ تَعَانُقهمَا أَوْ احْتِيَاج كُلّ مِنْهُمَا إِلَى صَاحِبه؛ لأن كلا من الزوجين ستر للآخر وإحصان له ﴿عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ﴾ تَخُونُونَ ﴿أَنْفُسكُمْ﴾ بِالْجِمَاعِ لَيْلَة الصِّيَام. وَقَعَ ذَلِكَ لِعُمَرَ وَغَيْره (أحمد، ١٥٧٩٥)، وَاعْتَذَرُوا إِلَى النَّبِيّ ﷺ ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ﴾ أي فقبل توبتكم وعفا عنكم لما فعلتموه قبل ﴿فَالآن بَاشِرُوهُنَّ﴾ جَامِعُوهُنَّ إذ أحل لكم ﴿وَابْتَغُوا﴾ اُطْلُبُوا ﴿مَا كَتَبَ الله لَكُمْ﴾ أَيْ أَبَاحَهُ مِنَ الْجِمَاع

أَوْ قَدَّرَهُ مِنَ الْوَلَد ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ الليْل كُلّه ﴿حَتَّى يَتَبَيَّن﴾ يَظْهَر ﴿لَكُمْ الْخَيْط الأَبْيَض مِنَ الْخَيْط الأَسْوَد مِنَ الْفَجْر﴾ أَيْ الفجر الصَّادِق. بَيَان لِلْخَيْطِ الأَبْيَض، وَبَيَان الأَسْوَد مَحْذُوف وهو الليْل. ﴿ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَام﴾ مِنْ طُلوع الْفَجْر ﴿إِلَى اللَّيْل﴾ إِلَى غُرُوب الشَّمْس. ﴿وَلاَ تُبَاشِرُوهُنَّ﴾ أَيْ نِسَاءَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ﴾ مُقِيمُونَ بِنِيَّةِ الاعتكاف ﴿فِي المساجد﴾ نَهْي لِمَنْ كَانَ يَخْرُج وَهُوَ مُعْتَكِف فَيُجَامِع امْرَأَته وَيَعُود. ﴿تِلْكَ﴾ الأَحْكَام الْمَذْكُورَة ﴿حُدُود اللهِ﴾ حَدَّهَا لِعِبَادِهِ لِيَقِفُوا عِنْدهَا ﴿فَلاَ تَقْرَبُوهَا﴾ هو أَبْلَغ مِنْ ﴿فلا تَعْتَدُوهَا﴾ (البقرة، ٢/٢٢٩)، و "فلا تفعلوها"؛ لأن القربان، يشمل النهي عن فعل المحرم بنفسه، والنهي عن وسائله الموصلة إليه. ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّن اللهُ آيَاته﴾ أي شرائعه ﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ مَحَارِمه.

والحرام من وجهة نوعان: شيء حرم زمنيًّا، وشيء حرم أبديًّا. في الأعلى ذكر الأول، وفي الأسفل يذكر الثاني:

وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾

﴿١٨٨﴾﴿وَلاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ أي لا يأكل بعضكم أموال بعض بالوجه الذي لم يبحه اللهُ كَالسَّرِقَةِ، وَالْغَصْب، والربا ﴿و﴾ لاَ ﴿تُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّام﴾ أي لا تدفعوها إلى الحكام رشوة ﴿لِتَأْكُلُوا﴾ بِالتَّحَاكُمِ ﴿فَرِيقًا﴾ قطعةً ﴿مِنْ أَمْوَال النَّاس﴾ مُتَلَبِّسِينَ ﴿بِالإِثْمِ﴾ بشهادة الزور، أو بالأيمان الكاذبة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّكُمْ مُبْطِلُونَ تأكلون الحرام. وفي الآية كأنه يقال كذا: "اجتنب عن أكل الحرام في المعاملات كما تجتنب عن أكل الحلال في الصوم أو أشد منه."

الفرع الثاني: الحج

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ

﴿١٨٩﴾

﴿١٨٩﴾﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿عَنِ الأَهِلَّةِ﴾ جَمْع هِلاَل. وهو اسم كوكب يدور حول الدنيا في أوّل ليلتيه، ثم يقال له القمر. وقيل له هلال؛ لأن الناس يرفعون أصواتهم بالإخبار عنه عند رؤيته. والقمر يظهر دَقِيقًا، ثُمَّ يَزِيد حَتَّى يَمْتَلِئ نُورًا، ثُمَّ يَعُود كَمَا بَدَأ، وَلاَ يَكُون عَلَى حَالَة وَاحِدَة كَالشَّمْسِ. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿هِيَ مَوَاقِيت﴾ جَمْع مِيقَات بمعنى الوقت. وهو الوقت الذي قدر لعمل من الأعمال. وقيل: الميقات منتهى الوقت ﴿لِلنَّاسِ﴾ يَعْلَمُونَ بِهَا أَوْقَات زَرْعهمْ وَمَتَاجِرهمْ، وَعِدَد نِسَائِهِمْ، وَصِيَامهمْ وَإِفْطَارهمْ ﴿وَالْحَجّ﴾ عُطِفَ عَلَى النَّاس. أَيْ يَعْلَمون بِهَا وَقْته فَلَوْ اسْتَمَرَّتْ عَلَى حَالَة لَمْ يَعْرِفوا ذَلِكَ. ﴿وليس البر أن تَأْتُوا الْبُيُوت مِنْ ظُهُورهَا﴾ أي ليس البر بدخولكم المنازل من ظهورها على وجه التطير كما كنتم تفعلون في الجاهلية إذا كنتم محرمين. وَكَانُوا يَفْعَلُونَ ذَلِكَ وَيَزْعُمُونَهُ بِرًّا ﴿وَلَكِنَّ الْبِرّ﴾ بِرُّ ﴿مَنْ اتَّقَى﴾ اللهَ بِتَرْكِ مُخَالَفَته ﴿وَأْتُوا الْبُيُوت مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ فِي الإِحْرَام ﴿وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ تَفُوزُونَ.

الفرع الثالث: الجهاد

ولما صد ﷺ عَنِ الْبَيْت عَام الْحُدَيْبِيَة، وَصَالَحَ الْكُفَّار عَلَى أَنْ يَعُود الْعَام القابل، وَتَجَهَّزَ لِعُمْرَةِ الْقَضَاء، وَخَافُوا أَنْ لاَ تَفِي قُرَيْش وَيُقَاتِلُوهُمْ، وَكَرِهَ الْمُسْلِمُونَ قِتَالهمْ فِي الْحَرَم وَالإِحْرَام وَالشَّهْر الْحَرَام نَزَلَ الآيات الآتية. فهي متصلة بما قبلها كما فهمت!

وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ

مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾

﴿١٩٠﴾﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أَيْ لإِعْلاَءِ دِينه ﴿الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ الْكُفَّار ﴿وَلاَ تَعْتَدُوا﴾ عَلَيْهِمْ بابتداء القتال، أو بقتال من نهيتم عنه من النساء والشيوخ ونحوهما، أو بالمثلة ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبّ الْمُعْتَدِينَ﴾ الْمُتَجَاوِزِينَ مَا حَدّ لَهُمْ. أمر ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ لحالة مخصوصة وليست بمنسوخة. وقيل: مَنْسُوخة بِآيَةِ بَرَاءَة أَوْ بِقَوْلِهِ: ﴿١٩١﴾﴿وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ﴾ وَجَدْتُمُوهُمْ ﴿وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ﴾ أَيْ مِنْ مَكَّة. وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ عَام الْفَتْح ﴿وَالْفِتْنَة﴾ والفتنة في الأصل مصدر من فَتَنَ، يقال: فتن الصائغُ الذهبَ والفضةَ إذا أذابهما بالنار ليستخرج الزائف منهم. ثم استعملت في الابتلاء والامتحان والصرف عن الشيء. وأكثر استعمالها في التضليل، والصد عن الدين، ثم على الكفر. ﴿أَشَدّ مِنَ الْقَتْل﴾ أي صد المؤمن عن دينه أشدُّ من قتله، أو كفر الكفار أشد من قتلهم في الحرم ﴿وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِنْد الْمَسْجِد الْحَرَام﴾ أَيْ فِي الْحَرَم ﴿حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ﴾ فِيهِ ﴿فَإِنْ قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ﴾ فِيهِ. ﴿كَذَلِكَ﴾ الْقَتْل وَالإِخْرَاج ﴿جزاء الكافرين﴾ بسبب ظلمهم. ﴿١٩٢﴾﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ عَنِ الْكُفْر وَأَسْلَمُوا ﴿فَإِنَّ اللهَ غَفُور﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيم﴾ بِهِمْ. ﴿١٩٣﴾﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُون﴾ تُوجَد ﴿فِتْنَة﴾ صد أو كفر ﴿وَيَكُون الدِّين لِلَّهِ﴾ أي يُعْبد الله وَحْده لاَ يُعْبَد سِوَاهُ، أو يُصبح دين الله هو الظاهر العالي على سائر الأديان ﴿فَإِنْ انْتَهَوْا﴾ عَنِ الشِّرْك أو الظلم فَلاَ تَعْتَدُوا عَلَيْهِمْ. دَلَّ عَلَى هَذَا ﴿فَلاَ عُدْوَان﴾ اعْتِدَاء بِقَتْلٍ أَوْ غَيْره ﴿إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ وَمَنْ انْتَهَى فَلَيْسَ بِظَالِمٍ، فَلاَ عُدْوَان عَلَيْهِ. ﴿١٩٤﴾﴿الشَّهْر الْحَرَام بِالشَّهْرِ الْحَرَام﴾ فيه ما يسمى بحذف الإيجاز. تقديره: هتك حرمة الشهر الحرام تقابَل بهتك حرمة الشهر الحرام. أي فَكُلَّمَا قاتلوكم فيه قاتلوهم فِيه ﴿وَالْحُرُمَات﴾ جَمْع حُرْمَة مَا يَجب احْتِرَامه ﴿قِصَاص﴾ أَيْ يَقْتَصّ بِمِثْلِهَا إِذَا انْتُهِكَتْ. ﴿فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ بِالْقِتَالِ فِي الْحَرَم، أَوْ الإِحْرَام، أَوْ الشَّهْر الْحَرَام ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى

عَلَيْكُمْ﴾ سَمَّى مُقَابَلَته اعْتِدَاء لِشَبَهِهَا بِالْمُقَابِلِ بِهِ فِي الصُّورَة ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ أى افعلوا ما أمركم الله به، واجتنبوا ما نهاكم عنه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْر. ﴿١٩٥﴾﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أي أنفقوا في الجهاد وفي سائر وجوه القربات ﴿وَلاَ تُلْقُوا﴾ أَنْفُسكُمْ ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ بِالإِمْسَاكِ عَنِ النَّفَقَة فِي الْجِهَاد أَوْ تَرْكه ﴿إِلَى التَّهْلُكَة﴾ الْهَلاك؛ لأَنَّهُ يُقَوِّي الْعَدُوّ عَلَيْكُمْ. هذه الآية نزلت في ترك الجهاد (الترمذي، ٢٩٧٢). ﴿وَأَحْسِنُوا﴾ الإنفاق، والجهاد، وَغَيْرِهَا. أي أحسنوا كل أعمالكم وأتقنوها، فلا تهملوا إتقان شيء منها ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ﴾ في كل شئونهم، ويثيبهم على ذلك بما يسعدهم في دينهم ودنياهم.

الفرع الرابع: الحج

هذا البحث تتمة البحث السابق؛ لأن أحمد روى عن كعب أنه قال: كنا مع النّبي ﷺ بالحديبية، ونحن محرمون، وقد حصر المشركون، وكانت لي وفرة، فجعلت الهوام تسّاقط على وجهي، فمرّ بي النّبي ﷺ، فقال: "أيؤذيك هوام رأسك؟" فأمره أن يحلق، قال: ونزلت هذه الآية: ﴿فَمَنْ كانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ بِهِ أَذىً مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾. (أحمد، ١٨١٠١)

وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ

﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ وَاذْكُرُوا اللهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٠٣﴾

﴿١٩٦﴾﴿وَأَتِمُّوا الْحَجّ وَالْعُمْرَة لِلَّهِ﴾ أي أدوهما تامين أو أتموهما بعد الشروع كما في الحديبية. وجب القضاء على من أحصر بعدو أو مرض إذا حل منهما بالهدي في رأي الحنفية. وقال مالك والشافعي: إن أحصر المحرم بعدو فحلّ فلا قضاء عليه في الحج ولا العمرة. ﴿فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ﴾ مُنِعْتُمْ عَنْ إتْمَامهَا بِعَدُوّ. وقال الحنفية: "وبمرض وغيره أيضًا." ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ تَيَسَّرَ ﴿مِنَ الْهَدْي﴾ من بدنة أو بقرةٍ أو شاة عَلَيْكُمْ ﴿وَلاَ تحلقوا رؤوسكم﴾ أو تقصروا ﴿حَتَّى يَبْلُغ الْهَدْي﴾ الْمَذْكُور ﴿مَحِلّه﴾ المحل اسم للزمان والمكان. فقال الشافعي: "المحل في هذه الآية اسم للزمان الذي يحصل فيه التحلل، ولذلك يذبح الهدي في مكان الإحصار." وقال أبو حنيفة: "إنه اسم للمكان، يذبح الهدي في الحرم فقط." فيذبح عند الجمهور متى شاء ويحل. وقال أبو يوسف ومحمد: "لا يذبح الهدي قبل يوم النحر." بعد الذبح والحلق يَحْصُل التَّحَلُّل. ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسه﴾ كَقَمْلٍ وَصُدَاع فَحَلَقَ فِي الإِحْرَام ﴿فَفِدْيَة﴾ عَلَيْهِ ﴿مِنْ صِيَام﴾ ثَلاَثَة أَيَّام ﴿أَوْ صَدَقَة﴾ بِثَلاَثَةِ أَصْوُع عَلَى سِتَّة مَسَاكِين لكل مسكين نصف صاع من بر أو مِنْ غَالِب قُوت الْبَلَد ﴿أَوْ نُسُك﴾ جمع نسيكة. أي ذبحُ شاة ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ أي كنتم آمنين من أول الأمر، أو صرتم بعد الإحصار آمنين ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجّ﴾ واستمتاعه بالعمرة إلى وقت الحج انتفاعه بالتقرب بها إلى الله قبل انتفاعه بالتقرب بالحج. وقيل: إذا حل من عمرته انتفع باستباحة ما كان

محرمًا عليه إلى أن يُحرم بالحج ﴿فَمَا اسْتَيْسَرَ﴾ تَيَسَّرَ ﴿مِنَ الْهَدْيِ﴾ عَلَيْهِ. وَهُوَ شَاة يَذْبَحهَا بَعْد الإِحْرَام، وَالأَفْضَل يَوْم النَّحْر ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِد﴾ الْهَدْي لِفَقْدِهِ أَوْ فَقْد ثَمَنه ﴿فَصِيَام﴾ أَيْ فَعَلَيْهِ صِيَام ﴿ثَلاَثَة أَيَّام فِي الْحَجّ﴾ فعليه صيام ثلاثة أيام بين الإحرامين: إحرام العمرة وإحرام الحج ﴿وَسَبْعَة إِذَا رَجَعْتُمْ﴾ إِلَى وَطَنكُمْ أو إذا فَرَغْتُمْ مِنْ أَعْمَال الْحَجّ حيث شئتم ﴿تِلْكَ عَشَرَة كَامِلَة﴾ جُمْلَة تَأْكِيد لِمَا قَبْلهَا. ﴿ذَلِكَ﴾ الْحُكْم الْمَذْكُور مِنْ وُجُوب الْهَدْي أَوِ الصِّيَام عَلَى مَنْ تَمَتَّعَ ﴿لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْله حَاضِرِي الْمَسْجِد الْحَرَام﴾ أى ذلك التمتع إنما هو للشخص الذي ليس أهله من المقيمين في مكة وما حولها، لأن المقيمين في مكة وما حولها يُفْردون ولا يجمعون، إذ العمرة في إمكانهم أن يؤدوها طول أيام السنة. واختلف العلماء في حاضري المسجد الحرام؛ فقال الحنفية: "هم أهل المواقيت ومن دونها من كل ناحية." وقال المالكية: "هم أهل مكة وما اتصل بها خاصة." وقال الشافعية والحنابلة: "هم أهل الحرم ومن بينه وبين مكة دون مسافة القصر (٨٩ كم)." ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ فِيمَا يَأْمُركُمْ بِهِ وَيَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ شَدِيد الْعِقَاب﴾ لِمَنْ خَالَفَهُ. ﴿١٩٧﴾ ﴿الْحَجّ﴾ أي وَقْت الحج ﴿أَشْهُر مَعْلُومَات﴾ عند الناس. وهي شَوَّال، وَذُو الْقَعْدَة، وَعَشْر لَيَالٍ مِنْ ذِي الْحِجَّة عند الجمهور. وَقال مالك: "هي شوال، وذو القعدة، وذو الحجة كُلّه." ﴿فَمَنْ فَرَضَ﴾ ألزم عَلَى نَفْسه ﴿فِيهِنَّ﴾ في هذه الأشهر ﴿الْحَجّ﴾ بِالإِحْرَامِ ﴿فَلاَ رَفَث﴾ الرفث هو الجماع ومقدماته الفعلية والقولية ﴿وَلاَ فُسُوق﴾ عصيان على الله ﴿وَلاَ جِدَال﴾ منازعة مع الرفقاء ﴿فِي الْحَجّ﴾ أي أثنائه. ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْر﴾ كَصَدَقَةٍ ﴿يَعْلَمهُ اللهُ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. وفيه التفات إلى الخطاب، ويشعر العطف بمحذوف تقديره: أن اتركوا هذه الأمور الممنوعة في الحج لتزكية نفوسكم، وحُلُّوها بعد ذلك بفعل الخير لتتم لكم تزكيتها، فإن النفوس بعد ذلك تكون أشد استعدادا للاتصاف بالخير، والله لا يضيع عليكم أقل شيء من أعمالكم. كَانَ أَهْلُ اليَمَنِ يَحُجُّونَ وَلاَ يَتَزَوَّدُونَ، وَيَقُولُونَ: "نَحْنُ المُتَوَكِّلُونَ." فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. (البخاري،

١٥٢٣) ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾ مَا يُبَلِّغكُمْ لِسَفَرِكُمْ، ولا تَنْسَوا ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ أي تزودوا لآخرتكم بالتقوى، ومنه الاجتناب عن سؤال الناس ﴿وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الأَلْبَابِ﴾ ذَوِي الْعُقُول الخالصة. أمر الله عز جل الاستعداد المعنوية للحج بـــ﴿فلا رفث... يعلمه اللهُ﴾، والاستعداد المادية له بـــ﴿وَتَزَوَّدُوا﴾، وأكد الأول بـــ﴿فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾. كَانَتْ عُكَاظُ، وَمَجَنَّةُ، وَذُو المَجَازِ أَسْوَاقًا فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَتَأَثَّمُوا أَنْ يَتَّجِرُوا فِي المَوَاسِمِ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ﴾ فِي مَوَاسِمِ الحَجِّ. (البخاري، ٤٥١٩). ﴿١٩٨﴾﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ فِي ﴿أَنْ تَبْتَغُوا﴾ تَطْلُبُوا ﴿فَضْلاً﴾ رِزْقًا ﴿مِنْ رَبِّكُمْ﴾ بِالتِّجَارَةِ فِي الْحَجّ. ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ﴾ دَفَعْتُمْ بكثرة. من إفاضة الماء، وهو صبه بكثرة ﴿مِنْ عَرَفَاتٍ﴾ بَعْد الْوُقُوف بِهَا ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ بَعْد الْمَبِيت بِمُزْدَلِفَةَ بِالتَّلْبِيَةِ، وَالتَّهْلِيل، وَالدُّعَاء ﴿عِنْد الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ هُوَ جَبَل فِي آخِر الْمُزْدَلِفَة يُقَال لَهُ قُزَح. وَفِي الْحَدِيث؛ أَنَّهُ ﷺ أتى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، و لم يسبح بينهما شيئا، ثم اضطجع رسول الله ﷺ حتى طلع الفجر، وصلى الفجر، حين تبين له الصبح، بأذان وإقامة، ثم ركب القصواء، حتى أتى المشعر الحرام، فاستقبل القبلة، فدعاه وكبره وهلله ووحده، فلم يزل واقفا حتى أسفر جدا، فدفع قبل أن تطلع الشمس. (مسلم، ١٢١٨) ﴿وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ﴾ أى اذكروه ذكرًا حسنًا كما هداكم هداية حسنة بتعليم مَعَالِم دِينه وَمَنَاسِك حَجّه. وَالْكَاف لِلتَّعْلِيلِ ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ﴾ قَبْل هُدَاهُ ﴿لمن الضالين﴾ الجاهلين بالإيمان والشريعة. ﴿١٩٩﴾﴿ثُمَّ﴾ يا قريش! ﴿أَفِيضُوا﴾ أيضًا ﴿مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ﴾ أي انزلوا من عرفة حيث ينزل الناس، لا من المزدلفة، كانوا يترفعون على الناس أن يقفوا معهم وكانوا يقولون: "نحن أهل الله وسُكّان حرمه، فلا نخرج منه." فيقفون في المزدلفة؛ لأنها من الحرم، ثم يفيضون منها، وكانوا يسمون "الحُمْس"، فأمر الله تعالى رسول الله ﷺ أن يأتي عرفة ثم يقف بها ثم يفيض منها. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ﴾ من مخالفتكم في الموقف ونحو ذلك من جاهليتكم ﴿إِنَّ اللهَ غَفُورٌ﴾ لِلْمُستغفرين ﴿رَحِيمٌ﴾ بهم. ﴿٢٠٠﴾﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ﴾ أَدَّيْتُمْ ﴿مَنَاسِكَكُمْ﴾

عِبَادَات حَجّكُمْ بِأَنْ رَمَيْتُمْ جَمْرَة الْعَقَبَة وَطُفْتُمْ وَاسْتَقْرَرْتُمْ بِمِنًى ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ بِالتَّكْبِيرِ وَالثَّنَاء ﴿كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ﴾ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ بِمنى عِنْد فَرَاغ حَجّكُمْ بِالْمُفَاخَرَةِ فِي الجاهلية أو واذكروا الله كذكر الأطفال آباءهم: "أبه أبه." أي فاستغيثوا به والجئوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم ﴿أَوْ أَشَدّ ذِكْرًا﴾ مِنْ ذِكْرِكُمْ إيَّاهُمْ. ﴿فَمِنَ النَّاس مَنْ يَقُول رَبّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا﴾ نَصْرًا وَرِزْقًا، وَلا يَسْأَلُ لآخِرَتِهِ شَيْئًا، ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ (آل عمران، ١٤٥/٣) ﴿وَمَا لَهُ فِي الآخِرَة مِنْ خلاق﴾ نصيب. ﴿٢٠١﴾﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُول رَبّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَة﴾ نعمة وعافية أو علماً وعبادة ﴿وَفِي الآخِرَة حَسَنَة﴾ عفوًا ومغفرةً، أو المال والجنة، أو ثناء الخلق ورضا الحق، بل كلها ﴿وَقِنَا عَذَاب النَّار﴾ احفظنا من عذاب جهنم. وَهَذَا بَيَان لِمَا كَانَ عَلَيْهِ الْمُشْرِكُونَ وَلِحَالِ الْمُؤْمِنِينَ. وَالْقَصْد بِهِ الْحَثّ عَلَى طَلَب خَيْر الدَّارَيْنِ كَمَا وَعَدَ بِالثَّوَابِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ: ﴿٢٠٢﴾﴿أولئك لهم نصيب﴾ حظ وثواب ﴿من﴾ أجل ﴿ما كسبوا﴾ عملوا من الْحَجّ وَالدُّعَاء. ولم يقل: "ما طلبوا." والمعنى أنهم لما كانوا يطلبون الدنيا بأسبابها ويسعون للآخرة سعيها، كان لهم حظ من كسبهم هذا في الدارين على قدره ﴿وَاللهُ سَرِيع الْحِسَاب﴾ سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم أو سريع المجازاة للعباد بأعمالهم؛ لأنه عالم بما للعباد وعليهم، فلا يحتاج إلى تذكر وتأمل. ﴿٢٠٣﴾﴿وَاذْكُرُوا اللهَ﴾ بِالتَّكْبِيرِ في أدبار الصلوات وعِنْد رَمْي الْجَمَرَات ﴿فِي أَيَّام مَعْدُودَات﴾ أَيْ أَيَّام التَّشْرِيق الثَّلاثَة. ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ﴾ أَيْ اسْتَعْجَلَ بِالنَّفْرِ مِنْ مِنًى ﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ أَيْ فِي ثَانِي أَيَّام التَّشْرِيق بَعْد رَمْي جمَاره فلم يمكث حتى يرمي في اليوم الثالث ﴿فَلاَ إِثْم عَلَيْهِ﴾ بِالتَّعْجِيلِ ﴿وَمَنْ تَأَخَّرَ﴾ بِهَا حَتَّى بَاتَ لَيْلَة الثَّالِث وَرَمَى جمَاره ﴿فَلاَ إِثْم عَلَيْهِ﴾ بِذَلِكَ. أَيْ هُمْ مُخَيَّرُونَ فِي ذَلِكَ. وَنَفْي الإِثْم ﴿لِمَنْ اتَّقَى﴾ أي ما ذكر من الأحكام لمن أراد أن يتقي الله فيأتي بالحج على الوجه الأكمل ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء بعد الإحياء. وأصل الحشر الجمع وضم المتفرق.

المطلب الثاني: الإيمان

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة العبادات التي تُطهرّ القلوب، وتزكّي النفوس كالصيام، والجهاد، والحج، وذكر أن في الناس من يطلب الدنيا ولا غاية له وراءها، ومنهم من تكون غايته نيل رضوان الله تبارك وتعالى، أعقبها بذكر نموذج عن الفريقين: فريق الضلالة الذي باع نفسه للشيطان، وفريق الهدى الذي باع نفسه للرحمن. ثم حذَّر تبارك وتعالى من اتباع خطوات الشيطان، وبيَّن لنا عداوته الشديدة.

وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾

﴿٢٠٤﴾﴿وَمِنَ النَّاس مَنْ يُعْجِبك قَوْله فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾ ومن الناس فريق يعجبك قولهم إذا ما تكلموا في شئون الدنيا ومتاعها؛ لأنها منتهى آمالهم، ومبلغ علمهم، وأصل حبهم، ومن أحب شيئا أجاد التعبير عنه. أما الآخرة فهم لا يحسنون القول فيها؛ لأنهم لا يهتمون بها، بل هم غافلون عنها، ومن شأن الغافل عن شيء ألا يحسن القول فيه. ﴿وَيُشْهِد الله عَلَى مَا فِي قَلْبه﴾ أَنَّهُ مُوَافِق لِقَوْلِهِ ﴿وَهُوَ أَلَدّ الْخِصَام﴾ شَدِيد الْخُصُومَة لَك وَلأَتْبَاعِك لِعَدَاوَتِهِ لَك. ﴿٢٠٥﴾﴿وَإِذَا تَوَلَّى﴾ انْصَرَفَ عَنْك ﴿سَعَى﴾ مَشَى ﴿فِي الأَرْض لِيُفْسِد فِيهَا﴾ ومِنْ جُمْلَة الْفَسَاد ﴿وَيُهْلِك الْحَرْث﴾ الزرع، أو المرأة ﴿وَالنَّسْل﴾ الحيوانات أو الذريات. أي يفسد الزرع والضرع يعني يسعى ليفسد اقتصاد المسلمين وصحتهم، أو يفسد المرأة والذرية يعني يسعى ليفسد أخلاق المسلمين ومجتمعهم. والأصح جمعهما. أي يسعى ليفسد اقتصاد المسلمين، وصحتهم، وأخلاقهم، وبالنتيجة مجتمعهم. ومنه "الكائنات الْمُعَدَّلَة وِرَاثِيًّا" (gdo)، و"بدون جنس" (cinsiyetsizlik) ﴿وَالله لاَ يُحِبّ الْفَسَاد﴾ أَيْ لاَ يَرْضَى بِهِ. ﴿٢٠٦﴾﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ

اتَّقِ اللهَ﴾ فِي فِعْلك ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّة﴾ حَمَلَتْهُ الأَنَفَة والتعصب وَالْحَمِيَّة عَلَى الْعَمَل ﴿بِالإِثْمِ﴾ الَّذِي أُمِرَ بِاتِّقَائِهِ ﴿فَحَسْبه﴾ كَافِيه ﴿جَهَنَّم وَلَبِئْسَ الْمِهَاد﴾ الْفِرَاش هِيَ.

﴿٢٠٧﴾﴿وَمِنَ النَّاس مَنْ يَشْرِي﴾ يَبِيع ﴿نَفْسه﴾ أَيْ يبذلها في طاعة الله ﴿ابتغاء﴾ طلب ﴿مرضات الله﴾ رِضَاهُ ﴿وَالله رؤوف بِالْعِبَادِ﴾ حيث أثابهم على ذلك.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٢٠٨﴾ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٠٩﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢١٠﴾ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢١١﴾ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾

﴿٢٠٨﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والخطاب للمؤمنين، أو للمنافقين لأنهم آمنوا بألسنتهم، أو لأهل الكتاب لأنهم آمنوا بنبيهم وكتابهم، أو للمشركين لأنهم آمنوا بالله وإبراهيم ﷺ، أو لجميعهم ﴿ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ﴾ -بِفَتْحِ السِّين وَكَسْرهَا- أي الإِسْلاَم ﴿كَافَّة﴾ حَال مِنَ السِّلْم أو حال من فاعل ادخلوا. أَيْ فِي جَمِيع شَرَائِعه أو جميعكم. ﴿وَلاَ تَتَّبِعُوا خُطُوَات﴾ طُرُق ﴿الشَّيْطَان﴾ أَيْ تَزْيِينه بِالتَّفْرِيقِ ﴿إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوّ مُبِين﴾ بَيِّن الْعَدَاوَة. ﴿٢٠٩﴾﴿فَإِنْ زَلَلْتُمْ﴾ مِلْتُمْ عَنِ الدُّخُول في السلم أو فِي جَمِيعه ﴿مِنْ بَعْد مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَات﴾ الْحُجَج الظَّاهِرَة على أنه حق ﴿فَاعْلَمُوا أَنَّ الله عَزِيز﴾ لاَ يُعْجِزهُ شَيْء عَنِ انْتِقَامه مِنْكُمْ ﴿حَكِيم﴾ فِي دعوته إلى الوحدة. ﴿٢١٠﴾﴿هَلْ﴾ مَا ﴿يَنْظُرُونَ﴾ يَنْتَظِر التَّارِكُونَ الدُّخُول فِيهِ أو في جميعه ﴿إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ الله﴾ أَيْ أَمْره كَقَوْلِهِ ﴿أَوْ يَأْتِي أَمْر رَبّك﴾ (النحل، ١٦/٣٣). أَيْ عَذَابه ﴿فِي ظُلَل﴾ جَمْع ظُلَّة ﴿مِنَ الْغَمَام﴾ السَّحَاب الأبيض الرقيق ﴿وَالْمَلاَئِكَة﴾ معه، ﴿وَقُضِيَ الأَمْر﴾ تَمَّ أَمْر هَلاَكهمْ ﴿وَإِلَى الله تُرْجَع الأُمُور﴾ فِي الآخِرَة فَيُجَازِي كُلاًّ بِعَمَلِهِ. ﴿٢١١﴾﴿سَلْ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿بَنِي

إِسْرَائِيل﴾ تَوبيخًا ﴿كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَة بَيِّنَة﴾ ظَاهِرَة كَفَلْقِ الْبَحْر، وَإِنْزَال الْمَنّ وَالسَّلْوَى، فَبَدَّلُوهَا كُفْرًا ﴿وَمَنْ يُبَدِّل نِعْمَة اللهِ﴾ أَيْ مَا أَنْعَمَ بِهِ عَلَيْهِ مِن الآيَات لأَنَّهَا سَبَب الْهِدَايَة ﴿مِنْ بَعْد مَا جَاءَتْهُ﴾ كُفْرًا ﴿فَإِنَّ اللهَ شَدِيد الْعِقَاب﴾ لَهُ. ﴿٢١٢﴾﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ اليهود أو المشركين ﴿الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾ بِالتَّمْوِيهِ فَأَحَبُّوهَا ﴿و﴾ هُمْ ﴿يَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ لِفَقْرِهِمْ كَبِلاَلٍ وَعَمَّار وَصُهَيْب. ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الكفر والشِّرْك ﴿فَوْقَهُمْ يَوْم الْقِيَامَة وَاللهُ يَرْزُق مَنْ يَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب﴾ أَيْ رِزْقًا وَاسِعًا فِي الآخِرَة أَوْ الدُّنْيَا بِأَنْ يَمْلِك الْمَسْخُور مِنْهُمْ أَمْوَال السَّاخِرِينَ وَرِقَابهمْ.

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية المتقدمة أن سبب إصرار هؤلاء الكفار على كفرهم هو حب الدنيا، بين في الآية الآتية أن هذا المعنى غير مختص بهذا الزمان، بل كان حاصلا في الأزمنة المتقادمة، لأن الناس كانوا أمة واحدة قائمة على الحق ثم اختلفوا، وما كان اختلافهم إلا بسبب البغي والتحاسد والتنازع في طلب الدنيا.

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾

﴿٢١٣﴾﴿كَانَ النَّاس أُمَّة وَاحِدَة﴾ في زمن آدم ﷺ. أي كانوا على الإيمان والفطرة المستقيمة ثم اختلفوا وتنازعوا ﴿فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ﴾ إِلَيْهِمْ ﴿مُبَشِّرِينَ﴾ مَنْ آمَنَ بِالْجَنَّةِ ﴿وَمُنْذِرِينَ﴾ مَنْ كَفَرَ بِالنَّارِ ﴿وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَاب﴾ بِمَعْنَى الْكُتُب ﴿بِالْحَقِّ﴾ بتبيان الحق ﴿لِيَحْكُم﴾ بِهِ ﴿بَيْن النَّاس فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ مِنَ الحق. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ﴾ في زمن محمد ﷺ ﴿فِيهِ﴾ في الحق ﴿إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ الْكِتَاب. أي وما اختلف في الحق إلا الذين أوتوا الكتاب مع أنه كان المقصود من إنزال الكتاب أن لا يختلفوا وأن يرفعوا

المنازعة في الدين ﴿مِنْ بَعْد مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَات﴾ الْحُجَج الظَّاهِرَة الدالة على الحق ﴿بَغْيًا بَيْنهمْ﴾ أي حسدًا بينهم وظلمًا لحرصهم على الدنيا وقلة إنصاف منهم. والمراد بالذين اختلفوا فيه أهل الكتاب اليهود والنصارى، واختلافهم في الكتاب يشمل تصديقهم ببعضه وتكذيبهم بالبعض الآخر، كما يشمل اختلافهم في تفسيره وتأويله وتنفيذ أحكامه وعدم تنفيذها، وذهاب كل فريق منهم مذهبا يخالف مذهب الآخر في أصول الشرع لا في فروعه. ﴿فَهَدَى الله الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ﴾ لِلْبَيَانِ ﴿الْحَقّ بِإِذْنِهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿وَالله يَهْدِي مَنْ يَشَاء﴾ هِدَايَته ﴿إِلَى صِرَاط مُسْتَقِيم﴾ طَرِيق الْحَقّ. ونزل في جهد أصاب المسلمين. ﴿٢١٤﴾﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ أظننتم أيها المؤمنون ﴿أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّة﴾ بمجرد الإيمان ﴿وَلَمَّا﴾ لَمْ ﴿يَأْتِكُمْ مَثَل﴾ شِبْه مَا أَتَى ﴿الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلكُمْ﴾ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْمِحَن، فَتَصْبِرُوا كَمَا صَبَرُوا ﴿مَسَّتْهُمْ﴾ جُمْلَة مُسْتَأْنَفَة مُبَيِّنَة مَا قَبْلهَا ﴿الْبَأْسَاء﴾ الْفَقْر ﴿وَالضَّرَّاء﴾ الْمَرَض ﴿وَزُلْزِلُوا﴾ أُزْعِجُوا بِأَنْوَاعِ الْبَلَاء ﴿حَتَّى يَقُول الرَّسُول وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ اسْتِبْطَاء للنصر للتناهي الشدة عليهم ﴿مَتَى﴾ يَأْتِي ﴿نَصْر الله﴾ الَّذِي وُعِدْنَاهُ فَأُجِيبُوا مِنْ قِبَل الله ﴿أَلاَ إِنَّ نَصْر الله قريب﴾ إتيانه، فاصبروا. عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: شَكَوْنَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لَهُ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ فَقُلْنَا: "أَلاَ تَسْتَنْصِرُ لَنَا أَلاَ تَدْعُو لَنَا؟" فَقَالَ: "قَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ، يُؤْخَذُ الرَّجُلُ فَيُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ فَيُجْعَلُ نِصْفَيْنِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ، فَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَاللهِ لَيَتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرُ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ، لاَ يَخَافُ إِلاَّ اللهَ، وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ." (البخاري، ٦٩٤٣).

المطلب الثالث: مسائل شتى

اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بالغ في بيان أنه يجب على كل مكلف أن يكون معرضا عن طلب العاجل، وأن يكون مشتغلا بطلب الآجل، وأن يكون بحيث يبذل النفس والمال في ذلك شرع بعد ذلك في بيان الأحكام؛ لأن من عادة القرآن أن يكون بيان

التوحيد وبيان الوعظ والنصيحة وبيان الأحكام مختلطا بعضها بالبعض، ليكون كل واحد منها مقويا للآخر ومؤكدا له.

يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

﴿٢١٥﴾﴿يسألونك﴾ يا محمد! ﴿ماذا ينفقون﴾ وقد نزلت لّما سأل بعض الصحابة عَمَّا يُنْفِق وَعَلَى مَنْ يُنْفِق؟ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾ هذا يتضمن كونه حلالاً مشروعًا؛ إذ لا يسمى ما عداه خيرا ﴿فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى والمساكين وابن السَّبِيل﴾ المسافر الغريب الذي انقطع عن بلده وأهله. أَيْ هُمْ أَوْلَى بِهِ ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ إنْفَاق أَوْ غَيْره ﴿فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيم﴾ فَمُجَازٍ عَلَيْهِ.

كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللهِ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢١٨﴾

﴿٢١٦﴾﴿كُتِبَ﴾ فُرِضَ ﴿عَلَيْكُمْ الْقِتَال﴾ لِلْكُفَّارِ ﴿وَهُوَ كُرْه﴾ مكروه ﴿لكم﴾ طَبْعًا لِمَشَقَّتِهِ ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْر لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرّ لَكُمْ﴾ لِمَيْلِ النَّفْس إلَى الشَّهَوَات الْمُوجِبَة لِهَلاكِهَا، وَنُفُورهَا عَنِ التَّكْلِيفَات الْمُوجِبَة لِسَعَادَتِهَا. فَلَعَلَّ لَكُمْ فِي الْقِتَال وَإِنْ كَرِهْتُمُوهُ خَيْرًا؛ لأَنَّ فِيهِ إمَّا الظَّفَر وَالْغَنِيمَة، أَوْ الشَّهَادَة وَالأَجْر، أو الأَمْن والرَّدْع. وَفِي تَرْكه وَإِنْ أَحْبَبْتُمُوهُ شَرًّا؛ لأَنَّ فِيهِ الذُّلّ

والأَسْر، أو حِرْمَان الأَجْر وعذاب الله ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ مَا هُوَ خَيْر لَكُمْ ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ، فَبَادِرُوا إلى ما يأمركم به. ﴿٢١٧﴾﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الْمُحَرَّم ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بَدَل اشْتِمَال. في سبب نزول هذه الآية قولان: الأول: إن النبي ﷺ أرسل أَوَّل سَرَايَاهُ وَعَلَيْهَا عَبْد الله بْن جَحْش في السنة الثانية بعد الهجرة، فقاتلوا المشركين، وقتلوا ابن الحضرمي أخِر يوم من جمادى الآخر، وَالْتَبَسَ عَلَيْهِمْ بِرَجَبٍ، فَعَيَّرَهُم الْكُفَّار بِاسْتِحْلاَلِهِ فَنَزَلَت هذه الآية. هذا قول أكثر المفسرين. والثاني: لما سافر النبي ﷺ إلى الحديبية في الشهر الحرام يحتمل أن يسأل: "إن هجم المشركين هل يجوز القتال بهم؟" فنزلت. وهو أنسب للسياق. والله أعلم! ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿قِتَالٍ فِيهِ﴾ بدون سبب مشروع ﴿كَبِيرٍ﴾ عَظِيم وِزْرًا. قال بعضهم: "نسخت بآية القتال." وقال بعضهم: "ليست بمنسوخة." وهو أصح القولين؛ لأن النبي ﷺ قال في حجة الوداع: "السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ: ثَلاَثَةٌ مُتَوَالِيَاتٌ: ذُو القَعْدَةِ، وَذُو الحِجَّةِ، وَالمُحَرَّمُ، وَرَجَبُ مُضَرَ، الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ." (البخاري، ٤٤٠٦). والله أعلم! ﴿وَصَدٌّ﴾ مَنْع لِلنَّاسِ ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ دِينه ﴿وَكُفْرٌ بِهِ﴾ بالله ﴿وصد عن المسجد الْحَرَامِ﴾ أَيْ مَكَّة ﴿وَإِخْرَاجُ أَهْلِه مِنْهُ﴾ وَهُمُ النَّبِيّ ﷺ وَالْمُؤْمِنُونَ ﴿أَكْبَرُ﴾ أَعْظَم وِزْرًا ﴿عِنْدَ اللهِ﴾ مِنَ الْقِتَال فِيهِ. ﴿وَالْفِتْنَةُ﴾ الصد عن الدين أو الكفر ﴿أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي صد المؤمن عن دينه أشدُّ من قتله، أو كفر الكفار أشد من قتلهم في الحرم. ﴿وَلاَ يَزَالُونَ﴾ أَيْ الْكُفَّار ﴿يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿حَتَّى﴾ كَيْ ﴿يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ﴾ إِلَى الْكُفْر ﴿إِنْ اسْتَطَاعُوا﴾ استبعاد لا ستطاعتهم ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِه فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَالُهُمْ﴾ الصَّالِحَة ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ لما يفوتهم بالردة مما للمسلمين في الدنيا من ثمرات الإسلام، وفي الآخرة من الثواب وحسن المآب ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها. قال النسفي: "وبها احتج الشافعي رحمه الله على أن الردة لا تحبط العمل حتى يموت عليها. وقلنا: قد علق الحبط بنفس الردة بقوله تعالى ﴿وَمَن يَكْفُرْ بالإيمان فَقَدْ حبط عمله﴾

(المائدة، ٥/٥). والأصل عندنا أن المطلق لا يحمل على المقيد، وعنده يحمل عليه، فهو بناء على هذا." ﴿٢١٨﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ فَارَقُوا أَوْطَانَهمْ ﴿وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ لإِعْلاءِ دِينه ﴿أُولَئِكَ يَرْجُونَ رحمت اللهِ﴾ ثَوَابه ولو قاتلوا في الأشهر الحرم ﴿وَاللهُ غَفُور﴾ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿رَحِيم﴾ بِهِمْ.

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلاَحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾

﴿٢١٩﴾﴿يسألونك عن الخمر والميسر﴾ القمار ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فِيهِمَا﴾ أَيْ فِي تَعَاطِيهِمَا ﴿إِثْم كَبِير﴾ عَظِيم لِمَا يَحْصُل بِسَبَبِهِمَا مِنْ الْمُخَاصَمَة وَالْمُشَاتَمَة وَقَوْل الْفُحْش ﴿وَمَنَافِع لِلنَّاسِ﴾ بِاللذَّةِ وَالْفَرَح فِي الْخَمْر، وَإِصَابَة الْمَال بِلاَ كَدٍّ فِي الْمَيْسِر ﴿وَإِثْمهمَا﴾ أَيْ مَا يَنْشَأ عَنْهُمَا مِنَ الْمَفَاسِد ﴿أَكْبَر﴾ أَعْظَم ﴿مِنْ نَفْعهمَا﴾ وَلَمَّا نَزَلَتْ هذه الآية شَرِبَهَا قَوْم وَامْتَنَعَ عَنْهَا آخرون إلى أَنْ حَرَّمَتْهَا آية الْمَائِدَة (٥/٩٠). ﴿وَيَسْأَلُونك مَاذَا يُنْفِقُونَ﴾ أَيْ مَا قَدْره؟ ﴿قُلْ﴾ أَنْفِقُوا ﴿الْعَفْو﴾ أَيْ الْفَاضِل عَنْ الْحَاجَة، وَلاَ تُنْفِقُوا مَا تَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ وَتُضَيِّعُوا أَنْفُسكُمْ. ﴿كَذَلِكَ يبين الله لكم الآيات﴾ الدالات على الحق في المنافع والمَضَارّ، والحلال والحرام ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ ﴿٢٢٠﴾﴿فِي﴾ أَمْر ﴿الدُّنْيَا وَالآخِرَة﴾ فَتَأْخُذُونَ بِالأَصْلَحِ لَكُمْ فِيهِمَا، أو لكي تتفكروا في الدنيا وفنائها فترفضوها، وفي الآخرة وبقائها فتعمروها. ﴿وَيَسْأَلُونَك عَنِ الْيَتَامَى﴾ وَمَا يَلْقَوْنَهُ مِنَ الْحَرَج فِي شَأْنهمْ؛ فَإِنْ وَاكَلُوهُمْ يَأْثَمُوا، وَإِنْ عَزَلُوا مَا لَهُمْ مِنْ أَمْوَالهمْ وَصَنَعُوا لَهُمْ طَعَامًا وَحْدهمْ فَحَرَجٌ ﴿قُلْ إِصْلاَح لَهُمْ﴾ فِي أموالهم بتنميتها ومداخلتكم ﴿خَيْر﴾ مِنْ تَرْك ذَلِكَ ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ﴾ أَيْ تَخْلِطُوا نَفَقَتكُمْ بِنَفَقَتِهِمْ على وجه لا يضر باليتامى ﴿فَإِخْوَانكُمْ﴾ أَيْ فَهُمْ إِخْوَانكُمْ فِي الدِّين. وَمِنْ شَأْن الأَخ أَنْ يُخَالِط

أَخَاهُ، فَلَكُمْ ذَلِكَ. والمرجع في ذلك إلى النية والعمل ﴿وَاللهُ يَعْلَم الْمُفْسِد﴾ لأَمْوَالِهِمْ بِمُخَالَطَتِهِ ﴿مِنَ الْمُصْلِح﴾ بِهَا فَيُجَازِي كُلاًّ مِنْهُمَا ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ لأَعْنَتَكُمْ﴾ لَضَيَّقَ عَلَيْكُمْ بِتَحْرِيمِ الْمُخَالَطَة ﴿إِنَّ اللهَ عَزِيز﴾ غَالِب عَلَى أَمْرِه، ولكنه مع ذلك ﴿حَكِيم﴾ فِي صُنْعِه، لا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته الكاملة وعنايته التامة، فعزته لا تنافي حكمته.

المبحث الثالث: حقوق العباد

المطلب الأول: النكاح

الفرع الأول: النكاح الحقوقي

وَلاَ تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلاَ تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾

أَيُّهَا الْمُؤمنون! ﴿٢٢١﴾﴿وَلاَ تَنْكِحُوا﴾ تَتَزَوَّجُوا ﴿الْمُشْرِكَات﴾ هَذَا الحكم مَخْصُوص بِغَيْرِ الْكِتَابِيَّات بِآيَةِ: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ... وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة، ٥/٥) ﴿حَتَّى يُؤْمِنَّ﴾ ما تؤمنون كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ﴾ (البقرة، ٢/١٣٧). ﴿وَلأَمَة﴾ جارية ﴿مُؤْمِنَة خَيْر مِنْ مُشْرِكَة﴾ حُرَّة ﴿وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ لِجَمَالِهَا وَمَالِهَا. ﴿وَلاَ تُنْكِحُوا﴾ تُزَوِّجُوا الْمُؤْمِنَات بـــ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيْ الْكُفَّار. هذا الحكم عام غير مخصوص؛ لعموم قوله تعالى: ﴿لاَ هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلاَ هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة، ٦٠/١٠) ﴿حَتَّى يُؤْمِنُوا﴾ ما تؤمنون. ﴿وَلَعَبْد مُؤْمِن خَيْر مِنْ مُشْرِك وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ لِمَالِهِ وَجَمَاله ﴿أُولَئِكَ﴾ أَيْ أَهْل الشِّرْك ﴿يَدْعُونَ إِلَى النَّار﴾ بِدُعَائِهِمْ إِلَى الْعَمَل الْمُوجِب لَهَا، فَلاَ تَلِيق مُنَاكَحَتهمْ ﴿وَاللهُ يَدْعُو﴾ عَلَى لِسَان رُسُله ﴿إِلَى الْجَنَّة وَالْمَغْفِرَة﴾ أَيْ

الْعَمَل الْمُوجب لَهُمَا ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ، فَتَجب إجَابَته بِتَزْوِيجِ أَوْلِيَائِهِ ﴿وَيُبَيِّن آياته لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يتذكرون﴾ يتعظون فيستقيمون. أي يوضح حججه وأدلته للناس ليتذكروا فيميزوا بين الخير والشر، والخبيث والطيب.

الفرع الثاني: النكاح الحقيقي

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

﴿٢٢٢﴾﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ﴾ أَيْ يَسْأَلُونَك عن إتيان النساء في وقت الحيض أيحل أم يحرم؟ الحيض الدّم الخارج من الرّحم على وصف مخصوص في وقت مخصوص. وأصل الحيض السيلان. والْمَحِيض الحيض، ووقت الحيض، وموضعه. ﴿قُلْ هُوَ أَذًى﴾ أي الحيض شيء مستقذر، ومعاشرتهن في وقت الحيض أذى للزوجين ﴿فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ﴾ اُتْرُكُوا وَطْأَهُنَّ ﴿فِي الْمَحِيضِ﴾ أَيْ في وقت الحيض ﴿وَلاَ تَقْرَبُوهُنَّ﴾ بِالْجِمَاعِ ﴿حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾ أي ينقطع دمهن. وقرأ بعضهم ﴿يَطَّهَّرْنَ﴾ أَيْ يَغْتَسِلْنَ بَعْد انْقِطَاعه ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ بِالْجِمَاعِ ﴿مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمْ اللهُ﴾ أي في المكان الذي أحله الله لكم، أو في المكان الذي أمر بتَجَنُّبِهِ فِي الْحَيْض، وهو القُبُل لا الدبر ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبّ﴾ يُثِيب وَيُكْرِم ﴿التَّوَّابِينَ﴾ مِنَ الذُّنُوب ﴿وَيُحِبّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ مِنَ الأَقْذَار، والأحداث، والمنكر. كَانَتِ اليَهُودُ تَقُولُ: "إِذَا جَامَعَهَا مِنْ وَرَائِهَا جَاءَ الوَلَدُ أَحْوَلَ." فَنَزَلَتْ (البخاري، ٤٥٢٨): ﴿٢٢٣﴾﴿نِسَاؤُكُمْ حَرْث لَكُمْ﴾ أَيْ مَحَلّ زَرْعكُمْ الْوَلَد ﴿فَأْتُوا حَرْثكُمْ﴾ أَيْ مَحَلّه وَهُوَ الْقُبُل ﴿أَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿شِئْتُمْ﴾ مِنْ قِيَام، وَقُعُود، وَاضْطِجَاع، وَإِقْبَال، وَإِدْبَار. ﴿وَقَدِّمُوا لأَنْفُسكُمْ﴾ من ولد صالح. ولا يكون الولد صالحا إلا إذا أحسن والداه تربيته، فالأمر بالتقديم للنفس يتضمن الأمر باختيار المرأة الودود الولود التي تعين الرجل على تربية ولده بحسن خلقها وعملها، كما يختار الزراعة في الأرض

الصالحة التي يرجى نماء النبات فيها وإيتاؤه الغلة الجيدة، ويتضمن الأمر بحسن تربية الولد وتهذيبه. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ اخشوا الله في إدبار النساء ومجامعتهن في الحيض، وإهمال تربية الولد ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلاَقُوهُ﴾ بِالْبَعْثِ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ ﴿وَبَشِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الَّذِينَ اتَّقَوْهُ بِالْجَنَّةِ.

المطلب الثاني: الطلاق

الفرع الأول: الأيمان

وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٤﴾ لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٢٥﴾

﴿٢٢٤﴾﴿وَلاَ تَجْعَلُوا اللهَ﴾ أي الحلف بالله ﴿عُرْضَةَ﴾ مَانِعًا أو هدفًا ﴿لأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ﴾ على الأول: لا تجعلوه مانعا لما حلفتم على تركه من الخير بأن يقول أحدكم: "قد حلفتُ بالله ألاّ أفعله وأريد أن أبرّ بيميني." بل افعلوا الخير وكفّروا عن أيمانكم. وبعض الناس كان إذا دعي إلى فعل الخير وهو لا يريد أن يفعله يقول: "حلفت بالله ألا أفعله." فنهاهم الله تعالى عن سلوك هذا الطريق. وعلى الثاني: لا تجعلوا اسم الله تعالى هدفا لأيمانكم، فتبتذلوه بكثرة الحلف به في كل حق وباطل، وذلك لأجل البر والتقوى والإصلاح بين الناس، فإن من شأن الذي يكثر الحلف أن تقل ثقة الناس به وبأيمانه. ﴿وَاللهُ سَمِيعٌ﴾ لأيمانكم ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتكم. ﴿٢٢٥﴾﴿لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللغْوِ﴾ الْكَائِن ﴿فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ اللغو الساقط الذي لا يعتد به من كلام وغيره. ولغو اليمين الساقط الذي لا يعتد به في الأيمان. وهو أن يحلف على شيء يظنه على ما حلف عليه والأمر بخلافه. وعند الشافعي: "هو ما يجري على لسانه من غير قصد للحلف نحو: لا والله، وبلى والله." فَلاَ إِثْم عَلَيْهِ، وَلاَ كَفَّارَة ﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أَيْ قَصَدَتْهُ قلوبكم وتَعَمَّدت مِنَ الأَيْمَان كما في اليمين المنعقدة

واليمين الغموس. ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لِصاحب يمين اللغْو ﴿حليم﴾ بتأخير العقوبة عن مستحقها كما عن صاحب اليمين الغموس.

الفرع الثاني: الإيلاء

لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاءُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾

بعد بيان الأحكام في الأيمان العامة انتقل إلى حكم اليمين الخاصة فقال: ﴿٢٢٦﴾﴿للذين يؤولون مِنْ نسَائِهِمْ﴾ أَيْ يَحْلِفُونَ أَنْ لاَ يُجَامِعُوهُنَّ ﴿تَرَبُّص﴾ انْتِظَار ﴿أَرْبَعَة أَشْهُر فَإِنْ فَاءُوا﴾ رَجَعُوا فِيهَا عَنِ الْيَمِين إِلَى الْوَطْء ﴿فإن الله غَفُور﴾ لَهُمْ مَا أَتَوْهُ مِنْ ضَرَر الْمَرْأَة بِالْحَلِفِ ﴿رَحِيم﴾ بِهِمْ. ﴿٢٢٧﴾﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاَق﴾ بِأَنْ لاَ يَفِيئُوا ﴿فَإِنَّ الله سَمِيع﴾ لِقَوْلِهِمْ ﴿عَلِيم﴾ بِعَزْمِهِمْ. فقال الحنفية: "الفيء يكون قبل مضي المدة، فإذا مضت الأربعة الأشهر بدون فيئة وقع الطلاق طلاقا بائنا." وقال الجمهور: "لا يقع الطلاق بمجرد مضي المدة، فإن مضى الأجل لا يقع به طلاق، وإنما ترفع المرأة الأمر إلى القاضي، فإما فاء وإما طلّق، أي إن الطلاق يقع بتطليق الزوج، أو القاضي إذا لم يطلق." ومنشأ الخلاف اختلافهم في تأويل آية: ﴿فَإِنْ فاؤُ فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ. وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلاقَ فَإِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فرأى الحنفية: "إن فاءوا في هذه الأشهر، فإن الله غفور رحيم لما أقدموا عليه من الحلف على الإضرار بالزوجة، حنثوا في أيمانهم، ولزمتهم الكفارة، وسقط الإيلاء. وإن لم يفيئوا في هذه الأشهر، واستمروا في أيمانهم، كان ذلك عزما منهم على الطلاق، ويقع الطلاق بحكم الشرع بائنا." والمعنى عند الجمهور: "للذين يحلفون يمين الإيلاء انتظار أربعة أشهر، فإن فاءوا بعد انقضاء المدة، فإن الله غفور رحيم، وإن قصدوا إيقاع الطلاق، فإن الله سميع لطلاقهم، عليم بما يصدر عنهم من خير أو شرّ، فيجازيهم عليه." والله أعلم!

الفرع الثالث: الطلاق وعدته

وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلاَثَةَ قُرُوءٍ وَلاَ يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلاَحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾

﴿٢٢٨﴾﴿والمطلقات﴾ المدخول بهن من ذوات الأقراء ﴿يتربصن﴾ أي لينتظرن ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ عَنِ النِّكَاح ﴿ثَلاَثَة قُرُوء﴾ قُرُوءٍ جمع قُرْء، ويطلق في كلام العرب على الطهر وعلى الحيض حقيقة، فهو من ألفاظ الأضداد. وأصل القرء الاجتماع، وسمي الطهر قرء لاجتماع الدم في البدن، وسمي الحيض قرء لاجتماع الدم في الرحم. فقال الحنفية والحنابلة: "المراد بالقرء الحيض." وقال المالكية والشافعية: "المراد به الطهر." يبدأ التربص عند الأولين بالحيض الآتي بعد الطلاق، وعند الآخرين بالطهر الذي وقع الطلاق فيه. وَالآيِسَة وَالصَّغِيرَة ﴿فَعِدَّتهنَّ ثَلاَثَة أَشْهُر﴾، وَالْحَوَامِل فَعِدَّتهنَّ ﴿أَنْ يَضَعْنَ حَمْلهنَّ﴾ (الطلاق، ٤/٦٥)، والمتوفى عنها زوجها فعدتها ﴿أربعة أشهر وعشرا﴾ (البقرة، ٢٣٤/٢)، الا الحوامل فعدتها وضع الحمل أيضا. أما غير المدخول بهن فلا عدة عليهم لِقَوْلِهِ ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّة﴾ (الأحزاب، ٤٩/٣٣). ﴿وَلاَ يَحِلّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فِي أَرْحَامهنَّ﴾ مِنَ حَبْل وَحَيْض وطهر؛ من حبل لكي ينسبنه إلى غير أبيه، أو من حيض أو طهر لكي تطول العدة، ويمتد الإنفاق من الأزواج عليهن ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لأن من آمن بالله وبعقابه لا يجترئ على مثله من العظائم. ﴿وَبُعُولَتهنَّ﴾ أَزْوَاجهنَّ ﴿أَحَقّ بِرَدِّهِنَّ﴾ برجعتهن فِي الطَّلاق الرَّجْعِيّ ﴿فِي ذَلِكَ﴾ أَيْ فِي زَمَن التَّرَبُّص ﴿إِنْ أَرَادُوا﴾ بالرجعة ﴿إِصْلاَحًا﴾ لما بينهم وبينهن، وإحسانًا إليهن، ولم يريدوا بهن كيدا، وأذى، ومضارة. ﴿وَلَهُنَّ﴾ عَلَى الأَزْوَاج ﴿مِثْل الَّذِي﴾ لَهُمْ ﴿عَلَيْهِنَّ﴾ مِنَ الْحُقُوق ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شَرْعًا مِنْ حُسْن الْعِشْرَة، وَتَرْك الإِضْرَار، وَنَحْو ذَلِكَ. ﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَة﴾ هي درجة الرياسة والقوامة على المصالح المفسرة بقوله تعالى: ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما

أنفقوا من أموالهم﴾ (النساء، ٣٤/٤). فهي درجة تكليفٍ لا تشريف لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات، ١٣/٤٩). ومعنى الآية أنه لأجل ما جعل الله للرجال من الدرجة عليهن في الاقتدار كانوا مندوبين إلى أن يوفوا من حقوقهن أكثر، فكان ذكر ذلك كالتهديد للرجال في الإقدام على مضارتهن وإيذائهن. ﴿وَاللهُ عَزِيزٌ﴾ أي غالب في انتقامه ممن عصاه ﴿حَكِيمٌ﴾ في أمره، وشرعه، وسائر ما يكلف به عباده.

الطَّلاَقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلاَ يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئًا إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

﴿٢٢٩﴾﴿الطَّلاَق﴾ الرجعي ﴿مَرَّتَانِ﴾ أَيْ اثْنَتَانِ، وليس للرجل بعد كل واحد منهما إلا ﴿فَإِمْسَاك﴾ المرأة بأن يراجعها ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحسن معاشرة ﴿أَوْ تَسْرِيح﴾ المرأة بأن لا يراجعها ﴿بِإِحْسَانٍ﴾ بحيث لا يظلمها من حقها شيئًا، ولا يذكرها بسوء، ولا ينفّر الناس عنها ﴿وَلاَ يَحِلّ لَكُمْ﴾ أَيّهَا الأَزْوَاج ﴿أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾ مِنَ الْمُهُور ﴿شَيْئًا﴾ إِذَا طَلَّقْتُمُوهُنَّ ﴿إِلاَّ أَنْ يَخَافَا﴾ أي الزوجان ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ أَيْ أَنْ لاَ يَأْتِيَا بِمَا حَدَّهُ لَهُمَا مِنَ الْحُقُوق، ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ أيها الأزواج أو القضاة ﴿أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللهِ﴾ فاصطلحا على الخلع ﴿فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ أَيْ عَلَى الزَّوْج فِي أَخْذه، وَعلى الزَّوْجَة فِي بَذْله ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ نَفْسهَا مِنَ الْمَال لِيُطَلِّقهَا. ﴿تِلْكَ﴾ الأَحْكَام الْمَذْكُورَة ﴿حُدُودُ اللهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا﴾ فلا تجاوزوها بالمخالفة ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الضارون أنفسهم. ﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ الزَّوْج بَعْد الثِّنْتَيْنِ ﴿فَلاَ تَحِلّ لَهُ مِنْ بَعْد﴾ الطَلاق الثَّالِثَة ﴿حَتَّى تَنْكِح﴾ الزوجة ﴿زَوْجًا غَيْره﴾ وَيَطَأهَا كَمَا جاء فِي الْحَدِيث (البخاري، ٢٦٣٩). ﴿٢٣٠﴾﴿فَإِنْ طَلَّقَهَا﴾ أَيْ الزَّوْج الثَّانِي ﴿فَلاَ جُنَاح

عَلَيْهِمَا﴾ أَيْ الزَّوْجَة وَالزَّوْج الأَوَّل ﴿أَنْ يَتَرَاجَعَا﴾ إِلَى النِّكَاح بَعْد انْقِضَاء الْعِدَّة ﴿إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُود اللهِ﴾ إن كان في ظنهما أنهما يقيمان حقوق الزوجية. و لم يقل: "إن علما أنهما يقيمان"؛ لأن اليقين مُغَيَّب عنهما، لا يعلمه إلا الله. ﴿وَتِلْكَ﴾ الْمَذْكُورَات ﴿حُدُودُ اللهِ يُبَيِّنهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ أن أمر الله حقّ، ويعملون بمقتضى العلم.

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

﴿٢٣١﴾﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمْ النِّسَاء فَبَلَغْنَ أَجَلهنَّ﴾ قَارَبْنَ انْقِضَاء عِدَّتهنَّ أو انقضت عدتهن ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ بِأَنْ تُرَاجِعُوهُنَّ أو بنكاح جديد ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ مِنْ غَيْر ضَرَر ﴿أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ اُتْرُكُوهُنَّ حَتَّى تَنْقَضِي عِدَّتهنَّ أو أرسلوهن إلى بيوت آبائهن ﴿وَلاَ تُمْسِكُوهُنَّ﴾ بِالرَّجْعَةِ أو النكاح ﴿ضِرَارًا﴾ مَفْعُول لأَجْلِهِ ﴿لِتَعْتَدُوا﴾ عَلَيْهِنَّ بِالإِلْجَاءِ إِلَى الخلع، وَالتَّطْلِيق الجديد، وَالعدة الجديدة ﴿وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسه﴾ بِتَعْرِيضِهَا إِلَى عَذَاب الله. ﴿وَلاَ تَتَّخِذُوا آيَات الله هزوا﴾ مهزوءا بها بمخالفتها ﴿واذكروا نعمت الله عَلَيْكُمْ﴾ بالإسلام، والزواج، والمودة، والسعادة، وسائر النعم. أي اذكروها، واشكروها، واعملوا بموجبها. ومن نعم الله الكبيرة أن يضع الرحمة والمودة بين الزوجين كما أشار إليه في هذه الآية: ﴿وَمِنْ آياتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْواجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْها، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ (الروم، ٢١/٣٠). إذًا اذكروا أيامكم السعيدة في مدة الزواج فلا تضروها ﴿وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَاب﴾ الْقُرْآن

﴿وَالْحِكْمَةِ﴾ والسنة ﴿يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ أي ليرشدكم بهما إلى استقرار الحياة الزوجية، وتحقيق السعادة والهناءة، وغير ذلك مما فيه مصلحة ومنفعة وبِأَنْ تَشْكُرُوهَا بِالْعَمَلِ بِهِ. في هذه الآية إرشاد إلى الحق بالعقل والنقل. ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ بامتثال أمره، واجتناب نهيه، وترك احتقار المرأة، واتّخاذها مجرد متاع، وتطليقها لأتْفَه الأسباب، ومضارّتها بالمراجعة، وجعلها كالمعلّقة. وهذا ما يفعله الجهّال والطّائشون اليوم. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وبما عملتم من تعدي حدوده وتضييع أوامره، فيجازيكم على ما عملتم. ﴿٢٣٢﴾﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ انْقَضَتْ عِدَّتهنَّ ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ﴾ خِطَاب لِلأَوْلِيَاءِ. أَيْ فلا تَمْنَعُوهُنَّ مِنْ ﴿أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجهنَّ﴾ الْمُطَلِّقِينَ لَهُنَّ إذا صلحت الأحوال بين الزوجين، وظهرت أمارات الندم، ورضي كل منهما إلى العودة لصاحبه؛ لأَنَّ سَبَب نُزُولِهَا أَنَّ أُخْت مَعْقِل بْن يَسَار طَلَّقَهَا زَوْجُهَا، فَتَرَكَهَا حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، فَخَطَبَهَا، فَأَبَى مَعْقِلٌ، فَنَزَلَتْ: ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ (البخاري، ٤٥٢٩) ﴿إِذَا تَرَاضَوْا﴾ أَيْ الأَزْوَاج وَالزوْجَات ﴿بَيْنهمْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ شَرْعًا ﴿ذَلِكَ﴾ النَّهْي عَنِ الْعَضْل. و لم يقل ﴿ذلِكُمْ﴾؛ لأنه محمول على معنى الجمع ﴿يُوعَظ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِن بِاللهِ وَالْيَوْم الآخِرِ﴾ لأَنَّهُ الْمُنْتَفِع بالمواعظ الشرعية. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أَيْ تَرْك الْعَضْل. ﴿أَزْكَى﴾ أعظم بركة ونفعا ﴿لَكُمْ﴾ ولهم ﴿وَأَطْهَرُ﴾ أكثر تطهيرا من دنس الآثام. أي أطهر لأعراضكم وأنسابكم، وأحفظ لشرفكم وأحسابكم؛ لأن عضل النساء والتضييق عليهن مَدْعَاة لفسوقهن ومفسدة لأخلاقهن، وسبب لفساد نظام البيوت وشَقاء الذراري. وأتى سبحانه بضمير الجمع ﴿ذلِكُمْ﴾ إشارة إلى أن حماية المرأة من الهوان ومنع التضييق عليها في اختيار زوجها واجب على جميع المؤمنين، وأن فائدة ذلك ستعود عليهم جميعا. ﴿وَاللهُ يَعْلَمُ﴾ ما هو الأنفع والأصلح للناس ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ذَلِكَ لقصور علمكم، فاتبعوا أوامره.

الفرع الرابع: الرضاع والأجرة

لما ذكر الله عز وجل أحكام النكاح والطلاق، ذكر حكم ما كان من نتيجة

النكاح والطلاق؛ لأن المنكوحات والمطلّقات قد يكون لهنّ أولاد رضّع، وربّما ضاعوا بين كراهة الأزواج وعنت المطلّقات.

وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلاَدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا لاَ تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلاَ مَوْلُودٌ لَهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالاً عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدَكُمْ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُمْ مَا آتَيْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾

﴿٢٣٣﴾﴿وَالْوَالِدَات﴾ المنكوحات والمطلقات ﴿يُرْضِعْنَ﴾ أَيْ لِيُرْضِعْنَ. واتفق فقهاء الإسلام على أن الرضاع واجب على الأم ديانة تسأل عنه أمام الله تعالى حفاظا على حياة الولد، سواء أكانت متزوجة بأبي الرضيع، أم مطلقة منه وانتهت عدتها. واختلفوا في وجوبه عليها قضاء، أيستطيع القاضي إجبارها عليه أم لا؟ قال المالكية بالوجوب قضاء، فتجبر عليه. وقال الجمهور بأنه مندوب لا تجبر عليه، ولها أن تمتنع، إلا عند الضرورة، ورضاع الولد على الأب وحده. ﴿أَوْلاَدهنَّ حَوْلَيْنِ﴾ عَامَيْنِ ﴿كَامِلَيْنِ﴾ صِفَة مُؤَكِّدَة ذَلِكَ ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمّ الرَّضَاعَة﴾ إتمام مدة الرضاعة. ﴿وَعَلَى الْمَوْلُود لَهُ﴾ أَيْ الأَب ﴿رِزْقهنَّ﴾ إطْعَام الْوَالِدَات ﴿وَكِسْوَتهنَّ﴾ عَلَى الإِرْضَاع إذَا كُنَّ مُطَلَّقَات كما في آية أخرى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ (الطلاق، ٦٥/٦) ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بلا إسراف ولا تقتير ﴿لاَ تُكَلَّف نَفْس إلاَّ وُسْعهَا﴾ طَاقَتهَا. أي قدر إمكانها. ﴿لاَ تُضَارّ وَالِدَة بِوَلَدِهَا﴾ أَيْ بِسَبَبِهِ بِأَنْ تكره على إرضاعه إذا امتنعت ﴿وَلاَ﴾ يُضَارّ ﴿مَوْلُود لَهُ بِوَلَدِهِ﴾ أَيْ بِسَبَبِهِ بِأَنْ يُكَلَّف فَوْق طَاقَته. وَإِضَافَة الْوَلَد إلَى كُلّ مِنْهُمَا فِي الْمَوْضِعَيْنِ لِلاسْتِعْطَافِ. قال المالكية: "إن معنى قوله تعالى: ﴿لا تضار والدة بولدها، ولا مولود له بولده﴾ لا يحل للأب أن يمنع الأم من إرضاعه وأن الأم لا تأبى أن ترضعه إضرارا بأبيه. وذلك كله عند الطلاق؛ لأن ذكر النهي عن الضرر جاء عند ذكر الطلاق؛ ولأن النفقة واجبة للمطلقة الرجعية لأجل بقاء النكاح في العدة، ولا

تستوجب الأم زيادة على النفقة لأجل رضاعه. أما البائن فيجب لها أجر الرضاع بنص الآية السابقة (الطلاق، ٦/٦٥)." ﴿وَ﴾ عند عدم الأب ﴿عَلَى الْوَارِثِ﴾ عطف على قوله تعالى: ﴿وعلى المولود لَهُ رِزْقُهُنَّ﴾ الخ. أي على وارث الصبي عند الحنفية، أو على وَارِث الأَب -وَهُوَ الصَّبِيّ الرضيع- عند الشافعية، يعني عَلَى وَلِيّه فِي مَال الصبي ﴿مِثْل ذَلِكَ﴾ الَّذِي عَلَى الأَب لِلْوَالِدَةِ مِنَ الرِّزْق وَالْكِسْوَة. ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾ أي الوالدان ﴿فِصَالاً﴾ فِطَامًا لَهُ قَبْل الْحَوْلَيْنِ صَادِرًا ﴿عَنْ تَرَاضٍ﴾ اتِّفَاق ﴿مِنْهُمَا وَتَشَاوُر﴾ بَيْنهمَا لِتَظْهَرَ مَصْلَحَة الصَّبِيّ فِيهِ ﴿فَلاَ جُنَاح عَلَيْهِمَا﴾ فِي ذَلِكَ. ﴿وَإِنْ أَرَدْتُمْ﴾ خِطَاب لِلآبَاءِ ﴿أَنْ تَسْتَرْضِعُوا أَوْلاَدكُمْ﴾ مَرَاضِع غَيْر الْوَالِدَات عند إبائها أو عجزها ﴿فَلاَ جُنَاح عَلَيْكُمْ﴾ فِيهِ ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ﴾ إِلَيْهِنَّ ﴿مَا آتَيْتُمْ﴾ أَيْ ما أَرَدْتُمْ إِيتَاءَهُ لَهُنَّ مِنَ الأُجْرَة ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي لا ينكره الشرع. أي بالمقدار المعروف وبالحال المعروف كَطِيبِ النَّفْس والسرور ﴿وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ أي التزموا ما ذكر من الأحكام، واتقوا الله في ذلك، فلا تفرطوا في شيء منها، واعلموا علم اليقين أن الله بصير بما تعملون في هذا كله وغيره، فهو يحصي لكم عملكم، ويجازيكم عليه.

الفرع الخامس: الوفاة وعدته

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٣٤﴾ وَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلاَّ أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

﴿٢٣٤﴾﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ﴾ يَمُوتُونَ ﴿مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ﴾ يَتْرُكُونَ ﴿أَزْوَاجًا﴾ غير حوامل (الطلاق، ٦/٦٥) ﴿يَتَرَبَّصْنَ﴾ أَيْ لِيَتَرَبَّصْنَ ﴿بِأَنْفُسِهِنَّ﴾ بَعْدهمْ عَنِ النِّكَاح

﴿أَرْبَعَة أَشْهُر وَعَشْرًا﴾ مِنَ اللَيَالِي، والأيام داخِلة معها ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلهنَّ﴾ انْقَضَتْ عدتهن ﴿فَلاَ جُنَاح عَلَيْكُمْ﴾ أَيّهَا الأَوْلِيَاء أو القضاة ﴿فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسهنَّ﴾ مِنَ التَّزَيُّن، وَالتَّعَرُّض لِلْخُطَّاب، والزَّواج ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ شَرْعًا. ﴿وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير﴾ عَالِم بِبَاطِنِهِ كَظَاهِرِهِ. ﴿٢٣٥﴾﴿وَلاَ جُنَاح عَلَيْكُمْ﴾ أيها الرجال! ﴿فِيمَا عَرَّضْتُمْ﴾ لَوَّحْتُمْ ﴿بِهِ مِنْ خِطْبَة النِّسَاء﴾ الْمُتَوَفَّى عَنْهُنَّ أَزْوَاجهنَّ فِي الْعِدَّة بطريق التلميح لا التصريح كَقَوْلِ الإِنْسَان مَثَلاً: "إِنَّك لَجَمِيلَة." وَ "مَنْ يَجِد مِثْلك." وَ "رُبّ رَاغِب فِيك." ﴿أَوْ أَكْنَنْتُمْ﴾ أَضْمَرْتُمْ وستَرتم ﴿فِي أَنْفُسكُمْ﴾ مِنْ قَصْد نِكَاحهنَّ ﴿عَلِمَ الله أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ وَلا تَصْبِرُونَ عَنْهُنَّ إما سرًّا وإما إعلانًا في نفوسكم وبألسنتكم، فرخص في التعريض دون التصريح ﴿وَلَكِنْ لاَ تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ على النكاح أو الزنا ﴿إِلاَّ﴾ لَكِنْ ﴿أَنْ تَقُولُوا قَوْلاً مَعْرُوفًا﴾ أَيْ مَا عُرِفَ شَرْعًا مِنَ التَّعْرِيض، فَلَكُمْ ذَلِكَ. ﴿وَلاَ تَعْزِمُوا عُقْدَة النِّكَاح﴾ أَيْ عَلَى عَقْده ﴿حَتَّى يَبْلُغ الْكِتَاب﴾ أَيْ الْمَكْتُوب مِنْ الْعِدَّة ﴿أَجَله﴾ بِأَنْ يَنْتَهِي. أي لا تعزموا على عقد النكاح في زمان العدة ولا تفعلوا. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله يَعْلَم مَا فِي أَنْفُسكُمْ﴾ مِنَ الْعَزْم وَغَيْره ﴿فَاحْذَرُوهُ﴾ أَنْ يُعَاقِبكُمْ إِذَا عَزَمْتُمْ. ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَفُور﴾ لمن عزم ثم تاب ﴿حَلِيم﴾ بِتَأْخِيرِ الْعُقُوبَة عَنْ مُسْتَحِقّهَا.

الفرع السادس: المتعة والمهر

لاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٣٦﴾ وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلاَّ أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

﴿٢٣٦﴾﴿لاَ جُنَاح عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَّقْتُمْ النِّسَاء مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ﴾ أَيْ تُجَامِعُوهُنَّ ﴿أو تفرضوا لهن﴾ "أو" هنا بمعنى "و". أي ما لم تمسوهن و لم تفرضوا لهن ﴿فريضة﴾ مهرًا.

أي الطلاق في مثل هذه الحالة غير محظور إذا كان لمصلحة أو ضرورة، ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أَعْطُوهُنَّ المتعة تطييبًا لخاطرهن وجبرًا لوحشة الفراق. المتعة مشتقة من المتاع، وهو ما يستمتع به. و لم يرد نص في تقدير المتعة ونوعها. قرر الحنفية أنها ثلاثة أثواب: درع (ما تلسبه المرأة فوق القميص)، وخمار (ما تغطي به المرأة رأسها)، وملحفة (ما تلتحف به المرأة من رأسها إلى قدمها). ولا تزيد هذه الأثواب عن نصف مهر المثل لو كان الزوج غنيا، لأنها بدل عنه ﴿عَلَى الْمُوسِعِ﴾ الْغَنِيّ ﴿قَدَرُه﴾ بقدر يساره ﴿وَعَلَى الْمُقْتِرِ﴾ الفقير ﴿قَدَرُه﴾ بقدر إعساره. يُفِيد أَنَّهُ لاَ نَظَرَ إِلَى قَدَر الزَّوْجَة عند المالكية والحنابلة. وقال الحنفية والشافعية: "تعتبر بحال الزوجين كالنفقة." ﴿مَتَاعًا﴾ تَمْتِيعًا ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بالوجه الذي يحسن فى الشرع والمروءة ﴿حقا﴾ صفة لـــ"متاعا". أي متاعًا واجبًا ﴿عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ الذي يحسنون إلى أنفسهم بالمسارعة إلى الامتثال، أو إلى المطلقات بالتمتيع. ﴿٢٣٧﴾﴿وَإِنْ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ يَجب لَهُنَّ، وَيَرْجِع لَكُمْ النِّصْف ﴿إِلاَّ﴾ لَكِنْ ﴿أَنْ يَعْفُونَ﴾ أَيْ الزَّوْجَات فَيَتْرُكْنَهُ ﴿أَوْ يَعْفُو الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَة النِّكَاح﴾ وَهُوَ الزَّوْج فَيَتْرُك لَهَا الكل. ﴿وَأَنْ تَعْفُوا﴾ أيها الأزواج ﴿أَقْرَب لِلتَّقْوَى وَلاَ تَنْسَوْا الْفَضْل بَيْنكُمْ﴾ هو أعلى درجات المعاملة، لأن معاملة الناس فيما بينهم على درجتين: إما عدل وإنصاف؛ وهو أخذ الواجب، وإعطاء الواجب. وإما فضل وإحسان؛ وهو إعطاء ما ليس بواجب والتسامح في الحقوق، والغض مما في النفس. فلا ينبغي للإنسان أن ينسى هذه الدرجة. أَيْ لاَ تَنْسَوْا أَنْ يَتَفَضَّل بَعْضكُمْ عَلَى بَعْض ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ.

الفرع السابع: الصلاة والخوف

ثم توسطتْ آياتُ المحافظة على الصلاة آياتِ أحكام الأسرة لحكمة بليغة. وهي الحاجة إلى مذكّر عملي يصل الإنسان بالله، للترفع عن البغي والعدوان، والميل إلى العدل والإحسان في معاملة الأسر، ولا سيما بعد الطلاق الذي يولد الشحناء والبغضاء، وذلك المذكّر هو الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتدعو إلى

الإحسان والتسامح، وتنفي الجزع وتنسي هموم الدنيا، فتتربى النفس الإنسانية على أفضل سلوك، وأقوم طريق. وإشارة إلى أنه يجب ألا تشغلنا البيوت وأوضاعها ولا أنفسنا عن الصلاة.

حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴿٢٣٨﴾ فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالاً أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾

﴿٢٣٨﴾﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ﴾ الْخَمْس. أي داوموا عليها بمواقيتها، وأركانها، وشرائطها، وخشوعها ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ أي الصلاة الفضلى بين الصلوات، من قولهم للأفضل الأوسط. وإنما أفردت وعطفت على الصلوات لانفرادها بالفصل. وهي صلاة العصر عند أبي حنيفة رحمه الله، وعليه الجمهور؛ لقوله ﷺ يوم الأحزاب: "شَغَلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَى، صَلَاةِ الْعَصْرِ، مَلأَ اللهُ بُيُوتَهُمْ وَقُبُورَهُمْ نَارًا" (مسلم، ٦٢٧)، وفي مصحف حفصة والصلاة الوسطى صلاة العصر، ولأنها بين صلاتي الليل وصلاتي النهار، وفضلها لما في وقتها من اشتغال الناس بتجاراتهم ومعايشهم. وقيل صلاة الظهر؛ لأنها شاق عليهم لوقوعه في وقت القيلولة وشدة الحر، أو صلاة الفجر؛ لأنها بين صلاتي النهار وصلاتي الليل وأنها في وقت النوم، أو صلاة المغرب؛ لأنها بين الأربع والمثنى؛ ولأنها بين صلاتي مخافتة وصلاتي جهر، أو صلاة العشاء؛ لأنها بين وترين وأنها في وقت النوم، أو هي غير معينة كليلة القدر ليحفظوا الكل. وقيل: "هي أفضل الصلاة التي يحضر فيها القلب، وتتوجه بها النفس إلى الله تعالى، وتخشع لذكره، وتدبر كلامه، لا صلاة المرائين، ولا الغافلين." وقيل: "هي أفضل الصلاة التي ثقلى على النفس من سائر الصلوات، وهي يختلف من شخص لآخر." ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ﴾ فِي الصَّلَاة ﴿قَانِتِينَ﴾ دائمين خاشعين. أصل القنوت في اللغة المداومة على الشيء، وقد خصّه القرآن بالدوام على الطاعة والملازمة لها على وجه الخشوع والخضوع. وَقِيلَ: سَاكِتِينَ لِحَدِيثِ زَيْد بْن أَرْقَم أنه قال: "كُنَّا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ، يُكَلِّمُ الرَّجُلُ صَاحِبَهُ وَهُوَ إِلَى جَنْبِهِ فِي الصَّلَاةِ حَتَّى نَزَلَتْ ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ فَأُمِرْنَا بِالسُّكُوتِ، وَنُهِينَا عَنِ

الْكَلَامِ. (مسلم، ٥٣٩). والسكوت جزء من الخشوع. ﴿٢٣٩﴾﴿فَإِنْ خِفْتُمْ﴾ مِنْ عَدُوّ أَوْ سَيْل أَوْ سَبُع ﴿فَرِجَالاً﴾ جَمْع رَاجِل. أَيْ مُشَاة صَلُّوْا ﴿أَوْ رُكْبَانًا﴾ جَمْع رَاكِب. أَيْ راكبين كَيْفَ أَمْكَنَ مُسْتَقْبِلِي الْقِبْلَة أَوْ غَيْرهَا، وَيُومِئ بِالرُّكُوعِ وَالسُّجُود ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ مِنَ الْخَوْف ﴿فَاذْكُرُوا اللهَ﴾ أَيْ صَلُّوا ﴿كَمَا عَلَّمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ قَبْل تَعْلِيمه مِنْ فَرَائِضهَا وَحُقُوقهَا. وَالْكَاف بِمَعْنَى مِثْل.

الفرع الثامن: الوفاة والسكنى

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٠﴾ وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾

﴿٢٤٠﴾﴿وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ فَلْيُوصُوا ﴿وَصِيَّةً﴾ ﴿لأَزْوَاجِهِمْ﴾ وَلْيُعْطُوهُنَّ ﴿مَتَاعًا﴾ مَا يَتَمَتَّعْنَ بِهِ مِنَ النَّفَقَة ﴿إِلَى﴾ تَمَام ﴿الْحَوْل﴾ أَيْ غَيْر مُخْرَجَات مِنْ مَسْكَنهنَّ ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾ قبل ذلك وخالفن وصية الزوج بعد أن يقمن المدة التي ضربها الله تعالى لهن. قال البيضاوي: "وهذا يدل على أنه لم يكن يجب عليها ملازمة مسكن الزوج والحداد عليه. وإنما كانت مخيرة بين الملازمة وأخذ النفقة، وبين الخروج وتركها." ﴿فَلاَ جُنَاح عَلَيْكُمْ﴾ يَا أَوْلِيَاء الْمَيِّت! ﴿فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسهنَّ مِنْ مَعْرُوف﴾ مما لم ينكره الشرع كَالتَّزَيُّنِ، وَتَرْك الإِحْدَاد، والتعرض للخطاب ﴿وَاللهُ عَزِيز﴾ في ملكه ينتقم ممن خالفه منهم ﴿حَكِيم﴾ فِي صُنْعه يراعي مصالحهم. وللعلماء في تفسير هذه الآية اتجاهان مشهوران. أما الاتجاه الأول: فيرى أصحابه أن هذه الآية منسوخة بِالَّتِي قَبْلَهَا وَهِيَ قَوْلُهُ: ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (البقرة، ٢٣٤/٢). وعلى هذا الاتجاه سار جمهور المفسرين. وأما الاتجاه الثاني: فيرى أصحابه أن هذه الآية محكمة وليست منسوخة. وممن ذهب إلى هذا الاتجاه مجاهد. فقد قال ما ملخصه: دلت الآية الأولى –وهي ﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾– على أن هذه عدتها المفروضة تعتدها عند أهل زوجها. ودلت هذه الآية بزيادة سبعة أشهر

وعشرين ليلة على العدة السابقة تمام الحول، وأن ذلك من باب الوصية للزوجات أن يمكن من السكنى في بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا. ولا يمنعن من ذلك لقوله: ﴿غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾، فإذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر-أو بوضع الحمل- واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فإنهن لا يمنعن من ذلك لقوله: ﴿فَإِنْ خَرَجْنَ﴾. ﴿٢٤١﴾﴿وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ﴾ نفقة العدة أو متعة الطلاق. قال النسفي: "أي نفقة العدة." وهو أنسب لسياق الآية. وقال البيضاوي: "أثبت المتعة للمطلقات جميعا بعد ما أوجبها لواحدة منهن (البقرة، ٢/٢٣٦)." وهو أنسب للفظ الآية. ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بِقَدْرِ الإِمْكَان ﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ إن كان المتاع هنا المتعة ما حكمها؟ هي عند الجمهور مستحبة، وعند الشافعية واجبة.

كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾

﴿٢٤٢﴾﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تَتَدَبَّرُونَ. أي يبين لكم جميع آياته وأحكامه التي أنتم في حاجة إليها لكي تفهموا ما فيها، وتعقلوه، وتعملوا به، فتنالوا السعادة في الدنيا والآخرة.

المبحث الرابع: حقوق الله

لما ذكر تعالى أحكام الأسرة بالتفصيل والنظم التي تربط بين أفرادها، وسعى لإصلاحها باعتبار أنها النواة واللبنة التي يشاد منها صَرْح المجتمع الفاضل، ذكر بعدها أحكام الجهاد وذلك لحماية العقيدة وصيانة المقدسات، وتأمين البيئة الصالحة للأسرة المسلمة التي تنشد الحياة الكريمة، فلا صلاح للأسرة إلا بصلاح المجتمع، ولا بقاء لها ولا خلود إلا ببقاء الحق وأنصاره، ولهذا أمر تعالى بالقتال وضرب عليه الأمثال بالأمم السابقة، كيف جاهدت في سبيل الحق وانتصرت القلة مع إيمانها على الكثرة مع كفرها وطغيانها، فليست العبرة بكثرة أنصار الباطل بل بصمود أهل الحق والتزامهم له وجهادهم في سبيله.

المطلب الأول: العمل

الفرع الأول: الجهاد والإنفاق

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

﴿٢٤٣﴾﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أيها الرسول الكريم، أو أيها الإنسان العاقل! تقرير لمن سمع بقصتهم من أهل الكتاب وأخبار الأولين، وتعجيب من شأنهم، وَتَشْوِيق إِلَى اسْتِمَاع مَا بَعْده. ويجوز أن يخاطب به من لم ير و لم يسمع؛ لأن هذا الكلام جرى مجرى المثل في معنى التعجيب. أَيْ يَنْتَهِ عِلْمك ﴿إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا﴾ أي فروا ﴿مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ من وطنهم ﴿وَهُمْ أُلُوف حَذَر الْمَوْت﴾ مَفْعُول لَهُ. أي بسائق الخوف من عدو مهاجم ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللهُ مُوتُوا ثم أحياهم﴾ أي أماتهم الله ليعرّفهم أنه لا ينجيهم من الموت شيء ثم أحياهم وأمرهم بالجهاد، أو استهلك الله هذا الجيل الْجَبَان ثم أخرج من نسلهم جيلا عزيزا جاهد في سبيل الله وهزم العدو ﴿إِنَّ اللهَ لَذُو فَضْل عَلَى النَّاس﴾ وَمِنْهُ هذا الإحياء ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس لاَ يَشْكُرُونَ﴾ قيل: "هو مثل." وقيل: "هو واقع." وَالْقَصْد مِنْها تَشْجِيع الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَال، وتحذيرهم من الجبن، وَلِذَا عَطَفَ عَلَيْهِ:

﴿٢٤٤﴾﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيل اللهِ﴾ أَيْ لإِعْلاءِ دِينه ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ سَمِيع﴾ يسمع ما يقوله المتخلّفون والسابقون ﴿عَلِيم﴾ بما يضمرونه، فمجازيهم. ﴿٢٤٥﴾﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِض اللهَ﴾ بِإِنْفَاق مَاله فِي سَبِيل اللهِ ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ بِأَنْ يُنْفِقهُ لله عَزَّ وَجَلّ عَنْ طِيب قَلْب ﴿فَيُضَاعِفهُ لَهُ﴾ أي جزاءه ﴿ أَضْعَافًا كَثِيرَة﴾ مِنْ عَشْر إِلَى أَكْثَر مِنْ سَبْعمِائَةٍ كَمَا سَيَأْتِي. ﴿وَاللهُ يَقْبِض﴾ يُمْسِك الرِّزْق عَمَّنْ يَشَاء ابْتِلاَء ﴿وَيَبْسُط﴾ يُوَسِّعهُ لِمَنْ يَشَاء

امْتِحَانًا، إذًا فلا تبخلوا بما وسع عليكم كيلا تتبدل أحوالكم من الغنى إلى الفقر، ومن السعة إلى الضيق، ومن الأمن إلى الخوف ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فِي الآخِرَةِ بِالْبَعْثِ، فَيُجَازِيكُمْ بِأَعْمَالِكُمْ. هاتان الآيتان تعلمانا أن موت الأمم بالجبن والبخل، وحياتها بالشجاعة والإنفاق؛ وهما تذكِّرانا بهذه الآية: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة، ١٩٥/٢)، وتذكِّرانا أيضًا بهذا الحديث: "وَاعْلَمُوا أَنَّ الجَنَّةَ تَحْتَ ظِلاَلِ السُّيُوفِ." (البخاري، ٢٨١٨). أي أن الوصول إلى الجنة المجازية في الدنيا والجنة الحقيقية في الآخرة يتحقق بالجهاد في سبيل الله والإنفاق في سبيله.

الفرع الثاني: طالوت وجالوت

جملة ﴿ألم تر إلى الملإ من بني إسرائيل﴾ استئناف ثان من جملة ﴿ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم﴾ (البقرة، ٢٤٣/٢) سيق مساق الاستدلال لجملة ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ (البقرة، ٢٤٤/٢). ومناسبة تقديم الأولى أنها تشنَع حال الذين خرجوا من ديارهم مع كثرتهم، ومناسبة تأخير الثانية أنها تمثيل حال الذين عرفوا فائدة القتال في سبيل الله لقولهم: ﴿وما لنا ألا نقاتل﴾ إلخ. فسألوه دون أن يفرض عليهم، فلما عين لهم القتال نكصوا على أعقابهم. وموضع العبرة هو التحذير من الوقوع في مثل حالهم بعد الشروع في القتال أو بعد كتبه عليهم، فلله بلاغة هذا الكلام، وبراعة هذا الأسلوب تقديما وتأخيرا.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلإِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٦﴾

﴿٢٤٦﴾﴿ألم تر إلى الملأ﴾ الجماعة الذين أمرهم واحد ﴿مِنْ بَنِي إِسْرَائِيل مِنْ بَعْدِ﴾ مَوْت ﴿مُوسَى﴾ أي إلى قصتهم وخبرهم ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لهم﴾ تنكير نبي لهم للإشارة

إلى أن محل العبرة ليس هو شخص النبي فلا حاجة إلى تعيينه، وإنما المقصود حال القوم، وهذا دأب القرآن في قصصه. وهذا النبي هو صَمُويل، وهو بالعربية شِمُويل ﴿ابعث﴾ أقم ﴿لنا مَلِكًا نُقَاتِل﴾ مَعَهُ ﴿فِي سَبِيل اللهِ﴾ تَنْتَظِم بِهِ كَلِمَتنَا وَنَرْجِع إِلَيْهِ ﴿قَالَ﴾ النَّبِيّ لَهُمْ ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ بِالْفَتْحِ وَالْكَسْر ﴿إن كتب عليكم القتال ألاَّ تُقَاتِلُوا﴾ خَبَر عَسَى وَالاسْتِفْهَام لِتَقْرِيرِ التَّوَقُّع بها ﴿قالوا وما لنا ألاَّ نُقَاتِل فِي سَبِيل الله وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ بِسَبْيِهِمْ وَقَتْلهمْ وَقَدْ فَعَلَ بِهِمْ ذَلِكَ قَوْم جَالُوت. أَيْ لاَ مَانِع لنا منه مع وجود مقتضيه. قال تعالى ﴿فلما كتب عليهم القتال تَوَلَّوْا﴾ عَنْهُ وَجَبُنُوا ﴿إلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ وَهُمْ الَّذِينَ عَبَرُوا النَّهْر مَعَ طَالُوت كَمَا سَيَأْتِي ﴿وَالله عَلِيم بِالظَّالِمِينَ﴾ فَمُجَازِيهِمْ. وَسَأَلَ النَّبِيّ إرْسَال مَلِك فَأَجَابَهُ إلَى إرْسَال طَالُوت.

وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلاَئِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾

﴿٢٤٧﴾﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيّهمْ إِنَّ اللهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوت﴾ وهو شاول، وطالوت لقبه. وهو في العبرنية بمعنى المطبوب. وقيل: وهو وزن اسم مصدر من الطول، على وزن فعلوت مثل جبروت وملكوت. ومنه طاغوت أصله طغيوت، فوقع فيه قلب مكاني. وطالوت وصف به للمبالغة في طول قامته. ﴿مَلِكًا﴾ وهو ملك أول في بني إسرائل ﴿قَالُوا أَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿يَكُون لَهُ الْمُلْك عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ سِبْط الْمَمْلَكَة ولا مِنْ سِبْط النُّبُوَّة، وَكَانَ دَبَّاغًا أَوْ رَاعِيًا ﴿وَلَمْ يُؤْتَ سَعَة مِنَ الْمَال﴾ يَسْتَعِين بِهَا عَلَى إِقَامَة الْمُلْك. ﴿قَالَ﴾ النَّبِيّ لَهُمْ ﴿إِنَّ الله اصْطَفَاهُ﴾ اخْتَارَهُ لِلْمُلْكِ ﴿عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَة﴾ سَعَة ﴿فِي الْعِلْم وَالْجِسْم﴾ وَكَانَ أَعْلَم بَنِي إِسْرَائِيل فِي صنعة الحرب على الخصوص يَوْمئِذٍ، وَأَطولهم وأقواهم. أي أن الأصل في المملكة علم وقدرة،

لا نسب ولا مال ﴿وَاللهُ يُؤْتِي مُلْكه مَنْ يَشَاءُ﴾ إيتَاءَهُ لاَ اعْتِرَاض عَلَيْهِ في فعله. هذه الآية تدل على بطلان قول من يقول: "إن الإمامة موروثة." وذلك لأن بني إسرائيل أنكروا أن يكون ملكهم من لا يكون من بيت المملكة، فأعلمهم الله تعالى أن هذا ساقط، والمستحق لذلك من خصه الله تعالى بذلك ﴿وَاللهُ وَاسِعٌ﴾ فَضْله ﴿عَلِيمٌ﴾ بِمَنْ هُوَ أَهْل لَهُ. ﴿٢٤٨﴾﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيّهمْ﴾ لَمَّا طَلَبُوا مِنْهُ آية عَلَى مُلْكه ﴿إنَّ آية مُلْكه أَنْ يَأْتِيَكُمْ التَّابُوتُ﴾ أى أن يرد عليكم تابوت العهد الذي سلب الفلسطينيون منكم. والتابوت بمعنى الصُّنْدُوق المستطيل ﴿فِيهِ سَكِينَة مِنْ رَبّكُمْ﴾ أي في إتيان التابوت سكون لنفوسكم وطمأنينة لها، أو مُودَع فيه ما تسكنون إليه وهو التوراة ﴿وَبَقِيَّة مِمَّا تَرَكَ آل مُوسَى وَآل هَارُونَ﴾ قيل: وَهِيَ عصا مُوسَى، وَعِمَامَة هَارُونَ وغيرهما. والله أعلم! ﴿تَحْمِلهُ الْمَلاَئِكَة﴾ حَال مِنْ فَاعِلٍ. وذلك أن الفلسطينيين أرجعوا التابوت إلى بني إسرائيل في قصة ذكرت في سفر صمويل. حاصلها: أن التابوت بقي سبعة أشهر في بلاد فلسطين موضوعا في بيت صنمهم داجون. ورأى الفلسطينيون آيات من سقوط صنمهم على وجهه، وانكسار يديه ورأسه، وإصابتهم بالبواسير في أشدود وتخومها، وسلطت عليهم الجرذان تفسد الزروع. فلما رأوا ذلك استشاروا الكهنة، فأشاروا عليهم بإلهام من الله بإرجاعه إلى إسرائيل؛ لأن إله إسرائيل قد غضب لتابوته، وأن يرجعوه مصحوبا بهدية، ويوضع التابوت على عجلة جديدة تجرها بقرتان ومعه صندوق، ويطلقون البقرتين تذهبان بإلهام إلى أرض إسرائيل، ففعلوا. هكذا وقع في سفر صمويل (صمويل الأول: ٤-٦) غير أن ظاهر سياقه أن رجوع التابوت إليهم كان قبل تمليك شاول، وصريح القرآن يخالف ذلك، ويمكن تأويل كلام السفر بما يوافق هذا بأن تحمل الحوادث على غير ترتيبها في الذكر، وهو كثير في كتابهم. معنى حمل الملائكة التابوت هو تسييرهم بإذن الله البقرتين السائرتين بالعجلة التي عليها التابوت إلى محلة بني إسرائيل، من غير أن يسبق لهما إلف بالسير إلى تلك الجهة. هذا هو الملاقي لما في كتب بني إسرائيل. وقيل: حَمَلَتْهُ الْمَلاَئِكَة بَيْن السَّمَاء وَالأَرْض وَهُمْ يَنْظُرُونَ إلَيْهِ حَتَّى

وَضَعَتْهُ عِنْد طَالُوت. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَة لَكُمْ﴾ عَلَى مُلْكه ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ كاملي الإيمان، فَأَقَرُّوا بِمُلْكِهِ، وَتَسَارَعُوا إِلَى الْجِهَاد.

فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لاَ طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلاَقُو اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٢٥١﴾

﴿٢٤٩﴾﴿فَلَمَّا فَصَلَ﴾ خَرَجَ ﴿طَالُوت بِالْجُنُودِ﴾ مِنْ بَيْت الْمَقْدِس. وَكَانَ الْحَرّ شَدِيدًا، وَطَلَبُوا مِنْهُ الْمَاء ﴿قَالَ إِنَّ اللهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ مُخْتَبِركُمْ ﴿بِنَهَرٍ﴾ لِيَظْهَر الْمُطِيع مِنْكُمْ وَالْعَاصِي، وَهُوَ بَيْن الأُرْدُن وَفِلَسْطِين ﴿فمن شرب منه﴾ أي من ماءه ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أَيْ مِنْ أَتْبَاعِي ﴿وَمَنْ لَمْ يَطْعَمهُ﴾ يَذُقْهُ ﴿فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَة﴾ بِالْفَتْحِ وَالضَّمّ ﴿بِيَدِهِ﴾ فَاكْتَفَى بِهَا وَلَمْ يَزِدْ عَلَيْهَا فَإِنَّهُ مِنِّي. ﴿فَشَرِبُوا مِنْهُ﴾ حتى امتلأت بطونهم ﴿إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ﴾ فَاقْتَصَرُوا عَلَى الْغُرْفَة. رُوِيَ أَنَّهم كَانُوا ثَلاثمِائَة وَبِضْعَة عَشَرَ رَجُلاً. (البخاري، ٣٩٥٧) ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ وَهُمُ الَّذِينَ اقْتَصَرُوا عَلَى الْغُرْفَة ﴿قَالُوا﴾ أَيْ الَّذِينَ شَرِبُوا حتى امتلأت بطونهم ﴿لاَ طَاقَةَ﴾ قُوَّة ﴿لَنَا الْيَوْم بِجَالُوت﴾ اسمه في كتب اليهود جليات ﴿وَجُنُوده﴾ أَيْ بِقِتَالِهِمْ، وَجَبُنُوا وَلَمْ يُجَاوِزُوهُ. ﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ﴾ يُوقِنُونَ ﴿أنهم ملاقوا الله﴾ بِالْبَعْثِ وَهُمْ الَّذِينَ جَاوَزُوهُ ﴿كَمْ﴾ خَبَرِيَّة بِمَعْنَى كَثِير ﴿مِنْ فِئَة﴾ جَمَاعَة ﴿قَلِيلَة غَلَبَتْ فِئَة كَثِيرَة بِإِذْنِ الله﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿وَالله مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بِالْعَوْنِ وَالنَّصْر. ﴿٢٥٠﴾﴿وَلَمَّا بَرَزُوا﴾ أي لما صاروا في البراز. البراز المكان الفسيح في الأرض والمتسع منها، والمتبرز الذاهب في البراز.

﴿لِجَالُوت وَجُنُوده﴾ أَيْ لِقِتَالِهِمْ وَتَصَافُّوا. ﴿قَالُوا رَبّنَا أَفْرِغْ﴾ أَصْبِبْ ﴿عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامنَا﴾ بِتَقْوِيَةِ قُلُوبنَا عَلَى الْجِهَاد ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ أعنا عليهم.

﴿٢٥١﴾﴿فَهَزَمُوهُمْ﴾ كَسَرُوهُمْ ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿وَقَتَلَ دَاوُد﴾ الذي فِي عَسْكَر طَالُوت ﴿جَالُوت وَآتَاهُ﴾ أَيْ دَاوُد ﴿اللهُ الْمُلْك﴾ فِي بَنِي إِسْرَائِيل ﴿وَالْحِكْمَة﴾ النُّبُوَّة بَعْد مَوْت شمويل وَطَالُوت، و لم يجتمع الملك والنبوة لأحد قبله في بني إسرائيل ﴿وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاء﴾ كَصَنْعَةِ الدُّرُوع، وَمَنْطِق الطَّيْر (الأنبياء: ٧٩/٢١-٨٠) ﴿وَلَوْلاَ دَفْع اللهِ النَّاس بَعْضَهُم بِبَعْض لَفَسَدَتْ الأَرْض﴾ بِغَلَبَةِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَتْل الْمُسْلِمِينَ، وَتَخْرِيب الْمَسَاجِد ﴿وَلَكِنَّ اللهَ ذُو فَضْل عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ فَدَفَعَ بَعْضهمْ ببعض.

تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾

﴿٢٥٢﴾﴿تِلْكَ﴾ هَذِهِ الآيات ﴿آيَات اللهِ نَتْلُوهَا﴾ نَقُصّهَا عن طريق جبريل الأمين ﴿عَلَيْك﴾ يَا مُحَمَّد ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ ﴿وَإِنَّك لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ إذ لولا الرسالة لما عرفت شيئا من هذه القصص، وأنت لم تكن في أزمنة وقوعها، ولا تعلمت شيئا من التاريخ. هذه الآية رَدّ لِقَوْلِ الْكُفَّار لَهُ ﴿لَسْت مُرْسَلاً﴾ (الرعد، ٤٣/١٣).

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة اصطفاء طالوت على بني إسرائيل، وتفضيل داود عليهم بالملك والنبوّة ثم خاطب رسوله ﷺ بأنه من المرسلين، وكان ظاهر اللفظ يقتضي التسوية بين الرسل، ذكر في هذه الآية أنّ المرسلين ليسوا في درجة واحدة بل بعضهم أفضل من بعض كما يكون التفاضل بين البشر.

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾

﴿٢٥٣﴾﴿تِلْكَ﴾ مُبْتَدَأ ﴿الرُّسُل﴾ نَعْت أَوْ عَطْف بَيَان وَالْخَبَر ﴿فَضَّلْنَا بَعْضهمْ عَلَى

بَعْض﴾ بِتَخْصِيصِهِ بِمَنْقَبَةٍ لَيْسَتْ لِغَيْرِهِ ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللهُ﴾ بلا واسطة، وهو موسى عليه السلام ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ﴾ على سائر الأنبياء، وهو مُحَمَّد ﷺ ﴿دَرَجَات﴾ بِعُمُومِ الدَّعْوَة، وَخَتْم النُّبُوَّة، وَتَفْضِيل أُمَّته عَلَى سَائِر الأُمَم، وَالْمُعْجِزَة الباقية على وجه الدهر، والخصائص العديدة ﴿وآتينا عيسى بن مَرْيَم الْبَيِّنَات﴾ كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وغير ذلك ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قَوَّيْنَاهُ ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بجِبْرِيل الأمين. ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ﴾ أن لا يعطيهم حرية الإرادة والاختيار ﴿مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ من بعد الرسل ﴿مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَات﴾ بواسطة الرسل، ﴿وَلَكِنْ﴾ أراد الله أن يعطيهم حرية الإرادة والاختيار، و﴿اخْتَلَفُوا﴾ لاختلافهم في استعمال إراداتهم ﴿فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ﴾ اختار الحق ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ﴾ اختار الباطل ﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا اقْتَتَلُوا﴾ تَأْكِيد ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ مِنْ إعطاء الإرادة الحرة، وتوفيق من شاء، وخذلان من شاء.

المطلب الثاني: الإيمان

اعلم أن أصعب الأشياء على الإنسان بذل النفس في القتال وبذل المال في الإنفاق. فلما قدم الأمر بالقتال أعقبه بالأمر بالإنفاق. وأيضا فيه وجه آخر. وهو أنه تعالى أمر بالقتال فيما سبق بقوله: ﴿وقاتلوا في سبيل الله﴾ (البقرة، ٢/٢٤٤)، ثم أعقبه بقوله: ﴿من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا﴾ (البقرة، ٢/٢٤٥) والمقصود منه إنفاق المال في الجهاد. ثم إنه مرة ثانية أكد الأمر بالقتال، وذكر فيه قصة طالوت، ثم أعقبه بالأمر بالإنفاق في الجهاد، وهو قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا أنفقوا﴾.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾

﴿٢٥٤﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾ في الجهاد في سبيل الله، أو هو عام في كل صدقة واجبة ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَ بَيْعٌ﴾ حتى تبتاعوا ما تنفقونه فِدَاءً ﴿فِيهِ

﴿وَلاَ خُلَّةٌ﴾ حتى يعينكم عليه أخلاؤكم أو يسامحوكم به، قال الله تعالى: ﴿الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين﴾ (الزخرف، ٦٧/٤٣) ﴿وَلاَ شَفَاعَةٌ﴾ ﴿إلا بإذنه﴾ (البقرة، ٢٥٥/٢) ﴿وَالْكَافِرُونَ﴾ بنعم الله، أو بالله، أو بالآخرة، أي بهذا اليوم ﴿هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أنفسهم بتركهم التقديم ليوم حاجاتهم.

الفرع الأول: الإيمان بالله

لما ذكر تعالى تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وبيّن أن الخلائق قد اختلفوا من بعدهم وتنازعوا وتقاتلوا بسبب الدين، ذكر أن هذا التفضيل بين الأنبياء لا يستدعي الصراع بين الأتباع ولا الخصام والنزاع، فالرسل صلوات الله عليهم وإن كانوا متفاوتين في الفضل إلا أنهم جميعاً جاءوا بدعوةٍ واحدة هي «دعوة التوحيد» فرسالتهم واحدة ودينهم واحد، وأنه لا إكراه في الدين فقد سطع نور الحق وأشرق ضياؤه.

اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾

﴿٢٥٥﴾﴿اللهُ لاَ إِلَهَ﴾ أَيْ لاَ مَعْبُود بِحَقٍّ فِي الْوُجُود ﴿إِلاَّ هُوَ الْحَيّ﴾ أي الدَّائِم بِالْبَقَاءِ. الحي هو الدراك الفعال، فالحي الْكَامِل الْمُطلق هُوَ الَّذِي يندَرج جَمِيع المدركات تَحت إِدْرَاكه وَجَمِيع الموجودات تَحت فعله، حَتَّى لا يشذ عَن علمه مدرك وَلا عَن فعله مفعول. وَذَلِكَ الله عز وَجل، فَهُوَ الْحَيّ الْمُطلق. فبقوله الحي دل على كونه عالما قادرا ﴿الْقَيُّوم﴾ الْمُبَالِغ فِي الْقِيَام بِتَدْبِير خَلْقه. القيوم هو القائم بذاته والمقوم لكل ما عداه، فالقيوم المطلق هو الذي لاَ يتَصَوَّر للأشياء وجود وَلا دوَام وجود إِلاَّ بِهِ، وَلَيْسَ ذَلِك إِلاَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ﴾ نُعَاس، والنعاس ما كان من العين، فإذا صار في القلب صار نوما. وقال بعضهم: "السنة من الرأس، والنعاس في

العين، والنوم في القلب." ﴿وَلاَ نَوْمٌ﴾ أي لا تأخذه سنة فضلا عن أن يأخذه النوم، والله لا يغفل عن تدبير الخلق. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي﴾ أَيْ لا أَحَد ﴿يَشْفَع عِنْده إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ و﴿إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه، ١٠٩/٢٠)، ﴿وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى﴾ (الأنبياء، ٢٨/٢١). ﴿يَعْلَم مَا بَيْن أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفهمْ﴾ أَيْ ما فعلوا من خير وشر وما يفعلونه بعد ذلك، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة. وإذًا يعلم بمن يستحق الشفاعة أيضًا خلافا للشافع؛ لأن علم الشافع بالمشفوع له قاصر ﴿وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمه﴾ أَيْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا مِنْ مَعْلُومَاته ﴿إِلاَّ بِمَا شَاءَ﴾ أَنْ يُعْلِمهُمْ بِهِ بطريق الوحي، أو العقل، أو الحس، أو الخبر. ﴿وَسِعَ كُرْسِيّه﴾ على المعنى الحقيقي عرشه، أو ما دون عرشه؛ وعلى المعنى المجازي علمه، أو قدرته، أو سلطته ﴿السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ أي أَحَاطَ علمه وسلطته بِهِمَا، ﴿وَلاَ يَئُودُهُ﴾ أي لا يثقله، ولا يعجزه، ولا يتعبه ﴿حفظهما﴾ أي السماوات وَالأَرْض، ﴿وَهُوَ الْعَلِيّ﴾ عن كل موهوم يحتاج إلى عرش أو كرسي ﴿الْعَظِيم﴾ عن أن يحاط به. وقيل: الْعَلِيُّ عن جميع أحوال الخلق وشبههم، والْعَظِيمُ القاهر والغالب عليهم.

هذه الصفات لله تعالى؛ ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف، ٢٩/١٨). وهو يريد أن يؤمن عبادهم طوعًا ولا كرهًا؛ ولذلك يقول:

لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٦﴾ اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾

﴿٢٥٦﴾﴿لاَ إِكْرَاه فِي الدِّين﴾ عَلَى الدُّخُول فِيهِ؛ لأن هذا الإجبار لا فائدة من ورائه، إذ التدين إذعان قلبي، واتجاه بالنفس والجوارح إلى الله رب العالمين بإرادة حرة مختارة، فإذا أكره عليه الإنسان إزداد كرها له ونفورا منه. فالإكراه والتدين نقيضان لا

يجتمعان، ولا يمكن أن يكون أحدهما ثمرة للآخر. معنى الإكراه حمل الغير على قول أو فعل لا يريده عن طريق التخويف أو التعذيب أو ما يشبه ذلك. والمراد بالدين المعتقد والملة، وعلى الخصوص دين الإسلام. ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْد مِنَ الْغَيّ﴾ أَيْ ظَهَرَ بِالآيَاتِ الْبَيِّنَات أَنَّ الإِيمَان رُشْد وَالْكُفْر غَيّ. والرشد الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه. والغي ضد الرشد. مصدر من غوى يغوى إذا ضل في معتقد أو رأى. ﴿فَمَنْ يَكْفُر بِالطَّاغُوتِ﴾ بالشيطان، أو الأصنام، أو كل ما عبد من دون الله، أو صد عن عبادة الله تعالى. وَهُوَ يُطْلَق عَلَى الْمُفْرَد وَالْجَمْع ﴿وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ﴾ تَمَسَّكَ ﴿بِالْعُرْوَةِ﴾ المعتصم والمتعلق ﴿الْوُثْقَى﴾ الْمُحْكَم والموثق. أي بالدين القويم الذي ثبتت قواعده، ورسخت أركانه، وتوافقت مع الفطرة والعقل والحس ﴿لاَ انْفِصَام﴾ انْقِطَاع ﴿لَهَا﴾ خلافا لسائر الأديان؛ كما قال الله عز وجل: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت، ٢٩/٤١) ﴿وَاللهُ سَمِيع﴾ لإقراره ﴿عَلِيم﴾ باعتقاده. ﴿٢٥٧﴾ ﴿اللهُ وَلِيّ﴾ نَاصِر ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجهُمْ مِنَ الظُّلُمَات﴾ أي من ظلمات الكفر ﴿إِلَى النُّور﴾ نور الحق. وجمع الظلمات، لأن الحق واحد، أما الظلمات فقد تعددت فنونها، وألوانها، وأسبابها. ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمْ الطَّاغُوت﴾ في معنى الجمع، وهو كل ما يطغي الإنسان ويضله عن طريق الحق والهدى ﴿يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّور إِلَى الظُّلُمَات﴾ ذَكَرَ الإِخْرَاج؛ أَمَّا فِي مُقَابَلَة قَوْله يُخْرِجهُمْ مِنَ الظُّلُمَات، أَوْ أولئك الذين آمنوا بالنبي ﷺ قبل بعثته ثم كفروا به بعدها ﴿أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾

لما ذكر الله تعالى فيما سبق أن الله ولي الذين آمنوا، وأن الطاغوت ولي الكافرين، أعقبه بذكر نموذج للإيمان ونموذج للطغيان، ليبين تلك القضية ويشهد على صدقها وصحتها، وهو أن إبراهيم وفقه الله للأدلة التي تدحض الشبهات، وأن الملك عمي عن نور الحق، فكانت حججه متهافتة ساقطة، تتردد في ظلمات الشكوك والأوهام، فصارت هذه القصة مثلا للمؤمن والكافر اللذين تقدم ذكرهما.

هاهنا قصصا ثلاثة: الأولى في بيان إثبات الخالق الحكيم (٢٥٨)، والثانية (٢٥٩) والثالثة (٢٦٠) في إثبات الحشر والبعث بعد الفناء.

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾

﴿٢٥٨﴾﴿أَلَمْ تَرَ﴾ أي ألم ينته علمك ﴿إِلَى الَّذِي حَاجَّ﴾ جَادَلَ ﴿إبراهيم فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ﴾ أَيْ أن إيتاء الملك أبطره وأورثه الكبر فحاج لذلك، وهو النمروذ ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيم﴾ لَمَّا قَالَ لَهُ: "مَنْ رَبّك الَّذِي تَدْعُونَا إِلَيْهِ؟" ﴿رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيت﴾ أَيْ يَخْلُق الْحَيَاة وَالْمَوْت فِي الأَجْسَاد. ﴿قَالَ﴾ هُوَ ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيت﴾ بِالْقَتْلِ وَالْعَفْو عَنْهُ، وَدَعَا بِرَجُلَيْنِ، فَقَتَلَ أَحدهمَا وَتَرَكَ الآخر. فَلَمَّا رَآهُ غَبِيًّا ﴿قَالَ إِبْرَاهِيم﴾ مُنْتَقِلاً إِلَى حُجَّة أَوْضَح مِنْهَا ﴿فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِق فَأْتِ بِهَا﴾ أَنْت ﴿مِنَ الْمَغْرِب فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ تَحَيَّرَ وَدُهِشَ ﴿وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْم الظَّالِمِينَ﴾ أنفسهم بالامتناع عن قبول الهداية أو لا يهديهم مَحَجَّة الاحتجاج.

الفرع الثاني: الإيمان بالآخرة

أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

﴿٢٥٩﴾﴿أَوْ كَالَّذِي﴾ الكاف زائدة أو اسمية بمعنى مثل. والمعنى ألم تر إلى الذي أو ألم تر مثل الذي ﴿مَرَّ عَلَى قَرْيَة﴾ وهي قرية بيت المقدس أو قرية آخرى، وهو مر عليها رَاكِبًا عَلَى حِمَار وَمَعَهُ طعام وشراب. وَهُوَ حزقيال، أو عُزَيْر أو غيرهما. ﴿وَهِيَ

خَاوِيَةٌ﴾ سَاقِطَة ﴿عَلَى عُرُوشِهَا﴾ أي ساقطة مع سُقُوفهَا أو سقطت السقوف ثم سقطت عليها الحيطان لَمَّا خَرَّبَهَا بُخْتُنَصَّرَ ﴿قَالَ أَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْد مَوْتِهَا﴾ اسْتِعْظَامًا لِقُدْرَتِهِ تَعَالَى ﴿فَأَمَاتَهُ اللهُ﴾ وَأَلْبَثَهُ ﴿مِائَة عَام ثُمَّ بَعَثَهُ﴾ أَحْيَاهُ ليريه كيفية ذلك. ﴿قَالَ﴾ الله تَعَالَى لَهُ: ﴿كَمْ لَبِثْت﴾ مَكَثْت هُنَا؟ ﴿قَالَ لَبِثْت يَوْمًا أَوْ بَعْض يَوْم﴾ على التخمين ﴿قَالَ بَلْ لَبِثْت مِائَة عَام فَانْظُرْ إلَى طَعَامك وَشَرَابك لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ لَمْ يَتَغَيَّر مَعَ طُول الزَّمَان. أي لم تغيره السنون. وجاء الضمير في قوله ﴿لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ بالإفراد مع أن المتقدم طعام وشراب، لأنهما متلازمان، بمعنى أن أحدهما لا يكتفى به عن الآخر، فصارا بمنزلة شيء واحد، فكأنه قال "انظر إلى غذائك." ﴿وَانْظُرْ إلَى حِمَارك﴾ كيف نَخَرت عظامه وتفرقت أوصاله؟ ذلك لترى مظاهر قدرة الله ﴿وَلِنَجْعَلك آيَة لِلنَّاسِ﴾ دليلا للناس عَلَى الْبَعْث ﴿وَانْظُرْ إلَى الْعِظَام﴾ مِنْ حِمَارك. وقيل: من نفسك. وهو ضعيف. ﴿كَيْفَ نُنْشِزُهَا﴾ أي كيف نرفعه العظام من الأرض، فنردها إلى أماكنها من الجسد، ونركب بعضها على البعض. وقريء: ﴿ننشرها﴾ أي نحييها. ﴿ثُمَّ نَكْسُوهَا﴾ أي العظام ﴿لَحْمًا﴾ فَنَظَرَ إلَيْهِ وَقَدْ تَرَكَّبَتْ وَكُسِيَتْ لَحْمًا وَنُفِخَ فِيهِ الرُّوح وَنَهَقَ ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ﴾ كيفية الإحياء بِالْمُشَاهَدَةِ ﴿قَالَ أَعْلَم﴾ عين اليقين ﴿أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهو انتقل من مرتبة علم اليقين إلى عين اليقين، ومن مرتبة البرهان إلى مرتبة العيان.

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾

﴿٢٦٠﴾﴿و﴾ اُذْكُرْ ﴿إذْ قَالَ إبْرَاهِيم رَبّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ﴾ الله تَعَالَى لَهُ ﴿أَوَلَمْ تُؤْمِن﴾ بِقُدْرَتِي عَلَى الإِحْيَاء. سَأَلَهُ مَعَ عِلْمه بِإِيمَانِهِ بِذَلِكَ لِيُجِيبَهُ بِمَا سَأَلَ فَيَعْلَم السَّامِعُونَ غَرَضَه ﴿قال بلى﴾ آمنتُ ﴿وَلَكِنْ﴾ سَأَلْتُك ﴿لِيَطْمَئِنّ﴾ يَسْكُن ﴿قَلْبِي﴾ بِالْمُعَايَنَةِ الْمَضْمُومَة إلَى الاسْتِدْلَال ﴿قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَة مِنَ الطَّيْر فَصُرْهُنَّ

إِلَيْك﴾ بِكَسْرِ الصَّاد وَضَمّهَا. أي أَمِلْهُنَّ إِلَيْك. ثم قطعهن، واخلط بعضهن ببعض حتى يصبحن كتلة واحدة، ﴿ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلّ جَبَل﴾ مِنْ جِبَال أَرْضك ﴿منهن جزءً ثم اُدْعُهُنَّ﴾ إِلَيْك ﴿يَأْتِينَك سَعْيًا﴾ سَرِيعًا ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ الله عَزِيز﴾ لاَ يَمْتَنِعُ عَلَيْهِ مَا يُرِيدُ ﴿حَكِيم﴾ فِيمَا يُرِيدُ وَيُمَثِّلُ. يفهم من هذه الآية أن سؤال المتعلم للعالم جائز، لا يردّ ولا يحقَّر ولا بفسَّق، خلافا لعمل بعض الفرق في يومنا هذا.

المبحث الخامس: حقوق العباد

المطلب الأول: الإنفاق

الفرع الأول: فضل الإنفاق

اعلم أنه سبحانه لما ذكر من بيان أصول العلم بالمبدأ وبالمعاد ومن دلائل صحتهما ما أراد أتبع ذلك ببيان الشرائع والأحكام والتكاليف.

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾

﴿٢٦١﴾﴿مَثَل﴾ نفقات ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالهمْ فِي سَبِيل الله﴾ أَيْ طَاعَته ﴿كَمَثَلِ حَبَّة أَنْبَتَتْ سَبْع سَنَابِل فِي كُلّ سُنْبُلَة مِائَة حَبَّة﴾ فكذلك نفقاتهم تضاعف لسبعمائة ضِعْف ﴿وَالله يُضَاعِف﴾ أَكْثَر مِنْ ذَلِكَ ﴿لِمَنْ يَشَاء﴾ بفضله وعلى حسب حال المنفق من إخلاصه وتعبه ﴿وَالله وَاسِع﴾ لا يضيق عليه ما يتفضل به من الزيادة ﴿عَلِيم﴾ بنيات المنفقين ومَنْ يَسْتَحِقّ المضاعفة.

الفرع الثاني: أخلاق الإنفاق

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا

صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾ وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾

﴿٢٦٢﴾﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالهمْ فِي سَبِيل الله﴾ في طاعته ابتغاء مرضاة الله ﴿ثُمَّ لا يتبعون ما أنفقوا مَنًّا﴾ عَلَى الْمُنْفَق عَلَيْهِ بِقَوْلِهِمْ مَثَلاً: "قَدْ أحسنت إليك، وجبرت حالك." ﴿وَلاَ أَذًى﴾ لَهُ كذكره لغيره فيؤذيه بذلك وَنَحْوه ﴿لَهُمْ أَجْرهمْ﴾ ثَوَاب إنْفَاقهمْ ﴿عِنْد رَبّهمْ وَلاَ خَوْف عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يَعْتَريهم فزعٌ يوم القيامة، ولا هم يحزنون على فائتٍ زهرة الدنيا. ﴿٢٦٣﴾﴿قَوْل مَعْرُوف﴾ ردٌّ السائل بالتي هي أحسن ﴿ومغفرة﴾ لَهُ فِي إلْحَاحه ﴿خَيْر مِنْ صَدَقَة يَتْبعهَا أَذًى﴾ للسائل ﴿وَالله غَنِيّ﴾ عن إنفاق بمن وإيذاء ﴿حَلِيم﴾ بتَأْخِيرِ الْعُقُوبَة عَن المان والمؤذي. ﴿٢٦٤﴾﴿يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتكُمْ﴾ أَيْ أُجُورهَا ﴿بالمن والأذى﴾ إبطالا ﴿كَالَّذِي﴾ أَيْ كإبطال الكافر المنافق الذي ﴿يُنْفِق مَاله رِئَاء النَّاس﴾ مُرَائِيًا لَهُمْ ﴿وَلاَ يُؤْمِن بِالله وَالْيَوْم الآخِر﴾ أي ولا يريد بإنفاقه رضا الله ولا ثواب الآخرة ﴿فَمَثَله كَمَثَلِ صَفْوَان﴾ حَجَر أَمْلَس ﴿عَلَيْهِ تُرَاب فَأَصَابَهُ وَابِل﴾ مَطَر شَدِيد ﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ أَمْلَس لا شَيْء عَلَيْهِ ﴿لاَ يَقْدِرُونَ﴾ أي المان، والمؤذي، والمرائي ﴿عَلَى شَيْء مِمَّا كَسَبُوا﴾ أي لا يجدون ثواب شيء مما أنفقوا كَمَا لا يُوجَد عَلَى الصَّفْوَان شَيْء مِنَ التُّرَاب الذي كان عليه لإِذْهَاب الْمَطَر لَهُ ﴿وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ ماداموا مختارين الكفر. فيه تعريض بأن كلاً من الرياء والمنّ والأذى على الإنفاق من صفات الكفار، ولا بد للمؤمنين أن

يجتنبوها. ﴿٢٦٥﴾﴿وَمَثَل﴾ نَفَقَات ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالهمْ ابْتِغَاء﴾ طَلَب ﴿مرضاة الله﴾ رضا الله ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسهمْ﴾ أي تثبيتا لبعض أحوال النفس. قال أبو حيان: "﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللهِ﴾ مُقَابِلٌ لِقَوْلِهِ ﴿رِئَاءَ النَّاسِ﴾ وَقَوْلُهُ ﴿وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ مُقَابِلٌ لِقَوْلِهِ ﴿وَلا يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾ لأَنَّ الْمُرَادَ بِالتَّثْبِيتِ تَوْطِينُ النَّفْسِ عَلَى الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهِ وَتَرْكِ مَا يُفْسِدُهُ، وَلا يَكُونُ إِلاَّ عَنْ يَقِينٍ بِالآخِرَةِ." ﴿كَمَثَلِ جَنَّة﴾ بُسْتَان ﴿بِرَبْوَةٍ﴾ – بِضَمِّ الرَّاء وَفَتْحهَا– مَكَان مُرْتَفِع مُسْتَوٍ ﴿أَصَابَهَا وَابِل﴾ مطر شديد ﴿فَآتَتْ﴾ أَعْطَتْ ﴿أُكُلهَا﴾ –بِضَمِّ الْكَاف وَسُكُونهَا– ثَمَرهَا ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ مِثْلَيْ مَا يُثْمِر غَيْرهَا ﴿فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِل فَطَلّ﴾ مَطَر خَفِيف يُصِيبهَا وَيَكْفِيهَا لارتفاعها وطيبها. الْمَعْنَى تُثْمِر وَتَزْكُو كَثُرَ الْمَطَر أَمْ قَلَّ، فَكَذَلِكَ نَفَقَات مَنْ ذُكِرَ تَزْكُو عِنْد الله كَثُرَتْ أَمْ قَلَّتْ ﴿وَالله بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِير﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. ﴿٢٦٦﴾﴿أَيَوَدُّ﴾ أَيُحِبُّ ﴿أَحَدكُمْ أَنْ تَكُون لَهُ جَنَّة﴾ بُسْتَان ﴿مِنْ نَخِيل وَأَعْنَاب تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الأنهار﴾ أى تجرى من تحت أشجارها الأنهار ﴿له فيها﴾ ثمر ﴿من كل الثمرات وَقَدْ أَصَابَهُ الْكِبَر﴾ فَضَعَفَ عَنِ الْكَسْب ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّة ضُعَفَاء﴾ أَوْلاد صِغَار لا يقدرون عليه ﴿فأصابها إعصار﴾ ريح شديدة ﴿فِيهِ نَار فَاحْتَرَقَتْ﴾ الجنة وَبَقِيَ هُوَ وَأَوْلاده عَجَزَة مُتَحَيِّرِينَ لا حِيلَة لَهُمْ. وَهَذَا تَمْثِيل لِنَفَقَةِ الْمُرَائِي وَالْمَانّ فِي ذَهَابهَا وَعَدَم نَفْعهَا أَحْوَج مَا يَكُون إِلَيْهَا فِي الآخِرَة ﴿كَذَلِكَ﴾ كَمَا بُيِّنَ مَا ذُكِرَ ﴿يُبيِّن الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون﴾ فتعتبرون.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾

﴿٢٦٧﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا﴾ فرضًا أو نفلاً ﴿مِنْ طَيِّبَات﴾ حلال وجياد ﴿ما

كسبتم﴾ من المال ﴿ومـــن﴾ ـــن طيبات ﴿ما أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الأَرْضِ﴾ مِنَ الْحُبُوب، وَالثِّمَار، والمعادن، وغيرها. ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا﴾ تَقْصِدُوا ﴿الْخَبِيثَ﴾ الحرام أو الرَّدِيء ﴿مِنْهُ﴾ أَيْ من المذكور ﴿تنفقون﴾ها وتخصونه بالإنفاق ﴿وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ﴾ أَيْ الْخَبِيث لَوْ أَعْطَيْتُمُوهُ فِي حُقُوقكُمْ ﴿إِلاَّ أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ﴾ بِالتَّسَامُح وَغَضّ الْبَصَر، فَكَيْفَ تُؤَدُّونَ مِنْهُ حَقّ الله؟ ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ الله غَنِيّ﴾ عَنْ إنفاقكُمْ ﴿حَمِيد﴾ مَحْمُود بقبوله وإثابته. ﴿٢٦٨﴾﴿الشَّيْطَان يَعِدكُمْ﴾ على الإنفاق ﴿الْفَقْر﴾ يُخَوِّفكُمْ بِهِ ويقول لكم: "إنّ عاقبة إنفاقكم أن تفقروا." ﴿وَيَأْمُركُمْ بِالْفَحْشَاءِ﴾ الْبُخْل وَإنفاق الخبيث ﴿وَالله يَعِدكُمْ﴾ عَلَى الإِنْفَاق ﴿مَغْفِرَة مِنْهُ﴾ لِذُنُوبِكُمْ ﴿وَفَضْلاً﴾ خلفًا أفضل مما أنفقتم في الدنيا وثوابًا عليه في الآخرة ﴿والله وَاسِع﴾ الفضل لمن أنفق منكم ﴿عَلِيم﴾ بإنفاقكم ونياتكم. ﴿٢٦٩﴾﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ أَيْ النعت النفسي والْعِلْم النَّافِع الْمُؤَدِّي إِلَى الْعَمَل الصواب. وأصل الحكمة مأخوذ من حكَم بمعنى منع، وهي في الإنسانية صفة نفسية هي أساس المعرفة الصحيحة التي تصيب الحق، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهي فيه مانعة ضابطة حاكمة للنفس مسيرة لها نحو الكمال ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بفضله وإحسانه، فالمعطي للحكمة هو الله، ولكنه العليم بكل شيء يضع الأمور في مواضعها، فهو لاَ يعطيها إلا لمن يخلص قلبه، ويسلم وجهه، وإن كان كل شيء بمشيئته سبحانه، إنه على ما يشاء قدير. ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ لِمَصِيرِهِ إِلَى السَّعَادَة الأَبَدِيَّة ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ﴾ -فِيهِ إِدْغَام التَّاء فِي الأَصْل فِي الذَّال- أي وما يتعظ بهذه التوجيهات القرآنية، وينتفع بثمارها ﴿إلا أولوا الأَلْبَاب﴾ أَصْحَاب الْعُقُول الخالصة. قال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أن الشيطان يعد بالفقر ويأمر بالفحشاء، وأن الرحمن يعد بالمغفرة والفضل نبه على أن الأمر الذي لأجله وجب ترجيح وعد الرحمن على وعد الشيطان هو أن وعد الرحمن ترجحه الحكمة والعقل، ووعد الشيطان ترجحه الشهوة والنفس." ﴿٢٧٠﴾﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَة﴾ فرض أو نفل، قليلة أو كثيرة، سرًّا أو علانية، في حق أو باطل ﴿أَوْ نَذَرْتُمْ

مِنْ نَذْرٍ﴾ بشرط أو بغير شرط، في طاعة أو معصية. أي وما أنفقتم من نفقة عاجلة، أو التزمتم بنفقة مستقبلة ﴿فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ﴾ فَيُجَازِيكُمْ عَلَيْهِ ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الذين ينفقون في المعاصي وينذرون فيها، أو يمنعون الصدقات ولا يوفون بالنذر ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ مَانِعِينَ لَهُمْ مِنْ عَذَابه.

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلاَنِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

﴿٢٧١﴾﴿إِنْ تُبْدُوا﴾ تُظْهِرُوا ﴿الصَّدَقَاتِ﴾ الفرائض والنَّوَافِل ﴿فَنِعِمَّا﴾ أصلها نعم ما، فأدغمت إحدى الميمين في الأخرى، ونعم فعل ماض، وما نكرة تامة بمعنى شيء ﴿هِيَ﴾ وهذا الضمير على حذف مضاف والأصل ابداؤها. أي نعم الشيء إبداء الصدقات ﴿وَإِنْ تُخْفُوهَا﴾ تُسِرُّوهَا ﴿وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ مِنْ إِبْدَائِهَا وَإِيتَائِهَا الأَغْنِيَاء. قيل: "الأَفْضَل في صَدَقَة الْفَرْض إِظْهَارهَا لِيُقْتَدَى بِهِ وَلِئَلاَّ يُتَّهَم." ﴿وَيُكَفِّرُ﴾ -بِالْيَاءِ وَالنُّون- مَجْزُومًا بِالْعَطْفِ عَلَى مَحَلّ، وَمَرْفُوعًا عَلَى الاسْتِئْنَاف ﴿عنكم من﴾ تبعيضا أو زائدة ﴿سيآتكم﴾ أي يكفر عنكم بعض سيئاتكم أو يكفر عنكم جميع سيئاتكم. والأول أصح. والمعنى يزيل الله بجميل أعمالكم بعض سيء آثامكم ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عَالِم بِبَاطِنِهِ كَظَاهِرِهِ لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء مِنْهُ. ثم قال الله تعالى في بيان جواز الصدقة على الكافرين: ﴿٢٧٢﴾﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ﴾ إِنَّمَا عَلَيْك الْبَلاَغ ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ وهو يهدي من يسير في طريق الهداية،

ويفتح قلبه لنور الإيمان، فيوفقه إلى الحق، ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ﴾ من مال لكل من يكون في حاجة إليه، سواء أكان مؤمنًا أم كان كافرًا، وسواء أكان برًّا تقيًّا، أم كان فاجرًا عصيًّا ﴿فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾ لإن نفعه سيعود عليكم بالسعادة في الدنيا، وبالثواب الجزيل في الآخرة. قال أبو زهرة: "أي أن كل شيء تنفقونه خير عائد على أنفسكم من حيث إنه يُهَذِّبها، ويقوي صِلاتها الاجتماعية، ويُرْهِف الوجدان، وفوق هذا وذاك فإن الإنفاق يدفع غوائل اجتماعية إن سلطت على الجماعة أذهبت وحدتها، وقَوَّضَتْ بناءَها." ﴿وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاء وَجْهِ اللهِ﴾ ولو كانت لعاص أو كافر؛ ذلك لأنه لا يقصد بالعطاء إرضاء العاصي أو الكافر، إنما يقصد بالعطاء وجه الله تعالى ورضاه في صلة رحم وسد خَلة مضطِر ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ﴾ جَزَاؤُهُ في هذه الدنيا وفي الآخرة. أما في الآخرة فبالنعيم المقيم الخالد، وهو أضعاف مضاعفة للصدقة. وجزاؤها في الدنيا من حيث إنها تقوية للعناصر الضعيفة في الأمة، فتنقلب إلى عناصر قوة تمدها بالخير والمعونة الصادقة، فتكون قوة عاملة منتجة تعود ثمرات أعمالها إلى الجميع ومنهم المنفقون ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ﴾ أى لا تنقصون شيئا مما وعدكم الله به على نفقتكم في سبيله. وَالْجُمْلَتَانِ تَأْكِيد لِلأُولَى. اجعلوا الكثير مما تنفقونه ﴿٢٧٣﴾﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أَيْ الذين حصروا أنفسهم ووقفوها على الجهاد، أو الذين منعوا من الكسب الحلال بسبب مرضهم أو شيخوختهم، أو غير ذلك من الأسباب التي جعلتهم في حالة شديدة من الفاقة والاحتياج ﴿لا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا﴾ سَفَرًا ﴿فِي الأَرْضِ﴾ لِلتِّجَارَةِ وَالْمَعَاش لِشُغْلِهِمْ أو لعجزهم ﴿يَحْسِبهُمُ الْجَاهِلِ﴾ بِحَالِهِمْ ﴿أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّف﴾ أَيْ لِتَعَفُّفِهِمْ عَنِ السُّؤَال وَتَرْكه ﴿تَعْرِفهُمْ﴾ يَا مُخَاطَب ﴿بِسِيمَاهُمْ﴾ أي بعَلامَتهمْ من صفرة الوجوه ورثاثة الحال. وهم مع ذلك ﴿لاَ يَسْأَلُونَ النَّاس﴾ شَيْئًا، وإن سألوا عن ضرورة لا يسألون ﴿إِلْحَافًا﴾ إلحاحًا، وهو أن يلازم المسؤول حتى يعطيه ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ به عليم﴾ فمجاز عليه. ﴿٢٧٤﴾﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا

هم يحزنون﴾ أي لا يَعْتَريهم فزعٌ يوم القيامة، ولا هم يحزنون على فائتٍ زهرة الدنيا. هذا ختام آيات الإنفاق في سبيل الله، وقد ختم سبحانه هذه الآيات كما بدأها؛ بدأها بالجزاء الأوفى لمن يتصدق وينفق في سبيل الله (الآية ٢٦٢)، وختمها بالعاقبة الحسنى لمن يتحرى في الصدقات مواضعها، أيا كان زمنها، وأيا كان حالها (الآية ٢٧٤). فتستوي نفقة الليل ونفقة النهار، وصدقة السر وصدقة العلن، ما دامت الصدقات قد قصد بها مرضاة الله تعالى، وسلمت من آفاتها وهي المن والأذى والرياء.

المطلب الثاني: الربا

كانت الآيات السابقة في النفقة من المال بغير عوض، تقرّبا إلى الله، وطلبا لمرضاته، وتثبيتا لأنفسهم على الإيمان. وهذه الآيات في المرابين الذين يأخذون المال بلا عوض، حرصا على المال. والصدقة يبارك الله فيها، وأما الرّبا فيمحقه الله ويبطل بركته ونماءه. فالمناسبة بين الآيات التّضاد؛ لأن الضدّ أقرب خطورا بالبال من غيره.

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾

﴿٢٧٥﴾﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾ أَيْ يَأْخُذُونَهُ ﴿الرِّبَا﴾ وهو في اللغة الزيادة مطلقا. وفي الشرع هو عبارة عن الزِّيَادَة فِي الْمُعَامَلَة بِالنُّقُودِ وَالأموال فِي الْقَدْر أَو الأَجَل ﴿لاَ يَقُومُونَ﴾ أي لا يقومون في الآخرة على المعنى الحقيقي أو لا يعاملون في الدنيا على المعنى المجازي ﴿إِلاَّ﴾ قِيَامًا أو معاملة ﴿كَمَا يَقُوم الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ﴾ يَصْرَعهُ ﴿الشَّيْطَان مِنَ الْمَسّ﴾ الْجُنُون. فإن كان القيام المنفي هنا القيام الحقيقي فالمعنى: لا يقومون يوم

يقوم الناس لرب العالمين إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان لفزعهم وتعذيبهم. وإن كان القيام المجازي فالمعنى: لا يعاملون في معاملات الربا إلا كمعاملة المجنون لحرصهم ونشاطهم. ﴿ذَلِكَ﴾ الَّذِي نَزَلَ بِهِمْ في الدنيا أو في العقبى أو فيهما ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ صورةً وحكمًا. فَقَالَ تَعَالَى رَدًّا عَلَيْهِمْ ﴿وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾ وهو حرام حكمًا. قال الزحيلي: حرّم الله الرّبا في القرآن كتحريم الخمر في أربعة مواضع، وسار التّحريم في مراحل أربع، الموضع الأول منها مكي، والباقي مدني. ففي مكّة أنزل الله: ﴿وَما آتَيْتُمْ مِنْ رِباً لِيَرْبُوَا فِي أَمْوالِ النَّاسِ، فَلا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ﴾ (الروم، ٣٠/٣٩). وهذا يقابل آية الخمر المكيّة: ﴿وَمِنْ ثَمَراتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقاً حَسَنًا﴾ (النحل، ١٦/٦٧). وفي كلا الآيتين تمهيد للتحريم وتعريض به وإيماء إلى ضرورة تجنّبه. ثم قصّ علينا القرآن في المدينة سيرة اليهود الذين حرّم عليهم الرّبا فأكلوه وعاقبهم الله بمعصيتهم، فقال: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَوا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ﴾ (النساء، ٤/١٦١)، وهذا نظير المرحلة الثانية في تحريم الخمر: ﴿يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِما إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُما أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِما﴾ (البقرة، ٢/٢١٩). وكلا الآيتين إنذار بالتّحريم، وتعريض به، وإيذان بعقوبة المخالف. ثم نهى تعالى عن الرّبا الفاحش الذي يتزايد حتى يصير أضعافا مضاعفة، وهو ما كان في الجاهلية: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَوا أَضْعافاً مُضاعَفَةً﴾ (آل عمران، ٣/١٣٠). وهذا يشابه المرحلة الثالثة من مراحل تحريم الخمر: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَقْرَبُوا الصَّلاةَ وَأَنْتُمْ سُكارى حَتَّى تَعْلَمُوا ما تَقُولُونَ﴾ (النساء، ٤/٤٣). فكلا الآيتين نهي جزئي صريح، إلا أنّ آية الرّبا نهي عن صورة فاحشة من صور الرّبا وهو الرّبا الجاهلي، وآية الخمر نهي جزئي عن تناول المسكر وقت إرادة الصلاة. ثم جاء التّحريم القاطع لكلّ من الرّبا والخمر، أما الرّبا فقد نهى الله عن كل ما يزيد عن رأس مال المدين: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا ما بَقِيَ مِنَ الرِّبا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ الآيات. وأما الخمر فقد أمر الله باجتنابه في كل الأحوال: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنْصابُ

وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ، فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (المائدة، ٥/٩٠) ﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ بَلَغَهُ ﴿مَوْعِظَةٌ﴾ نهي ﴿مِنْ رَبِّه فَانْتَهَى﴾ عَنْ أَكْله ﴿فَلَهُ مَا سَلَفَ﴾ قَبْل النَّهْي أَيْ لا يَسْتَرِدّ مِنْهُ ﴿وَأَمْره﴾ فِي الْعَفْو عَنْهُ ﴿إِلَى اللهِ﴾ أي أمر المرابي الذي رابى قبل التحريم إلى ربه، وهو العفو الغفور الرحيم. وفي هذا إشارة إلى أن ما يحرمه الشارع الإسلامي لا يكون مباحًا قبل التحريم، بل يكون في مرتبة العفو من الله سبحانه. ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ إِلَى أَكْله مُشَبِّهًا لَهُ بِالْبَيْعِ فِي الْحِلّ ﴿فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ لأنهم بالاستحلال صاروا كافرين. ﴿٢٧٦﴾﴿يَمْحَق اللهُ الرِّبَا﴾ يُنْقِص مالَه أوَ يُذْهِب بَرَكَته ﴿وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ يَزِيدهَا، وَيُنَمِّيهَا، وَيُضَاعِف ثَوَابهَا ﴿وَاللهُ لاَ يُحِبّ كُلّ كَفَّار﴾ عظيم الكفر باستحلال الربا ﴿أَثِيم﴾ متمادٍ في الإثم بأكله. ﴿٢٧٧﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ بتحريم أكل الربا وغيره ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ كترك أكل الربا ﴿وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ أي لا يَعْتَريهم فزعٌ يوم القيامة، ولا هم يحزنون على فائتٍ زهرة الدنيا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

﴿٢٧٨﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا﴾ اُتْرُكُوا ﴿مَا بَقِيَ مِن﴾ بقايا ﴿الرِّبَا﴾ عند الناس ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ على الحقيقة؛ فَإِنَّ مِنْ شَأْن الْمُؤْمِن امْتِثَال أَمْر اللهِ تَعَالَى. ﴿٢٧٩﴾﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا﴾ مَا أُمِرْتُمْ بِهِ ﴿فَأْذَنُوا﴾ اعْلَمُوا أَيْقِنُوا ﴿بِحَرْبٍ﴾ التنكير للتهويل. أي بنوعٍ من الحرب، عظيم لا يُقادر قدره ﴿مِنَ اللهِ وَرَسُولِه﴾ لَكُمْ فِيهِ. ومن حاربه الله ورسوله لا يفلح أبدا. ﴿وَإِنْ تبتم﴾ رجعتم عنه ﴿فلكم رؤوس﴾ أُصُول ﴿أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ﴾ بِزِيَادَةٍ ﴿وَلاَ تُظْلَمُونَ﴾ بنقص.

وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ

يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾

﴿٢٨٠﴾﴿وَإِنْ كَانَ﴾ المدين ﴿ذُو عُسْرَةٍ﴾ غير قادر على أداء الدين ﴿فَنَظِرَةٌ﴾ لَهُ. أَيْ عَلَيْكُمْ تَأْخِير دينه ﴿إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾ أَيْ وَقْت يُسْره ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ عَلَى الْمُعْسِر بكل الدين أو ببعضه ﴿خَيْر لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُ خَيْر، فَافْعَلُوهُ. وَفِي الْحَدِيث: "مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ الله فِي ظِلِّه." (مسلم، ٣٠٠٦) ﴿٢٨١﴾﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ﴾ تُرَدُّونَ ﴿فِيهِ إِلَى الله﴾ هُوَ يَوْم الْقِيَامَة ﴿ثُمَّ تُوَفَّى﴾ تعطى فِيهِ ﴿كُلّ نَفْس﴾ جَزَاءُ ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ عَمِلَتْ مِنْ خَيْر وَشَرّ ﴿وَهُمْ لاَ يظلمون﴾ بنقص حسنة أو زيادة سيئة.

المطلب الثالث: الدين

لما ذكر الله تعالى الإنفاق والربا أعقبهما بذكر الدين؛ لأنه شيء يجري فيه هذان، تارة ينفق الدائن على المدين من الدين، وتارة يطلب منه ربا بالتديين أو الإنظار. وفي هذه الآية طريق توثيق الدين وحفظ المال من النقص؛ لأنه تارة يدعي الدائن أنه أعطى إلى المدين أكثر، وتارة يدعي المدين أخذ من الداين أقل أو ينكر الدين. وآية الدين أطول آيات القرآن على الإطلاق مما يدل على عناية الإسلام بالنظم الاقتصادية.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلاَ يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لاَ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الأُخْرَى وَلاَ يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلاَّ تَرْتَابُوا إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلاَّ تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلاَ يُضَارَّ كَاتِبٌ

وَلاَ شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨٣﴾

﴿٢٨٢﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ﴾ أي إذا داين بعضكم بعضًا. يقال: "داينت الرجل." إذا عاملته بدين معطيًا أو آخذًا ﴿إلى أجل مسمى﴾ مدة معلومة ﴿فَاكْتُبُوهُ﴾ اسْتِيثَاقًا وَدَفْعًا لِلنِّزَاعِ إن تختاروا أن تكتبوه، أي وثيقته ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾ غيركم إن لا تختاروا أن تكتبوها، أو لا تحسنوا الكتابة، أو لا تعلموا بإعدادها ﴿بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾ بِالْحَقِّ. أي كاتب عادل مأمون لا يجور على أحد الطرفين. ﴿وَلاَ يأب﴾ يمتنع ﴿كاتب﴾ من ﴿أن يكتب﴾ إذا دُعِيَ إِلَيْهَا ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللهُ﴾ أَيْ كما أن الله علمه الكتابة ويسَّرها له وجعله أهل خبرة، عليه واجب المعاونة بالكتابة لغيره؛ أو مثل ما علمه الله كتابة وثيقة الدين على مقتضى العلم والفقه الذي فقَّه الله به الكاتب ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾ تلك الكتابة لا يعدل عنها. ﴿وَلْيُمْلِلْ﴾ الْكَاتِبَ ﴿الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقّ﴾ الدَّيْن. أي وليمل الكاتبَ المدينُ ليكون إملاؤه إقرارا به ﴿وَلْيَتَّقِ﴾ الذي عليه الدين ﴿اللهَ رَبّه﴾ فِي إمْلائِهِ ﴿وَلاَ يَبْخَسْ﴾ يُنْقِص ﴿مِنْهُ﴾ أَيْ من الدين ﴿شَيْئًا﴾ فيكون جحودًا لبعض حقه. ﴿فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقّ سَفِيهًا﴾ أي مبذرًا في ماله ناقص العقل والتدبير ﴿أَوْ ضَعِيفًا﴾ بأن كان صبيا، أو مجنونا، أو جاهلا بالعقود والتصرفات، أو هرما لم تساعده قواه العقلية على ضبط الأمور ﴿أَوْ لاَ يَسْتَطِيع أَنْ يُمِلّ هُوَ﴾ لِخَرَسٍ، أَوْ جَهْل بِاللُّغَةِ، أَوْ نَحْو ذَلِكَ ﴿فَلْيُمْلِلْ وَلِيّه﴾ مُتَوَلِّي أَمْره مِنْ وَالِد، وَوَصِيّ، وَقَيِّم، وَمُتَرْجِم ﴿بِالْعَدْلِ﴾ بالصدق والحق. ﴿وَاسْتَشْهِدُوا﴾ أَشْهِدُوا عَلَى الدَّيْن ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ شَاهِدَيْنِ زيادة في التوثيقة ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ﴾ أَيْ من مُسْلِمِينَ بَالِغِين عاقلين ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ﴾ أَيْ الشَّاهِدَانِ ﴿فَرَجُل وامرأتان﴾ يَشْهَدُونَ ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾ لِدِينِهِ وَعَدَالَته، وَتَعَدُّد النِّسَاء لأَجْلِ ﴿أَنْ تَضِلّ﴾ تَنْسَى ﴿إِحْدَاهُمَا﴾

الشَّهَادَة لِنَقْصِ ضَبْطهنَّ ﴿فَتُذَكِّر إِحْدَاهُمَا﴾ الذَّاكِرَة ﴿الأُخْرَى﴾ النَّاسِيَة. وهذه العبارة لبيان سر تشريع الحكم في اشتراط العدد في النساء، إذ قد جرت العادة أن المرأة لا تشتغل بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات، فتكون ذاكرتها ضعيفة فيها، بخلاف الأمور المنزلية فإن ذاكرتها فيها أقوى من ذاكرة الرجل فقد جبل الإنسان على أن يقوى تذكره لما يهتم به ويعنى بشأنه، واشتغال النساء في هذا العصر بالمسائل المالية لا يغير هذا الحكم. لأن الأحكام إنما تكون للأعم الأكثر، وعدد هؤلاء قليل في كل أمة وجيل. قال أبو زهرة: "إن المرأة لقوة عاطفتها، وشدة انفعال نفسها بالحوادث، قد تتوهم ما لم تر، وهذا هو الضلال؛ فهو نسيان مع اعتقاد غير الواقع، أو ظن غير الواقع، وهذا النوع من الضلال يكثر في النساء والأطفال." فافهم! أن شهادة الرجل والمرأة سواء أصلاً؛ لأن الله تعالى لا يقول: "شهادة المرأة نصف"، إنما يقول: ﴿أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾، وكذا يجعل المرأة الثانية احتياطًا، لا أصلاً ولا نصفًا. ﴿وَلاَ يَأْبَ الشهداء إذا ما﴾ زائدة ﴿دُعُوا﴾ إِلَى تَحَمُّل الشَّهَادَة وَأَدَائِهَا. ﴿وَلاَ تَسْأَمُوا﴾ تَمَلُّوا أيها الكتاب أو المتداينين! مِنْ ﴿أَنْ تَكْتُبُوهُ﴾ لِكَثْرَةِ وُقُوع ذَلِكَ ﴿صَغِيرًا﴾ كان الدين ﴿أو كبيرا﴾ أي قليلا أو كَثِيرًا ﴿إِلَى أَجَله﴾ مع وَقْت حُلُوله. ﴿ذَلِكُمْ﴾ أَيْ الْكَتْب ﴿أَقْسَط عِنْد الله﴾ أي أَعْدَل عند الله؛ لأنه إذا كان مكتوبا كان إلى اليقين والصدق أقرب، وعن الجهل والكذب أبعد ﴿وَأَقْوَم لِلشَّهَادَةِ﴾ أَيْ أَعْوَن عَلَى ذِكْر الشهادة وإثباتها ﴿وَأَدْنَى﴾ أَقْرَب إِلَى ﴿أَلاَّ تَرْتَابُوا﴾ تَشُكُّوا فِي قَدْر الْحَقّ وَالأَجَل. فالأول إشارة إلى تحصيل مصلحة الدين، والثاني إشارة إلى تحصيل مصلحة الدنيا، وهذا الثالث إشارة إلى دفع الضرر عن النفس وعن الغير، ﴿إِلاَّ أَنْ تَكُون﴾ تَقَع ﴿تِجَارَة حَاضِرَة تُدِيرُونَهَا﴾ تعاطيها ﴿بَيْنَكُمْ﴾ يدًا بيدٍ. أَيْ تَقْبِضُونَ العوضين وَلا أَجَل فِيهما ﴿فليس عليكم جناح﴾ في ﴿أَلاَّ تكتبوها﴾ أي هذه التجارة الحاضرة. ﴿وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ أَدْفَع لِلاخْتِلافِ. ﴿وَلاَ يُضَارّ كَاتِب وَلاَ شَهِيد﴾ بِإجبارهما على مَا لاَ يَلِيق فِي الْكِتَابَة وَالشَّهَادَة من طرف الدائن أو المدين، ﴿وَإِنْ

تَفْعَلُوا﴾ أيها المتداينين! مَا نُهِيتُمْ عَنْهُ ﴿فَإِنَّهُ فُسُوق بِكُمْ﴾ خُرُوج عَنِ الطاعة، ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ فيما نهى عنه هاهنا، ﴿وَيُعَلِّمكُمُ اللهُ﴾ شرائع دينكم ومَصَالِح أُمُوركُمْ. حَال مُقَدَّرَة أَوْ مُسْتَأْنَف ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي بجميع مصالح الدنيا والآخرة. قال جمهور الفقهاء: الأمر بالكتابة والإشهاد للندب، وهما مندوبان لحفظ ما يقع بين المتعاقدين إلى حلول الأجل لأن النسيان يقع كثيرا في المدة التي بين العقد وحلول الأجل، وقد تطرأ عوارض من موت أو غيره، فشرع الله الكتابة والإشهاد لحفظ المال وضبط الواقع، ولم ينقل عن الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار أنهم كانوا يتشددون فيهما، بل كانت تقع المداينات والمبايعات بينهم من غير كتابة ولا إشهاد، ولم يقع نكير منهم، فدل ذلك على أن الأمر للندب. ﴿٢٨٣﴾﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَر﴾ أَيْ مُسَافِرِينَ وَتَدَايَنْتُمْ ﴿ولم تجدوا كاتبا فرهان﴾ جمع رهن ﴿مقبوضة﴾ تَسْتَوْثِقُونَ بِهَا. وَبَيَّنَتِ السُّنَّة جَوَاز الرَّهْن فِي الْحَضَر وَوُجُود الْكَاتِب. فَالتَّقَيُّد بِمَا ذُكِرَ؛ لأَنَّ التوثيق فيه أشد. وأفاد قَوْله مَقْبُوضَة اشْتِرَاط الْقَبْض فِي الرَّهْن ﴿فَإِنْ أَمِنَ بَعْضكُمْ بَعْضًا﴾ أي فإن أمن بعض الدائنين بعض المديونين بحسن ظنه به، فلم يتوثق بالكتابة، والشهود، والرهن ﴿فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اُؤْتُمِنَ﴾ أَيْ الْمَدِين ﴿أَمَانَته﴾ دَيْنه ﴿وَلْيَتَّقِ اللهَ رَبّه﴾ فِي أَدَائِهِ ﴿وَلاَ تَكْتُمُوا الشَّهَادَة﴾ إذَا دُعِيتُمْ لإِقَامَتِهَا ﴿وَمَنْ يَكْتُمهَا فَإِنَّهُ آثِم قَلْبه﴾ لأن كتمانها إثم كبير، يجعل القلب آثمًا، وصاحبه فاجرًا. خُصَّ القلب بالذِّكْرِ؛ لأَنَّهُ مَحَلّ الشَّهَادَة، وَلأَنَّهُ إذَا أَثِمَ تَبِعَهُ سائر الأعضاء. ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيم﴾ ختمت الآية الكريمة بهذه الجملة السامية، للوعد والوعيد، ببيان علم الله ذي الجلال والإكرام المنتقم الجبار علمًا دقيقًا بما يعمله كل إنسان؛ يعلم الخير والشر، ويعلم ما تخفي الصدور، وما تَكُنُّه القلوب، وما يظهر على الجوارح، فيجازي على الإحسان إحسانًا، وعلى السوء سوءً.

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾

﴿٢٨٤﴾﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ أي هو سبحانه المالك لما في

السماوات والأرض المطّلع على ما فيهن ﴿وَإِنْ تُبْدُوا﴾ أي تُظْهِرُوا بالكلام أو الفعل ﴿مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ كالشهادة على الخصوص، وكالسُّوء على العموم ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ تُسِرُّوهُ ككتمان الشهادة على الخصوص، وكالعزم على السوء على العموم ﴿يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ﴾ يَوْم الْقِيَامَة. قال الرازي: "الخواطر الحاصلة في القلب على قسمين: فمنها ما يوطن الإنسان نفسه عليه ويعزم على إدخاله في الوجود، ومنها ما لا يكون كذلك، بل تكون أمورا خاطرة بالبال مع أن الإنسان يكرهها ولكنه لا يمكنه دفعها عن النفس. فالقسم الأول يكون مؤاخذا به، والثاني لا يكون مؤاخذا به. ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لا يُؤاخِذُكُمُ اللهُ باللغْوِ فِي أَيْمانِكُمْ وَلكِنْ يُؤاخِذُكُمْ بِما كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ (المائدة، ٨٩/٥)." ﴿فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ أي أنه سبحانه بمقتضى علمه الشامل وإرادته النافذة، يحاسب عباده على ما أسروه وما أعلنوه من أقوال وأعمال، فيغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه ﴿وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وَمِنْهُ مُحَاسَبَتُكُمْ وَجَزَاؤُكُمْ، لا راد لمشيئته ولا معقب لحكمه. هذه الآية متممة لآخر كل من الآيتين السابقتين وهما: ﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَاللهُ بِما تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾، ودليل على أن ما في يد الإنسان عارية مُستردَّة، وأن المالك في الحقيقة هو الله سبحانه وتعالى، فلا يغتر ذو مال بماله، ولا تذهب به النهمة إلى طلبه من غير حلال، فإن يده زائلة عنه لاَ محالة، وعليه أن يجمل في الطلب.

وجاء في رواية مسلم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أنه قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾... فَاشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ ثُمَّ بَرَكُوا عَلَى الرُّكَبِ، فَقَالُوا: "أَيْ رَسُولَ اللهِ! كُلِّفْنَا مِنَ الأَعْمَالِ مَا نُطِيقُ، الصَّلاَةَ وَالصِّيَامَ وَالْجِهَادَ وَالصَّدَقَةَ، وَقَدِ أُنْزِلَتْ عَلَيْكَ هَذِهِ الآيَةُ وَلا نُطِيقُهَا." قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ

الْمَصِيرُ."، قَالُوا: "سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ." فَلَمَّا اقْتَرَأَهَا الْقَوْمُ، ذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِي إِثْرِهَا: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ نَسَخَهَا اللهُ تَعَالَى، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، قَالَ: "نَعَمْ"، ﴿رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾ قَالَ: نَعَمْ "، ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، قَالَ: "نَعَمْ"، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، قَالَ: "نَعَمْ." (مسلم، ١٢٥)

ليس في هذه الرواية أن النبي ﷺ صرح بأن الآية منسوخة. إنما هو وضح معنى ﴿يحاسبكم به الله﴾ بهاتين الآيتين وأزال بهما سوء الفهم، ولكن فهم بعض الصحابة أنهما نسخت ما قبلهما، والروايات عنهم في ذلك مختلفة. والقول بالنسخ ممنوع من وجوه: أحدها: أن قوله تعالى: ﴿يحاسبكم به الله﴾ خبر، والأخبار لا تنسخ كما هو معروف في علم الأصول. ثانيها: أن العبد يحاسب بكسب القلب –وهو العزم لا الهمّ– ظهر أثره على الجوارح أم لم يظهر، وهو ما دلت عليه الآية. والله أعلم!

الباب السابع: قوام الدعاة

وختمت السورة بتعداد أوصاف المؤمنين كما بدأت بها. وهو حسن تناسب بين الأول والآخر. وقد بين الله في أول السورة أصناف الناس من جهة الإيمان وأوصافهم، ثم ربى المؤمنين منهم بتعالم الإيمان والعمل، ثم ختم السورة ببيان درجة المؤمنين الذين تَشَرَّبوا هذه التعالم وأدعيتهم. وتلك الدرجة هي النتيجة المرجوة من هذه التربية.

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ

لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

﴿٢٨٥﴾﴿آمَنَ﴾ صَدَّقَ ﴿الرَّسُول﴾ مُحَمَّد ﷺ ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبّه﴾ مِنَ الْوَحْي ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عُطِفَ عَلَيهِ ﴿كُلّ﴾ تَنْوِينه عِوَض مِنَ الْمُضَاف إِلَيْهِ ﴿آمَنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَته وَكُتُبه وَرُسُله﴾ يَقُولُونَ ﴿لاَ نُفَرِّق بَيْن أَحَد مِنْ رُسُله﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعل اليهود والنصارى، بل نؤمن بجميع رسل الله دون تفريق ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا﴾ دعوتك ﴿وأطعنا﴾ أمرك ﴿غُفْرَانك رَبّنَا وَإِلَيْك الْمَصِير﴾ الْمَرْجِع بِالْبَعْثِ. وَلَمَّا نَزَلَتْ الآيَة الَّتِي قَبْلهَا شَكَا الْمُؤْمِنُونَ مِنَ الْوَسْوَسَة وَشَقَّ عَلَيْهِمْ الْمُحَاسَبَة بِهَا فَنَزَلَت: ﴿٢٨٦﴾﴿لاَ يُكَلِّف اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ أَيْ ما تسعه قدرتها كوسوسة الشيطان وهموم النفس ﴿لها ما كَسَبَتْ﴾ مِنَ الْخَيْر أَيْ ثَوَابه ﴿وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ مِنَ الشَّرّ أَيْ وِزْره. ثم طرق الكسب أربعة على الترتيب: الفعل، والكلام، والعزم، والهم. والثلاثة الأولى في الخير والشر سواء. وأما الرابعة فهو من طرق الكسب في الخير فقط؛ لأن النبي ﷺ قال: "إِنَّ اللهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ. فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً." (البخاري، ٦٤٩١) ﴿رَبّنَا لاَ تُؤَاخِذنَا﴾ بِالْعِقَابِ ﴿إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ وتَرَكْنَا الصَّوَاب لاَ عَنْ عَمْد. ﴿رَبّنَا وَلاَ تَحْمِل عَلَيْنَا إِصْرًا﴾ أَمْرًا يَثْقُل عَلَيْنَا حَمْله ﴿كَمَا حَمَلْته عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلنَا﴾ أي على بني إسرائيل بسبب تعنتهم وفسوقهم عن أمره. ومن ذلك تكليفهم بقتل أنفسهم إذا أرادوا أن يتوبوا توبة صادقة، وتحريم بعض الطيبات عليهم بسبب ظلمهم. قال تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ

وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللهِ كَثِيرًا. وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء، ٤/١٦٠-١٦١). والإصر في اللغة: الثقل والشدة. مأخوذ من أصر بمعنى حبس، فكأنه يحبس صاحبه في مكانه فيمنعه من الحركة. ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ﴾ قُوَّة ﴿لَنَا بِهِ﴾ مِنَ التَّكَالِيف وَالْبَلاَء. ﴿وَاعْفُ عَنَّا﴾ اُمْحُ ذُنُوبنَا، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ واستر ذنوبنا ﴿وَارْحَمْنَا﴾ زِيَادَة عَلَى العَفْوِ والْمَغْفِرَة. ما الفرق بين العفو والمغفرة والرحمة؟ الجواب: أن العفو أن يسقط عنه العقاب، والمغفرة أن يستر عليه جرمه صونا له من عذاب التخجيل والفضيحة. والأول: هو العذاب الجسماني، والثاني: هو العذاب الروحاني، فلما تخلص منهما أقبل على طلب الثواب، وهو أيضا قسمان: ثواب جسماني وهو نعيم الجنة ولذاتها وطيباتها، وثواب روحاني وغايته أن يتجلى له نور جلال الله تعالى. ويلاحظ أن عدم المؤاخذة على النسيان والخطأ يَسْتَتْبِعُ العفو، وأن عدم حمل الإصر يستوجب المغفرة، وأن عدم تحميل ما لا يطاق يَتَطَلَّبُ الرحمة. ﴿أَنْت مَوْلاَنَا﴾ متولي أمورنا، ومالكنا، وناصرنا ﴿فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ في محاربتنا معهم بالْغَلَبَة فِي قِتَالهمْ، وفي مناظرتنا معهم بالْحُجَّة عليهم؛ فَإِنَّ مِنْ شَأْن الْمَوْلَى أَنْ يَنْصُر مَوَالِيه عَلَى الأَعْدَاء.

تم تفسير سورة الفاتحة، والحمد لله رب العالمين،

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه أجمعين إلى يوم الدين.

القسم الثالث: سورة آل عمران

هذه السورة مَدَنِيَّة، وآياتها مِائَتَانِ. سميت هذه السورة في كلام النبي ﷺ وكلام الصحابة سورة آل عمران.

مسائلها: في هذه السورة ثلاثة فصول طويلة: الأول في صدد مناظرة بين النبي ﷺ وأهل الكتاب. والثاني في صدد مواقف اليهود ومكائدهم. والثالث في صدد وقعة حربية بين النبي والمسلمين والمشركين. وقد تخلل كل فصل ما يناسب موضوعه من محاجّات وتنديدات وتنويهات ومواعظ ومعالجات وتلقينات ومبادئ جليلة.

وقد أورد ابن هشام خبر قدوم وفد من نصارى نجران على النبي في سلسلة أخبار وقعت أحداثها قبل فتح مكة بمدة طويلة بل وقبل خبر وقعة أحد التي كانت في السنة الهجرية الثالثة. ولم يذكر تاريخا مع ذكره أن الشطر الأول من السورة قد نزل في مناسبة قدومه. وحينئذ يكون خبر قدوم الوفد بعد فتح مكة وكتابة النبي ﷺ عهدا له حادثا ثانيا.

ولقد أورد ابن هشام خبر قدوم وفد نجران قبل خبر وقعة أحد. وقد يؤيد كون وفد نجران جاء قبل وقعة أحد وورود فصل المناظرة في السورة قبل فصل أحد. ولعل انتصار النبي والمسلمين في بدر على أهل مكة كان ذا دويّ عظيم في أنحاء الجزيرة- وهذا مما لا يتحمل ريبا- حفّز نصارى نجران على إرسال وفدهم لاستطلاع النبأ النبوي العظيم وسهل قدومه. والله تعالى أعلم.

ومن المحتمل أن تكون مواقف اليهود التي جاء الفصل الثاني في صددها قدكانت في ظروف قدوم وفد نجران فوضعت فصلا ثانيا. وفي كتب التفسير روايات تذكر أن اليهود كانوا طرفا ثالثا في ما كان يجري من مناظرة بين النبي ووفد نجران. وفي هذا الفصل خطاب موجّه إلى أهل الكتاب عامة حينا، وإلى النصارى واليهود حينا، مما فيه

تأييد لذلك. ولقد ذكرت روايات المفسرين اسم بني النضير في سياق تفصيل المواقف اليهودية التي حكاها الفصل. وبنو النضير إنما أجلوا عن المدينة بعد وقعة أحد. وفي هذا تأييد آخر. وقد يدل هذا أن وقعة أحد قد كانت بعد ذلك فوضع فصلها بعد الفصلين. والله أعلم!

فضائلها: روى مسلم عن أبي أمامة الباهلي أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ -الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ-؛ فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافَّ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا." (مسلم، ٨٠٤)

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الباب الأول: خطاب الله عن أهل الكتاب

الفصل الأول: نصارى نجران

وقد أخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن المنذر عن جعفر بن محمد بن الزبير قال: "قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ستون راكبا، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم، فكلم رسول الله ﷺ، منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب، وعبد المسيح، والسيد -وهو الأيهم-." ثم ذكروا القصة في الكلام الذي دار بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأن الله أنزل في ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها. وانظر إلى سيرة ابن هشام لتفسيرها الموجز.

المبحث الأول: الوحي والإنسان

الم ﴿١﴾ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴿٣﴾ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ ﴿٥﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

﴿١﴾﴿الم﴾ الله أعلم بمراده بذلك كما تقدم في أول سورة البقرة ﴿٢﴾﴿الله﴾ مبتدأ خبره ﴿لا إله إلا هو الحي﴾ الباقي الدائم الذي لا يفنى ولا يموت ﴿القيوم﴾ القائم على تدبير شئون العباد. هي رد على المشركين، وعلى النصارى خاصة. ﴿٣﴾﴿نَزَّلَ﴾ منجمًا ﴿عَلَيْك﴾ يَا مُحَمَّد ﴿الْكِتَاب﴾ أي الْقُرْآن مُلْتَبِسًا ﴿بِالْحَقِّ﴾ بِالصِّدْقِ فِي

أَخْبَاره، ومصاحبا له، ومشتملا عليه ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْن يَدَيْهِ﴾ قَبْله مِنَ الْكُتُب ﴿وَأَنْزَلَ﴾ دفعةً ﴿التَّوْرَاةَ﴾ والتوراة اسم عبراني معناها الشريعة والتعاليم، وهي اسم للكتاب الذي أنزله الله تعالى على موسى عليه السلام ليكون شريعة له ولقومه. ﴿وَالإِنْجِيل﴾ والإنجيل كلمة يونانية معناها البشارة، وهي اسم للكتاب الذي أنزله الله على عيسى عليه السلام. ﴿٤﴾﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أَيْ قَبْل تَنْزِيل القرآن ﴿هُدًى﴾ حال من التوراة والإنجيل، و لم يثن لأنه مصدر. أي أنزل الكتابين العظيمين التوراة والإنجيل من قبل إنزال هذا القرآن هداية لبني إسرائيل ﴿لِلنَّاسِ﴾ مِمَّنْ تَبِعَهُمَا، ﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَان﴾ والمراد به عند أكثر المفسرين: الكتب السماوية التي سبق ذكرها؛ وهي التوراة، والإنجيل، والقرآن. أى أنزل بهذه الكتب ما يفرق به بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر. وقيل: وهو القرآن وكرّر تعظيمًا لشأنه. وقيل: وهو الزبور. وقيل: المراد منه المعجزات التي قرنها الله تعالى بإنزال هذه الكتب، وذلك لأنهم لما أتوا بهذه الكتب، وادعوا أنها كتب نازلة عليهم من عند الله افتقروا في إثبات هذه الدعوى إلى دليل حتى يحصل الفرق بين دعواهم وبين دعوى الكذابين. ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾ الْقُرْآن وَغَيْرَه ﴿لَهُمْ عَذَاب شَدِيد وَاللهُ عَزِيز﴾ غَالِب عَلَى أَمْره فَلاَ يَمْنَعهُ شَيْء مِنْ إِنْجَاز وَعْده وَوَعِيده ﴿ذُو انْتِقَام﴾ عُقُوبَة شَدِيدَة مِمَّنْ عَصَاهُ لاَ يَقْدِر عَلَى مِثْلهَا أَحَد. ﴿٥﴾﴿إِنَّ اللهَ لاَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء﴾ كَائِن ﴿فِي الأَرْض وَلاَ فِي السَّمَاء﴾ لِعِلْمِهِ بِمَا يَقَع فِي الْعَالَم مِنْ كُلِّيّ وَجُزْئِيّ، فهو يعلم القلوب وما تخفيه، فهو يعلم البواعث على الكفر، وأنها ليست نقصًا في الدليل، ولكنها مآرب الدنيا، والعصبية الجنسية والمذهبية. وذكر سبحانه السماء والأرض للإشارة إلى أن علمه قد وسع كل شيء؛ وسع السماوات والأرض، وليس الإنسان وما تحدثه به نفسه إلا شيئا صغيرا في هذا الملكوت العظيم، وذلك العالم بأرضه وسمائه، وَخَصَّهُمَا بِالذِّكْرِ؛ لأَنَّ الْحِسّ لاَ يَتَجَاوَزهُمَا. ﴿٦﴾﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَام كَيْف يَشَاء﴾ مِنْ ذُكُورَة وَأُنُوثَة، وَبَيَاض وَسَوَاد، وَغَيْر ذَلِكَ. هذا بيان لسبب علم الله بعامة، وعلمه بالإنسان بخاصة، فإنه علمُ المكوِّن المنشئ، الخالق المبدع،

ومن ذا الذي لاَ يعلم ما أنشأه، وكونه، وأبدعه على غير مثال سبق؟ فيه تعريضا بالرد على النصارى في اعتقادهم إلاهية عيسى عليه السلام من أجل أن الله صوره بكيفية غير معتادة، فبين لهم أن الكيفيات العارضة للموجودات كلها من صنع الله وتصويره؛ سواء المعتاد، وغير المعتاد. ﴿لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ الْعَزِيز﴾ فِي مُلْكه ﴿الْحَكِيم﴾ فِي صُنْعه.

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ ﴿٧﴾ رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لاَ يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٩﴾

﴿٧﴾﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْك الْكِتَاب مِنْهُ آيَات مُحْكَمَات﴾ وَاضِحَات الدَّلالَة ﴿هُنَّ أُمّ الْكِتَاب﴾ أَصْله الْمُعْتَمَد عَلَيْهِ فِي الأَحْكَام ﴿وَأُخَر مُتَشَابِهَات﴾ وهي نوعان: متشابهات مطلقة لا يفْهَم مَعَانِيهَا أحد من الناسِ كَحروف المقطعات، والدابة، والعرش؛ ومتشابهات إضافية فيها اشتباه في الدلالة على كثير من الناس كلفظ "موسعون". تنبيه: "وَجَعَلَ الله القرآنَ كُلّه مُحْكَمًا فِي قَوْله: ﴿أُحْكِمَتْ آيَاته﴾ (هود، ١/١١) بِمَعْنَى أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَيْب؛ وَمُتَشَابِهًا فِي قَوْله: ﴿كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ (الزمر، ٢٣/٣٩) بِمَعْنَى أَنَّهُ يُشْبِه بَعْضه بَعْضًا فِي الْحُسْن وَالصِّدْق، وبذلك لا اختلاف بين هذه الآيات." فمن ردّ المتشابه إلى المحكم الواضح فقد اهتدى، وإن عكس فقد ضلّ ولهذا قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغ﴾ مَيْلٌ عَنِ الْحَقّ ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء﴾ طَلَب ﴿الْفِتْنَة﴾ أي الإضلال والتشكيك ﴿وَابْتِغَاء تَأْوِيله﴾ تَفْسيره الباطل الضال ﴿وَمَا يَعْلَم تَأْوِيله﴾ تَفْسِيره الحق الحتم ﴿إِلاَّ الله﴾ عز وجل. توجه الكلام هنا إلى إزالة شبهة النصارى في شأن زعمهم اعتراف نصوص القرآن بإلهية المسيح؛ إذ وصف فيها بأنه روح الله، وأنه يحي الموتى، وأنه كلمة الله، وغير ذلك. فنودي عليهم بأن ما تعلقوا به

تعلق اشتباه وسوء تأويل ﴿وَ﴾ وهو إما استئناف والمعنى لا يعلم تأويله إلا الله وحده، أو عطف والمعنى لا يعلم تأويله إلا الله والراسخون. والأول أرجح. ﴿الرَّاسِخُونَ﴾ الثَّابِتُونَ الْمُتَمَكِّنُونَ ﴿فِي الْعِلْمِ﴾ مُبْتَدَأ خَبَره ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ أَيْ بِالْمُتَشَابِهِ أَنَّهُ مِنْ عِنْد الله ﴿كُلّ﴾ مِنَ الْمُحْكَم وَالْمُتَشَابِه ﴿مِنْ عِنْد رَبّنَا وَمَا يَذَّكَّر﴾ بِإِدْغَامِ التَّاء فِي الأَصْل فِي الذَّال، أَيْ يَتَّعِظ ﴿إلا أولوا الأَلْبَاب﴾ أَصْحَاب الْعُقُول الخالصة السليمة. وَيَقُولُونَ أَيْضًا إِذَا رَأَوْا من يتبعه: ﴿٨﴾﴿رَبّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبنَا﴾ تَمِلْهَا عَنِ الْحَقّ بِابْتِغَاءِ تَأْوِيله الباطل كَمَا أَزَغْت قُلُوب أُولَئِكَ لسوء نياتهم وتصرفاتهم ﴿بَعْد إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ أَرْشَدْتَنَا إِلَيْهِ ﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْك﴾ مِنْ عِنْدك ﴿رَحْمَة﴾ تَثْبِيتًا على الحق ﴿إنك أنت الوهاب﴾ إنك تهب عطاء بلا مقابل. ﴿٩﴾﴿رَبّنَا إِنَّك جَامِع النَّاس﴾ تَجْمَعهُمْ ﴿لِيَوْمٍ﴾ أَيْ فِي يَوْم ﴿لاَ رَيْب﴾ لاَ شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ أي في وقوعه، هُوَ يَوْم الْقِيَامَة فَتُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ كَمَا وَعَدْت بِذَلِكَ ﴿إِنَّ الله لاَ يُخْلِف الْمِيعَاد﴾ أي لا يخلف ما وعد المسلمين والكافرين من جمع الناس يوم القيامة، والثواب، والعقاب. فِيهِ الْتِفَات عَنِ الْخِطَاب، وَيَحْتَمِل أَنْ يَكُون مِنْ كَلاَمه تَعَالَى. وَالْغَرَض مِنَ الدُّعَاء بِذَلِكَ بَيَان أَنَّ هَمَّهُمْ أَمْر الآخِرَة وَلِذَلِك سَأَلُوا الثَّبَات عَلَى الْهِدَايَة لِيَنَالُوا ثَوَابهَا.

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١١﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٢﴾ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ ﴿١٣﴾

اعلم أن الله سبحانه وتعالى لما حكى عن المؤمنين دعاءهم وتضرعهم، حكى كيفية حال الكافرين وشديد عقابهم. ولما تحقق أن يوم الجمع كائن لا محالة تحقق أن من نتائجه تحقيقاً لعزته سبحانه وتعالى وانتقامه من الكفرة. قال الله تعالى: ﴿١٠﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ

كَفَرُوا﴾ بكتاب الله. وهو عام في الكفرة. وقيل: المراد به وفد نجران، أو اليهود، أو مشركوا العرب ﴿لَنْ تُغْنِي﴾ تَدْفَع ﴿عَنْهُمْ أَمْوَالهمْ وَلاَ أَوْلاَدهمْ مِنَ الله شَيْئًا﴾ أَيْ من عَذَابه. قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾ (السبأ، ٣٤/٣٤-٣٧) ﴿وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُود النَّار﴾ الوقود مَا تُوقَد به النار كالحطب وغيره. دَأْبُهُم ﴿١١﴾﴿كَدَأْبِ آل فِرْعَوْن﴾ أي كَعَادَتِهم. والدأب أصله الدوام والاستمرار. ثم غلب استعماله في الحال والعادة؛ لأن من يستمر في عمل أمدا طويلا يصير عادة من عاداته، وحالا من أحواله. ﴿وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ﴾ مِنَ الأُمَم كَعَادٍ وَثَمُود ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ كذبوا بالآيات المتلوة والمعجزات الدالة على صدق الأنبياء فيما يبلغونه عن ربهم ﴿فَأَخَذَهُمُ الله﴾ أَهْلَكَهُمْ ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ وَالْجُمْلَة مُفَسِّرَة لِمَا قَبْلهَا ﴿وَالله شَدِيد الْعِقَاب﴾ لمن كفر بآياته. وَنَزَلَ لَمَّا أَمَرَ النَّبِيّ ﷺ الْيَهُود بِالإِسْلامِ بَعْد مَرْجِعه مِنْ بَدْر فَقَالُوا: "لاَ يَغُرَّنك أَنْ قَتَلْت نَفَرًا مِنْ قُرَيْش أَغْمَارًا لاَ يعرفون القتال." (أبو داود، ٣٠٠١) ﴿١٢﴾﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مِنَ الْيَهُود وأمثالهم من النصارى والمشركين ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ -بِالتَّاءِ وَالْيَاء- فِي الدُّنْيَا بِالْقَتْلِ وَالأَسْر وَضَرْب الْجِزْيَة، وَقَدْ وَقَعَ كما أخبر به الله تعالى، فقد دارت الدائرة على اليهود من بني قينقاع والنضير وقريظة وغيرهم بعد بضع سنوات من الهجرة، وتم فتح مكة في السنة الثامنة بعد الهجرة، وضرب الجزية على أهل نجران في السنة التاسعة. ﴿وَتُحْشَرُونَ﴾ فِي الآخِرَة ﴿إِلَى جَهَنَّم﴾ فَتَدْخُلُونَهَا، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَاد﴾ الفراش هي. ﴿١٣﴾﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَة﴾ علامة عظيمة ودلالة واضحة على أن الكافرين سيغلبون والمؤمنين سينصرون ﴿فِي فِئَتَيْنِ﴾ فِرْقَتَيْنِ ﴿الْتَقَتَا﴾ يَوْم بَدْر لِلْقِتَالِ ﴿فِئَة تُقَاتِل فِي سَبِيل الله﴾ وهم النبي وأصحابه، وكانوا ثلاثمائة وَثَلاَثَة عَشَرَ رَجُلاً، مَعَهُمْ فَرَسَانِ،

وَسِتّ أَدْرُع، وَثَمَانِيَة سُيُوف، وَأَكْثَرهمْ رَجَّالَة ﴿وَأُخْرَى كَافِرَة﴾ وهم مشركو أهل مكة، وَكَانُوا نَحْو أَلْف ﴿يَرَوْنَهُمْ مثليهم﴾ أي يرى المشركون المسلمين مثلي عددهم ﴿رَأْي الْعَيْن﴾ أَيْ رُؤْيَة ظَاهِرَة مُعَايَنَة، لا لبس فيها ﴿وَاللهُ يُؤَيِّد﴾ يُقَوِّي ﴿بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاء﴾ كما أيد أهل بدر. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ في تكثير القليل ﴿لَعِبْرَة لأُولِي الأَبْصَار﴾ لِذَوِي الْبَصَائِر، أَفَلاَ تَعْتَبِرُونَ بِذَلِكَ فَتُؤْمِنُونَ.

لما بين أن ﴿الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم﴾ التي أعرضوا عن الحق لأجلها، بين وجه غرورهم بها للتحذير من جعلها آلة للغرور، وترك الاعتبار والحق، وللتذكير بأنه لا ينبغي أن تشغل الإنسان عن الآخرة.

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَأُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ ﴿١٧﴾

﴿١٤﴾﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبّ الشَّهَوَات﴾ أي حب مَا تَشْتَهِيه النَّفْس، زَيَّنَهَا الله ابْتِلاَء ﴿مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِير﴾ الأَمْوَال الْكَثِيرَة. والقناطير جمع قنطار، وهو مأخوذ من عقد الشيء وإحكامه. قال الرازي: "القنطار مال كثير يتوثق الإنسان به في دفع أصناف النوائب." ﴿الْمُقَنْطَرَة﴾ الْمُجْمَعَة. ومن عادة العرب أن يصفوا الشيء بما يشتق منه للمبالغة. أي والقناطير المضاعفة المتكاثرة المجموعة قنطارا قنطارا ﴿مِنَ الذَّهَب﴾ سمي ذهبًا لسرعة ذهابه بالإنفاق، ﴿وَالْفِضَّة﴾ سمي فضةً؛ لأنها تتفرق بالإنفاق، والفض التفريق، ﴿وَالْخَيْل الْمُسَوَّمَة﴾ أى الراعية في المروج والمسارح. يقال: "سوّم ماشيته" إذا أرسلها في المرعى؛ أو المطهمة الحسان من السيما بمعنى الحسن؛ أو المعلمة ذات الغرة والتحجيل من السمة بمعنى العلامة؛ أو الأصيلة الحسان ﴿وَالأَنْعَام﴾ وَالأَنْعامِ جمع نَعَم.

وهي الإبل، والبقر، والغنم. ﴿وَالْحَرْث﴾ الزَّرْع. ﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُور ﴿مَتَاع الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾ يَتَمَتَّع بِهِ فِيهَا ثُمَّ يَفْنَى ﴿وَاَللَّه عِنْده حُسْن الْمَآب﴾ الْمَرْجِع، وَهُوَ الْجَنَّة. فهي الأحق بالرغبة فيها لبقائها. ﴿١٥﴾﴿قل﴾ يا محمد للناس الذين مالوا إلى شهوات الدنيا ﴿أأنبئكم﴾ أُخْبِركُمْ ﴿بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ﴾ الْمَذْكُور مِنَ الشَّهَوَات. والاسْتِفْهَام للتقْرِير، والمراد به التحقيق والتثبيت في نفوس المخاطبين؛ ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ الشِّرْك ﴿عِنْد رَبّهمْ﴾ خَبَر، مُبْتَدَؤُهُ ﴿جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا﴾ أي من تحت أشجارها ﴿الأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا. والخلود البقاء إلى غير نهاية. ويستعمل بمعنى البقاء مدة طويلة، ﴿وَأَزْوَاج مُطَهَّرَة﴾ يدخل في ذلك الطهارة من الحيض والنفاس وسائر الأحوال التي تظهر عن النساء في الدنيا مما ينفر عنه الطبع؛ ويدخل فيه كونهن مطهرات من الأخلاق الذميمة، ومن القبح وتشويه الخلقة؛ ويدخل فيه كونهن مطهرات من سوء العشرة. ﴿وَرِضْوَان مِنَ اللَّه﴾ أي رضا من الله. قال الرازي: "الجنات" بما فيها إشارة إلى الجنة الجسمانية، و"الرضوان" فهو إشارة إلى الجنة الروحانية وأعلى المقامات، إنما هو الجنة الروحانية، وهو عبارة عن تجلي نور جلال الله تعالى في روح العبد واستغراق العبد في معرفته، ثم يصير في أول هذه المقامات راضيا عن الله تعالى، وفي آخرها مرضيا عند الله تعالى، وإليه الإشارة بقوله: ﴿راضية مرضية﴾ (الفجر، ٢٨/٨٩) ﴿وَاَللَّه بَصِير﴾ عَالِم ﴿بِالْعِبَادِ﴾ فَيُجَازِي كُلاًّ مِنْهُمْ بِعَمَلِهِ. ﴿١٦﴾﴿الَّذِينَ﴾ نَعْتٌ أَوْ بَدَلٌ مِنْ الَّذِينَ قَبْله ﴿يَقُولُونَ﴾ يَا ﴿رَبّنَا إِنَّنَا آمَنَّا﴾ صَدَّقْنَا بِك وَبِرَسُولِك ﴿فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار﴾ وهم ﴿١٧﴾﴿الصَّابِرِينَ﴾ عَلَى الطَّاعَة، وَعَنِ الْمَعْصِيَة، وعلى المصائب ﴿وَالصَّادِقِينَ﴾ فِي الإِيمَان ﴿وَالْقَانِتِينَ﴾ الْمُطِيعِينَ لِلَّهِ فِي الشدة والرخاء ﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾ الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿والمستغفرين﴾ الله بِأَنْ يَقُولُوا اللهُمَّ اغْفِرْ لَنَا ﴿بِالأَسْحَارِ﴾ في كل وقت، ولا سيما في الأسحار. والأسحار جمع سحر، وهو الوقت الذي يكون قبل الفجر. وخص وقت الأسحار بالذكر؛ لأن النفس تكون فيه أصفى، والقلب فيه أجمع، ولأنه وقت يستلذ فيه الكثيرون النوم، فإذا أعرض المؤمن عن تلك اللذة وأقبل على ذكر الله كانت الطاعة

أكمل وأقرب إلى القبول.

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾

﴿١٨﴾﴿شهد الله﴾ أي أعلم عباده بالآيات القرآنية التي أنزلها على نبيه مثل قوله تعالى: ﴿الله لا إله إلا هو الحي القيوم﴾ (آل عمران، ٢/٣)، وبالآيات الكونية التي لا يقدر على خلقها أحد سواه، وبغير ذلك من الأدلة القاطعة التي تشهد بوحدانيته ﴿أَنَّهُ لاَ إِلَه إلا هو﴾ أَيْ لاَ مَعْبُود في الوجود بحق إلا الله. هي رد على المشركين والنصارى خاصة. ﴿و﴾ شهد بذلك ﴿الملائكة﴾ بالإقرار ﴿وأولوا الْعِلْم﴾ مِنَ الأَنْبِيَاء وَالْمُؤْمِنِينَ بالإقرار أيضا. كل واحد منهم ﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾ بِالْعَدْلِ في أداء هذه الشهادة ﴿لاَ إِلَه إِلاَّ هُوَ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا، ﴿الْعَزِيز﴾ فِي مُلْكه ﴿الْحَكِيم﴾ فِي صُنْعه. ﴿١٩﴾﴿إِنَّ الدِّين﴾ الْمَرْضِيّ ﴿عِنْد الله﴾ هُوَ ﴿الإِسْلاَم﴾ أَيْ الشَّرْع الْمَبْعُوث بِهِ الرُّسُل الْمَبْنِيّ عَلَى التَّوْحِيد. ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب﴾ الْيَهُود وَالنَّصَارَى فِي الدِّين. أي إنّ كثيرين من أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم، ﴿وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ (البقرة، ١١٣/٢). واختلفت كل طائفة

فيما بينهم على فرق، كل واحدة تحسب أنها اختصت بالخلاص وحدها، وتكفر الأخرى أو تُشَلِّحُها من حظيرة الإيمان المقدسة. ﴿إِلاَّ مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمْ الْعِلْم﴾ أي الدلائل في الحقيقة ﴿بَغْيًا بينهم﴾ ظلما، وتحاسدا، وتغالبا بالباطل بينهم ﴿ومن يكفر بآيات الله﴾ دلائله ﴿فَإِنَّ الله سَرِيع الْحِسَاب﴾ أَيْ الْمُجَازَاة لَهُ. ﴿٢٠﴾﴿فَإِنْ حَاجُّوك﴾ فإن جادلوك في الدين رغم الدلائل السابقة كما تخاصموا بينهم فيه ﴿فقل﴾ لهم ﴿أسلمت وجهي لله﴾ أي أقبلت عليه بعبادتي مخلصا له معرضا عما سواه. والمراد بالوجه هنا الذات، وعبر بالوجه عن سائر الذات؛ لأنه أشرف أعضاء الشخص. ﴿وَمَنْ اتَّبَعَنِ﴾ كذلك. ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب﴾ الْيَهُود وَالنَّصَارَى ﴿وَالأُمِّيِّينَ﴾ مُشْرِكِي الْعَرَب. وسمى العرب بالأميين نسبة إلى الأم، وذلك لغلبة الأمية عليهم، لكأن الواحد منهم قد بقي على الحالة التي ولدتهم عليها أمهاتهم من عدم القراءة والكتابة ﴿أَأَسْلَمْتُمْ﴾ أي أَسْلِمُوا، فقد أتاكم من البينات ما يقتضي حصول الإسلام ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا﴾ مِنَ الضَّلَال ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عَنِ الإِسْلَام ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْك الْبَلاَغ﴾ أَيْ التَّبْلِيغ لِلرِّسَالَةِ ﴿وَالله بَصِير بِالْعِبَادِ﴾ فَيُجَازِيهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ. ﴿٢١﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ الله وَيَقْتُلُونَ﴾ وَفِي قِرَاءَة: "يُقَاتِلُونَ" ﴿النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقّ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. وعلى قراءة "يُقَاتِلُونَ" فالمعنى يشمل على مشركي العرب الذين حاولوا قتل محمد ﷺ، واليهود، والنصارى ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ أي بالحق ﴿مِنَ النَّاس﴾ من مرشديهم ونصحائهم. ﴿فَبَشِّرْهُمْ﴾ أَعْلِمْهُمْ ﴿بِعَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم. وَذِكْر الْبِشَارَة تَهَكُّم بِهِمْ. ﴿٢٢﴾﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ﴾ بَطَلَتْ ﴿أَعْمَالهمْ﴾ التي عملوها من البر والحسنات ﴿فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَة﴾ لا ينتفعون بشيء منها لعدم الإيمان ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ مَانِعِينَ مِنَ الْعَذَاب ﴿٢٣﴾﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تَنْظُر، للتعجيب من شأنهم ومن سوء صنيعهم ﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا﴾ وهم أحبار اليهود أو عامتهم ﴿نَصِيبًا﴾ حَظًّا ﴿مِنَ الْكِتَاب﴾ إن كان "من" للتبعيض بعض التَّوْرَاة، وإن كان للبيان تمام التوراة ﴿يُدْعَوْنَ﴾ حَال ﴿إِلَى كِتَاب الله﴾ أي التوراة؛ لأن التعجيب من حالهم يكون أشد إذا كان

إعراضهم إنما هو عن كتابهم ﴿لِيَحْكُم بَيْنهمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى﴾ عن سماع الحق ﴿فَرِيق مِنْهُمْ﴾ وإنما قال فَرِيقٌ مِنْهُمْ ليخرج القلة التي أسلمت من علماء اليهود كعبد الله بن سلام. وهذا من إنصاف القرآن في أحكامه. ﴿وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ عَنْ قَبُول حُكْمه. حال مؤكد لجملة يتولى فريق؛ إذ التولي هو الإعراض. قيل: نَزَلَتْ فِي الْيَهُود زَنَى مِنْهُمْ اثْنَانِ فَتَحَاكَمُوا إِلَى النَّبِيّ ﷺ فَحَكَمَ عَلَيْهِمَا بِالرَّجْمِ فَأَبَوْا، فَجِيءَ بِالتَّوْرَاةِ، فَوَجَدَ فِيهَا، فَرُجِمَا فغضبوا. ﴿٢٤﴾﴿ذَلِكَ﴾ التَّوَلِّي وَالإِعْرَاض ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ أَيْ بِسَبَبِ قَوْلهمْ ﴿لَنْ تَمَسّنَا النَّار إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَات﴾ أي سببه أنهم سهلوا على أنفسهم أمر العقاب، وتوهموا أنهم لن يعذبوا عذابا طويلا، بل النار ستمسهم أياما قليلة، ثم بعد ذلك يخرجون منها، لأنهم أبناء الله وأحباؤه، ولأن آباءهم سيشفعون لهم في زعمهم ﴿وَغَرَّهُمْ فِي دِينهمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ مِنْ قَوْلهمْ أن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات. ﴿٢٥﴾﴿فَكَيْفَ﴾ حَالهمْ ﴿إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ﴾ أَيْ فِي يَوْم ﴿لاَ رَيْب﴾ لاَ شَكَّ ﴿فِيهِ﴾ هُوَ يَوْم الْقِيَامَة، ﴿وَوُفِّيَتْ كُلّ نَفْس﴾ مِنْ أَهْل الْكِتَاب وَغَيْرهمْ جَزَاءُ ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ عَمِلَتْ مِنْ خَيْر وَشَرّ ﴿وَهُمْ﴾ أَيْ النَّاس ﴿لاَ يُظْلَمُونَ﴾ بِنَقْصِ حَسَنَة أَوْ زِيَادَة سَيِّئَة.

قُلِ اللهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾ لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي

يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾

﴿٢٦﴾﴿قُلْ اللهُمَّ﴾ يَا الله ﴿مَالِك الْمُلْك تُؤْتِي﴾ تُعْطِي ﴿الْمُلْك﴾ من النبوة والسلطة ﴿مَنْ تُشَاء﴾ مِنْ خَلْقك. قيل: والمراد به محمد ﷺ وأمته ﴿وَتَنْزِع الملك ممن تشاء﴾ يسلب منه هذا العطاء. قيل: والمراد به اليهود والنصارى ﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ بإتيانه ﴿وَتُذِلّ مَنْ تَشَاء﴾ بِنَزْعِهِ مِنْهُ. قال الرازي: وقوله ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشاءُ﴾ محمول على جميع أنواع الملك، فيدخل فيه؛ ملك النبوة، وملك العقل، والصحة، والأخلاق الحسنة. وملك النفاذ والقدرة، وملك المحبة، وملك الأموال. وذلك لأن اللفظ عام فالتخصيص من غير دليل لا يجوز." ﴿بِيَدِك﴾ بِقُدْرَتِك حزائن ﴿الْخَيْر﴾ يؤتيه من يشاء ﴿إنك على كل شيء قدير﴾ ومنه إتيان الملك ونزعه، لا يقدر على ذلك غيرك. ﴿٢٧﴾﴿تُولِج﴾ تُدْخِل ﴿اللَّيْل فِي النَّهَار وَتُولِج النَّهَار﴾ تُدْخِلهُ ﴿فِي اللَّيْل﴾ فَيَزِيد كُلّ مِنْهُمَا بِمَا نَقَصَ مِنَ الآخَر ﴿وَتُخْرِج الْحَيّ مِنَ الْمَيِّت﴾ كَالإِنْسَانِ وَالطَّائِر مِنَ النُّطْفَة وَالْبَيْضَة ﴿وَتُخْرِج الْمَيِّت﴾ كَالنُّطْفَةِ وَالْبَيْضَة ﴿مِنْ الْحَيّ﴾ بتلك القدرة ﴿وَتَرْزُق مَنْ تَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب﴾ أَيْ رِزْقًا وَاسِعًا مثل إعطاء السلطة والنبوة والمعجزات. هي رد على النصارى. وقال ابن هشام: "أي فإن كنت سلطت عيسى على الأشياء التي بها يزعمون أنه إله، من إحياء الموتى، وإبراء الأسقام والخلق للطير من الطين، والإخبار عن الغيوب، لأجعله به آية للناس، وتصديقا له في نبوته التي بعثته بها إلى قومه، فإن من سلطاني وقدرتي ما لم أعطه تمليك الملوك بأمر النبوة، ووضعها حيث شئت، وإيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وإخراج الحي من الميت، وإخراج الميت من الحي، ورزق من شئت من بر أو فاجر بغير حساب، فكل ذلك لم أسلط عيسى عليه، و لم أملكه إياه، أفلم تكن لهم في ذلك عبرة وبينة! أن لو كان إلها كان ذلك كله إليه، وهو في علمهم يهرب من الملوك، وينتقل منهم في البلاد، من بلد إلى بلد." بعد أن أبان الله تعالى أن الأمر بيد الله، وأنه مالك الملك، المعزّ والمذلّ، المعطي

والمانع، وأنه على كلّ شيء قدير، نبّه المؤمنين إلى أنه يجب الالتجاء إليه وحده والاستعانة بأوليائه دون أعدائه، وأنه لا ينبغي لهم أن يوالوا أعداءه، أو يستعينوا بهم لقرابة أو صداقة قديمة. ﴿٢٨﴾﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾ يُوَالُونَهُمْ ﴿مِنْ دُونِ﴾ أَيْ غَيْر ﴿الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَل ذَلِكَ﴾ أَيْ يُوَالِيهِمْ ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ﴾ أي فليس من ولاية الله في شيء؛ لأن موالاة الولي وموالاة عدوه متنافيان ﴿إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ أي لا تتخذوا الكافرين أولياء في أي حال من الأحوال إلا في حال اتقائكم منهم. أي إلا أن يكون للكفار عليكم سلطان فتخافوهم على نفسكم ومالكم، فحينئذ يجوز لكم إظهار الموالاة وإبطال المعاداة -مُوَالاتهم بِاللِّسَانِ دُون الْقَلْب-. وَهَذَا قَبْل عِزَّة الإِسْلام، وَيَجْرِي فِيمَنْ هُوَ فِي بَلَد لَيْسَ قَوِيًّا فِيهَا ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ﴾ يُخَوِّفكُمْ ﴿اللهُ نَفْسه﴾ أَنْ يَغْضَب عَلَيْكُمْ إِنْ وَالَيْتُمُوهُمْ ﴿وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرِ﴾ الْمَرْجِع لا إلى غيره، فَيُجَازِيكُمْ. ﴿٢٩﴾﴿قُلْ﴾ قل يا محمد! لهؤلاء الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين على الخصوص، وقل لغيرهم على العموم ﴿إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قُلُوبِكُمْ مِثل مُوَالاتهمْ ﴿أَوْ تُبْدُوهُ﴾ تُظْهِرُوهُ ﴿يَعْلَمهُ اللهُ﴾ على سواء ﴿وَيَعْلَم مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض وَاللهُ عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير﴾ وَمِنْهُ تَعْذِيب من والاهم. واذْكُروا ﴿٣٠﴾﴿يَوْم تَجِد كُلّ نَفْس مَا عَمِلَتْ﴾ـــهُ ﴿مِنْ خَيْر مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ﴾ـــهُ ﴿مِنْ سُوء﴾ مُبْتَدَأ خَبَره ﴿تَوَدّ لَوْ أَنَّ بَيْنهَا وَبَيْنه أَمَدًا بَعِيدًا﴾ مسافةً بعيدةً غَايَةً فِي نِهَايَة الْبُعْد فَلاَ يَصِل إِلَيْهَا. والأمد غاية الشيء ومنتهاه. وهو يستعمل في الزمان والمكان. ﴿وَيُحَذِّرُكُمْ اللهُ نَفْسه﴾ كرر التأكيد ﴿والله رؤوف بالعباد﴾ ومن مظاهر رأفته ورحمته أنه حذر عباده قبل أن يعاقبهم، وأنه يعفو عن كثير من ذنوب عباده، وأنه فتح لهم باب التوبة حتى يقلعوا عن خطاياهم. وانتقال إلى الترغيب بعد الترهيب على عادة القرآن. ﴿٣١﴾﴿قُلْ﴾ يَا مُحَمَّد! للمؤمنين، أو لأهل الكتاب. قال ابن إسحاق: "نزلت في نصارى نجران وذلك أنهم قالوا: إنما نعظم المسيح ونعبده حبا الله وتعظيما له فأنزل الله هذه الآية ردا عليهم." وقال بعضهم عن الحسن البصري: "قال قوم على

عهد النبي ﷺ: يا محمد! إنا نحب ربنا! فأنزل الله الآية." ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمْ اللهُ﴾ بِمَعْنَى يُثِيبكُمْ ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبكُمْ﴾ والمراد بها أهل الكتاب على الخصوص، وجميع المؤمنين على العموم. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ﴾ (المائدة، ١٨/٥). وقال ابن كثير: "هذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كل من ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه تلك حتى يتّبع الشرع المحمدي في جميع أقواله وأفعاله." ﴿وَاللهُ غَفُورٌ﴾ لِمَنِ اتَّبَعَنِي مَا سَلَفَ مِنْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ﴿رَحِيمٌ﴾ بِهِ. ﴿٣٢﴾﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿أَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ﴾ فِيمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ مِنَ التَّوْحِيدِ وغيره ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الطَّاعَةِ ﴿فَإِنَّ اللهَ لاَ يُحِبّ الْكَافِرِينَ﴾ أَيْ لاَ يُحِبّهُمْ بِمَعْنَى أَنَّهُ يُعَاقِبهُمْ.

المبحث الثاني: قصص آل عمران

اعلم بعد أن بيّن الله تعالى أن محبته تستلزم اتباع رسوله، ناسب أن يذكر من أحبهم واصطفاهم من الرسل وذرياتهم الذين يبينون للناس طريق المحبة. وهي الإيمان بالله مع طاعته وطاعة رسله الكرام.

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾

﴿٣٣﴾﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى﴾ اخْتَارَ ﴿آدَمَ﴾ أبا البشر ﴿وَنُوحًا﴾ أبا البشر الثاني ﴿وَآلَ إِبْرَاهِيمَ﴾ وهم ذريته وأقاربه؛ كإسماعيل وإسحاق، والأنبياء من أولادهما مثل موسى عليه السلام ومحمد ﷺ، ولوط عليه السلام من أقاربه ﴿وَآلَ عِمْرَانَ﴾ وهم ذريته وأقاربه؛ كبنته مريم عليها السلام، وحفيده عيسى عليه السلام، وزكريا ويحيى عليهما السلام، ومن تلك الدَّوْحَةِ النبويةِ عيسى عليه السلام الذي ختمت به تلك الشعبة من أولاد إبراهيم عليه السلام ﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ بجعل الأَنْبِيَاء مِنْ نَسْلهمْ وأقاربهم ﴿٣٤﴾﴿ذرية بعضها من بعض﴾ فهم متصلو النسب بسلسلة لاَ تنقطع، فنوح من ذرية آدم، وآلُ إبراهيم من ذرية نوح، وآل عمران من ذرية آل إبراهيم،

وهكذا، فهي سلسلة متصل بعضها ببعض في النسب والهداية. ﴿والله سميع عليم﴾ بأقوال بعضكم في بعض هذه الذرية كقول اليهود في عيسى وأمه وتكذيبهم، وتكذيب اليهود والنصارى لمحمد ﷺ. قال ابن عاشور: "والغرض من ذكر هؤلاء تذكير اليهود والنصارى بشدة انتساب أنبيائهم إلى النبي محمد ﷺ، فما كان ينبغي أن يجعلوا موجب القرابة موجب عداوة وتفريق."

المطلب الأول: الأم والبنت حنة ومريم

إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَامَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾

اُذْكُرْ ﴿٣٥﴾﴿إِذْ قَالَتْ امْرَأَة عِمْرَان﴾ حَنَّة لَمَّا أَسَنَّتْ وَاشْتَاقَتْ لِلْوَلَدِ فَدَعَتِ الله، وَأَحَسَّتْ بِالْحَمْلِ ﴿رَبّ إِنِّي نَذَرْت﴾ أَنْ أَجْعَل ﴿لَك مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ عَتِيقًا خَالِصًا مِنْ شَوَاغِل الدُّنْيَا لِخِدْمَةِ بَيْتك الْمُقَدَّس ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّك أَنْت السَّمِيع﴾ لِلدُّعَاءِ ﴿الْعَلِيم﴾ بِالنِّيَّاتِ. وَهَلَكَ عِمْرَان وَهِيَ حَامِل، ﴿٣٦﴾﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ وَلَدَتْهَا جَارِيَة ﴿قَالَتْ﴾ مُعْتَذِرَة ﴿رَبّ إِنِّي وَضَعْتهَا أنثى﴾ وَكَانَتْ تَرْجُو أَنْ يَكُون غُلَامًا إِذْ لَمْ يَكُنْ يُحَرَّر إِلاَّ الْغِلْمَان ﴿وَالله أَعْلَم بِمَا وَضَعَتْ﴾ جُمْلَة اعْتِرَاض مِنْ كَلَامه تَعَالَى. وَفِي قِرَاءَة بِضَمِّ التَّاء ﴿وَلَيْسَ الذَّكَر﴾ الَّذِي طَلَبْت ﴿كَالْأُنْثَى﴾ الَّتِي وَهَبْت؛ لأَنَّهُ يُقْصَد لِلْخِدْمَةِ، وَهِيَ لاَ تَصْلُح لِضَعْفِهَا وَعَوْرَتهَا وَمَا يَعْتَرِيهَا مِنَ الْحَيْض وَنَحْوه ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتهَا مَرْيَم﴾ قيل: معناها في لغتهم العابدة، فأرادت بهذه التسمية التقرب إلى الله. قال المعاصرون: "وهو في اللغة المصرية القديمة بمعنى المحبوبة؛ وفي العبرانية القديمة الْمُرّ أو قطرة الماء." والله أعلم! ﴿وَإِنِّي أُعِيذهَا بِك وَذُرِّيَّتهَا﴾ أَوْلاَدهَا ﴿مِنَ الشَّيْطَان الرَّجِيم﴾

والرجيم فعيل بمعنى مفعول. أي أنه مرجوم مطرود من رحمة الله ومن كل خير. وقيل: "رجيم بمعنى راجم؛ لأنه يرجم الناس بالوساوس والشرور." وجاء فِي الْحَدِيث: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُولَدُ إِلاَّ وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُولَدُ، فَيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلاَّ مَرْيَمَ وَابْنَهَا." (البخاري، ٤٥٤٨). ﴿٣٧﴾﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾ أَيْ قَبِلَ مَرْيَم مِنْ أُمّهَا ﴿بِقَبُولٍ حَسَن وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أَنْشَأَهَا بِخُلُقٍ حَسَن. وَأَتَتْ بِهَا أُمّهَا الأَحْبَار –سَدَنَة بَيْت الْمَقْدِس– فَقَالَتْ: "دُونكُمْ هَذِهِ النَّذِيرَة." فَتَنَافَسُوا فِيهَا؛ لأَنَّهَا بِنْت إِمَامهمْ. فَقَالَ زَكَرِيَّا: "أَنَا أَحَقّ بِهَا؛ لأَنَّ خَالَتهَا عِنْدِي." فَقَالُوا: "لاَ حَتَّى نَقْتَرِع." فَانْطَلَقُوا إِلَى نَهْر الأُرْدُنّ، وَأَلْقَوْا أَقْلامهمْ عَلَى أَنَّ مَنْ ثَبَتَ قَلَمه فِي الْمَاء وَصَعِدَ أَوْلَى بِهَا، فَثَبَتَ قَلَم زَكَرِيَّا فَأَخَذَهَا كما قال تعالى ﴿وكفلها زكريا﴾ ضَمَّهَا إِلَيْهِ، وَالْفَاعِل الله. وَبَنَى زكريا لمريم غُرْفَة فِي الْمَسْجِد بِسُلَّمٍ لاَ يَصْعَد إِلَيْهَا غَيْره، وَكَانَ يَأْتِيهَا بِأَكْلِهَا وَشُرْبهَا ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَاب﴾ الْغُرْفَة. والمحراب الموضع العالي الشريف. والمراد به الغرفة التي كانت تتخذها مريم مكانا لعبادتها في المسجد. سمي بذلك لأنه مكان محاربة الشيطان والهوى. ﴿وَجَدَ عِنْدهَا رِزْقًا﴾ قيل: "وجد عندها فَاكِهَة الصَّيْف فِي الشِّتَاء، وَفَاكِهَة الشِّتَاء في الصيف." و﴿قَالَ يَا مَرْيَم أَنَّى﴾ مِنْ أَيْنَ ﴿لَك هَذَا﴾ الرزق ﴿قَالَتْ﴾ وَهِيَ صَغِيرَة ﴿هُوَ مِنْ عِنْد الله﴾ الذي يرزق الناس جميعا بتسخير بعضهم لبعض ﴿إِنَّ الله يَرْزُق مَنْ يَشَاء بِغَيْرِ حِسَاب﴾ بغير تقدير لكثرته، بلا جهد ولا تعب.

المطلب الثاني: الأب والابن زكريا ويحيى

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ ﴿٤١﴾

﴿٣٨﴾﴿هُنَالِكَ﴾ في ذلك المكان أو في ذلك الوقت. فقد يستعار هنا، وحيث، وثم للزمان ﴿دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّه﴾ لما رأى كرامة مريم ومنزلتها من الله تعالى. وقيل: "لما رأى الفواكه في غير أَوَانِهَا انتبه على جواز ولادة العاقر من الشيخ." ﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْك﴾ مِنْ عِنْدك ﴿ذُرِّيَّة طَيِّبَة﴾ وَلَدًا صَالِحًا مثل مريم ﴿إِنَّك سَمِيع الدعاء﴾ أي مُجِيبه. ﴿٣٩﴾﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَة﴾ أي نادته جماعة من الملائكة عقب الدعاء بعد وقت قليل. ويجوز أن يكون الذي ناداه ملكا واحدا وهو جبريل. وقد ثبت التصريح بهذا في إنجيل لوقا (١/١١)، فيكون إسناد النداء إلى الملائكة من قبيل إسناد فعل الواحد إلى قبيلته. ﴿وَهُوَ قَائِم يُصَلِّي فِي الْمِحْرَاب﴾ أَيْ في محراب مريم أو في محراب المسجد، في أثناء الصلاة أو أثناء الدعاء ﴿أَنَّ الله يُبَشِّرك بِيَحْيَى﴾ وجاء في آية أخرى: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا﴾ (مريم، ١٩/٧). أي لم يسمَّ أحدٌ قبله بيحيى، فهو اسم فذٌّ غير مسبوق سمّاه تعالى به، ولم يترك تسميته لوالديه. وهو هكذا في إنجيل لوقا (١/١٣، ٦١). ويَحْيَى اسْمٌ أَعْجَمِيٌّ، لا اشتقاق له، وهذا هو الظاهر. وَقِيلَ: هُوَ عَرَبِيٌّ، سمي بذلك؛ لأن الله أحياه من بين شيخ كبير وعجوز عاقر، أو لأنه أحياه بالإيمان والنبوة. وقيل على القول الثاني: واقتران التبشير بالتسمية بيحيى للإشارة إلى أن ذلك المولود سيحيى اسمه وذكره بعد موته ﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ الله﴾ أَيْ بِعِيسَى. وَسُمِّيَ كَلِمَة؛ لأَنَّهُ خُلِقَ بِكَلِمَةِ كُنْ ﴿وَسَيِّدًا﴾ مَتْبُوعًا. هو الذي يسود قومه أي يفوقهم. كان قدوة في الدين، ﴿وَحَصُورًا﴾ عفيفًا. هو الذي لا يقرب النساء مع القدرة حصرًا لنفسه، أي منعًا لها من الشهوات ﴿وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ناشئًا من الصالحين؛ لأنه كان من أصلاب الأنبياء، أو كائنًا من جملة الصالحين. ﴿٤٠﴾﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿يَكُون لِي غُلَام﴾ وَلَد ﴿وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَر﴾ أي أدركتني الشيخوخة ﴿وَامْرَأَتِي عَاقِر﴾ أي عقيم لا تلد. ﴿قَالَ﴾ الأَمْر ﴿كَذَلِكَ الله يَفْعَل مَا يَشَاء﴾ من العجائب مثل ذلك الفعل، وهو إنشاء الولد من شيخ فانٍ وعجوز عاقر؛ أو كما أنت عليه وزوجك من الكبر والعقر يَفْعَلُ مَا يَشَاء من خلق الولد؛ أو كذلك الله مبتدأ

وخبر، أي الله على مثل هذه الصفة، ويفعل ما يشاء بيان له؛ أو كذلك خبر مبتدأ محذوف، أي الأمر كذلك، والله يفعل ما يشاء بيان له. يعنى لاَ يُعْجِزهُ عَنْهُ شَيْء. ﴿٤١﴾﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً﴾ أَيْ عَلاَمَة على حمل امرأتي ﴿قال آيتك﴾ عليه ﴿أَلاَّ تُكَلِّم النَّاس﴾ أي لا تقدر على تكليم الناس ﴿ثَلاَثَة أَيَّام﴾ أَيْ بِلَيَالِيهَا ﴿إِلاَّ رَمْزًا﴾ إِشَارَة بيد، أو رأس، أو عين ﴿وَاذْكُرْ رَبَّك﴾ في هذه الأيام ﴿كَثِيرًا وَسَبِّحْ﴾ أي نزّه الله عن صفات النقص بقولك سبحان الله؛ لأنه منزه عن النقائص، وهو يذهب النقائص عن الناس كالعقر. فإن قلت: "لم حبس لسانه عن كلام الناس؟" قلت: "ليخص المدة بذكر الله لاَ يشغل لسانه بغيرها توفرا منه على قضاء حق تلك النعمة الجسيمة، وشكرها الذي طلب الآية من أجله." ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَار﴾ أَوَاخِر النَّهَار وَأَوَائِله.

المطلب الثالث: الأم والابن مريم وعيسى

لما فرغ من قصة زكريا رجع إلى قصة مريم، وهكذا عادة أساليب العرب، متى ذكروا شيئا استطردوا منه إلى غيره ثم عادوا إلى الأول إن كان لهم غرض في العود إليه.

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾

﴿٤٢﴾﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَة﴾ أَيْ جماعة من الملائكة أو جِبْرِيل ﴿يَا مَرْيَم إِنَّ اللهَ اصْطَفَاك﴾ اخْتَارَك لخدمة المسجد ﴿وَطَهَّرَك﴾ من الشرك والعصيان والبغي ﴿وَاصْطَفَاك﴾ لتكوني مظهرَ قدرة الله في إنجاب ولد بدون أب ﴿عَلَى نِسَاء الْعَالَمِينَ﴾ من أَهْل زَمَانك. ﴿٤٣﴾﴿يَا مَرْيَم اُقْنُتِي لِرَبِّك﴾ أَطِيعِيهِ شكرًا على اطصفائه ﴿وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ أَيْ صَلِّي مَعَ الْمُصَلِّينَ في الجماعة. وهذه خصوصية لها من بين

نساء إسرائيل إظهارا لمعنى ارتفاعها عن بقية النساء. ﴿٤٤﴾﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُور مِنْ أَمْر زَكَرِيَّا وَمَرْيَم ﴿مِنْ أَنْبَاء الْغَيْب﴾ أَخْبَار مَا غَابَ عَنْك ﴿نُوحِيهِ إِلَيْك﴾ يَا مُحَمَّد ﴿وَمَا كُنْت لَدَيْهِمْ﴾ أي عند الأحبار ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامهمْ﴾ فِي الْمَاء يَقْتَرِعُونَ لِيَظْهَر لَهُمْ ﴿أَيّهمْ يَكْفُل مَرْيَم﴾ يضمّها ويُربِّيها ﴿وَمَا كُنْت لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فِي كَفَالَتهَا، إنما عرفته من جهة الوحي.

إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾

اُذْكُرْ ﴿٤٥﴾﴿إِذْ قَالَتْ الْمَلاَئِكَة﴾ جماعة من الملائكة أو جبْرِيل ﴿يَا مَرْيَم إِنَّ اللهَ يُبَشِّرك بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ أي بمولود يحصل بكلمة كن من الله بلا واسطة أب ﴿اسمه المسيح عيسى بن مَرْيَم﴾ أي اسمه عيسى ولقبه المسيح، ونسبَه إلى أمه تنبيهًا على أنها تلده بلا أب. أما لفظ "المسيح" فمعرب وأصله العبراني "مشيحا"، ومعناه المسيح. وهو لقب الملك عندهم؛ لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى الملك بالدهن المقدس، وهم يعبرون عن تولية الملك بالمسح وعن الملك بالمسيح، وقد اشتهر أن أنبياءهم بشروهم بمسيح يظهر فيهم، وأنهم كانوا يعتقدون أنه ملك يعيد إليهم ما فقدوا من السلطان في الأرض، فلما ظهر عيسى عليه السلام وسمي بالمسيح آمن به قوم وقالوا: "إنه

هو الذي بشر به الأنبياء." ولا يزال سائر اليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها. والمسيح من باب فعيل، وهو يستعمل في المفعول والفاعل. على الأول فهو بمعنى ممسوح؛ لأنه ممسوح بدهن البركة كما تقدم. وعلى الثاني فهو بمعنى ماسح؛ لأنه كان يمسح المريض والأكمه والأبرص فيبرأ كما في الآية (آل عمران، ٣/٤٩). ﴿وَجِيهًا﴾ شريفًا ذا جاهٍ وقدر ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بِالنُّبُوَّةِ ﴿وَالآخِرَةِ﴾ بِالشَّفَاعَةِ وَالدَّرَجَات الْعُلا ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ عند الله. ﴿٤٦﴾﴿وَيُكَلِّم النَّاس فِي الْمَهْد﴾ أَيْ طِفْلاً قَبْل وَقْت الْكَلَام. والمهد اسم لمضجع الطفل ﴿وكَهْلاً﴾ أي كبارًا. والكهل من دخل في عشرة الأربعين، وهو الذي فارق عصر الشباب. والمرأة شهلة. ﴿ومن الصالحين﴾ أي وهو من الكاملين في التقى والصلاح. ﴿٤٧﴾﴿قَالَتْ رَبّ أَنَّى﴾ كَيْفَ ﴿يَكُون لِي وَلَد وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَر﴾ رَجُلٌ بِنكاح ولا سِفاح ﴿قَالَ﴾ جبريل أو الله ﴿كَذَلِك الله﴾ أي كذلك أمر الله أو كذلك الله -مبتدأ وخبر- ﴿يَخْلُق مَا يَشَاء﴾ أي لا يعجزه شيء، يخلق بسببٍ من الوالدين وبغير سبب ﴿إِذَا قَضَى أَمْرًا﴾ أَرَادَ شيئًا ﴿فَإِنَّمَا يَقُول لَهُ كُنْ فَيَكُون﴾ هُوَ. ﴿٤٨﴾﴿وَيُعَلِّمهُ﴾ بِالنُّونِ وَالْيَاء ﴿الْكِتَاب﴾ الْخَطّ باليد ﴿والحكمة﴾ البيان باللسان. وأصل الحكمة -كما تقدم- مأخوذ من حكَم بمعنى منع، وهي في الإنسانية صفة نفسية هي أساس المعرفة الصحيحة التي تصيب الحق، وتوجه الإنسان نحو عمل الخير، وتمنعه من عمل الشر، فهي فيه مانعة ضابطة حاكمة للنفس مسيرة لها نحو الكمال ﴿والتوراة والإنجيل﴾ ﴿٤٩﴾﴿ورَسُولاً﴾ أي يَجْعَلهُ رسولاً -كما يجعله وجيهًا- ﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيل﴾ ناطقًا بـــ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾ عَلامَة عَلَى صِدْقِي ﴿مِنْ رَبّكُمْ﴾ هِيَ ﴿أَنِّي أَخْلُق لَكُمْ مِنَ الطِّين﴾ أي أُصَوِّر لكم من الطين. والمراد بالخلق هنا الإنشاء من الطين لا الإبداع من العدم. قال ابن عاشور: "والخلق حقيقته تقدير شيء بقدر. ومنه خلق الأديم تقديره بحسب ما يراد من قطعه قبل قطع القطعة منه. ويستعمل مجازا مشهورا أو مشتركا في الإنشاء، والإبداع. والخلق هنا مستعمل في حقيقته. أي أقدر لكم من الطين كهيئة الطير. وليس المراد به خلق الحيوان بدليل قوله فأنفخ فيه."

﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي مِثْل صُورَة الطير ﴿فَأَنْفُخ فِيهِ﴾ بنفس ﴿فَيَكُون طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿وَأُبْرِئ﴾ أُشْفِي ﴿الأَكْمَه﴾ هو الَّذِي وُلِدَ أَعْمَى ﴿وَالأَبْرَص﴾ هو المصاب بداء البرص. وهو داء جلدي له مظاهر متنوعة، منها الخفيف ومنها القوي. وأعراضه بقع بيضاء شديدة البياض تظهر على الجلد. والعرب والعبرانيون واليونان يطلقون البرص على مرض آخر هو من مبادئ الجذام. ﴿وأحيي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ﴾ كَرَّرَهُ لِنَفْيِ تَوَهُّم الأُلُوهِيَّة فيه ﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ مِمَّا لَمْ أُعَايِنهُ فَكَانَ يُخْبِر الشَّخْص بِمَا أَكَلَ وَبِمَا يَأْكُل بَعْد ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُور ﴿لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ بآيات الله حقًّا يا بني إسرائيل! ﴿٥٠﴾﴿و﴾ جِئْتُكُمْ ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْن يَدَيَّ﴾ قَبْلِي ﴿مِنَ التَّوْرَاة وَلأُحِلّ لَكُمْ بَعْض الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قيل: "أحل لهم الشحوم، ولحوم الإبل، وبعض السمك، وبعض الطير الذي كان محرما من قبل." والله أعلم! ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبّكُمْ﴾ كَرَّرَهُ تَأْكِيدًا وَلِيَبْنِيَ عَلَيْهِ ﴿فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فِيمَا آمُرُكُمْ بِهِ مِنْ تَوْحِيد الله وَطَاعَته ﴿٥١﴾﴿إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ﴿هَذَا صِرَاط﴾ طَرِيق ﴿مُسْتَقِيم﴾ فَكَذَّبُوهُ أكثرهم وَلَمْ يؤمنوا به.

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ آمَنَّا بِاللهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ اللهُ يَاعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٧﴾ ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٨﴾

﴿٥٢﴾﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾ أَدْرَكَ. والإحساس الإدراك ببعض الحواس الخمس –وهي الذوق والشم واللمس والسمع والبصر–. ﴿عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ وَأَرَادُوا قَتْله ﴿قَالَ

مَنْ أَنْصَارِي﴾ أَعْوَانِي ذَاهِبًا ﴿إِلَى اللهِ﴾ لأَنْصُر دِينه ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ والحواريون لقب لأصحاب عيسى عليه السلام الذين آمنوا به ولازموه. وهو اسم معرب من النبطية ومفرده حواري. وقيل: مِنَ الْحُور، وَهُوَ الْبَيَاض الْخَالِص؛ لأنهم أخلصوا لله تعالى نياتهم ﴿نَحْنُ أَنْصَار اللهِ﴾ أَعْوَان دِينه ﴿آمَنَّا﴾ صَدَّقْنَا ﴿بِاللهِ وَاشْهَدْ﴾ يَا عِيسَى عليه السلام ﴿بأنا مسلمون﴾ الشهادة هنا بمعنى العلم المنبعث من المعاينة والمشاهدة. ﴿٥٣﴾﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْت﴾ مِنَ الإِنْجِيل ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُول﴾ عِيسَى عليه السلام ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ لَك بالوحدانية ولرسولك بالصدق. قال تعالى ﴿٥٤﴾﴿وَمَكَرُوا﴾ أَيْ كُفَّار بَنِي إِسْرَائِيل بِعِيسَى عليه السلام إِذْ وَكَلُوا بِهِ مَنْ يَقْتُلهُ غِيلَةً ﴿وَمَكَرَ اللهُ﴾ أي جازاهم على مكرهم بأن رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وألقى شبهه على من أراد اغتياله حتى قتل. والمكر إيقاع الضر بالغير خفيةً وتَحَيُّلاً. ومكر الله بهم هو تمثيل لإخفاق الله تعالى مساعيهم في حال ظنهم أن قد نجحت مساعيهم. ولا يجوز إضافة المكر إلى الله تعالى إلا على معنى الجزاء؛ لأنه مذموم عند الخلق. ﴿وَاللهُ خَيْر الْمَاكِرِينَ﴾ أقوى المجازين، وأقدرهم على العقاب من حيث لا يشعر المعاقب. ﴿٥٥﴾﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى﴾ إني عاصمك من أن يقتلك الكفار و﴿إِنِّي مُتَوَفِّيك﴾ أي أنا مستوفٍ أجلك في الأرض، أو أنا قابضك من الأرض حيًّا ﴿وَرَافِعك إِلَيَّ﴾ أي رافعك إلى السماء بجسدك وروحك، أو رافع منزلتك وروحك. و القول الأول مؤيد بالأحاديث الكثيرة الصحاح مثل: "لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَنْزِلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الخِنْزِيرَ، وَيَضَعَ الجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ المَالُ، حَتَّى لاَ يَقْبَلَهُ أَحَدٌ." (البخاري، ٢٤٧٦). ﴿وَمُطَهِّرك مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بإبعادك عنهم ﴿وَجَاعِل الَّذِينَ اتَّبَعُوك﴾ أي صدّقوا بنبوتك من النصارى والمسلمين ﴿فَوْق الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وَهُمُ الْيَهُود يَعْلُونَهُمْ بِالْحُجَّةِ وَالسَّيْفِ ﴿إِلَى يَوْم الْقِيَامَة﴾ ويتضح بهذا متبعوه هم المسلمون في كل عصر ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعكُمْ فَأَحْكُم بَيْنكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ مِنْ أمور الدِّين كنبوة عيسى عليه السلام. ﴿٥٦﴾﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا﴾ بِالْقَتْلِ وَالسَّبْي وَالْجِزْيَة ﴿وَالآخِرَة﴾ بِالنَّارِ ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾

مَانِعِينَ مِنْهُ. ﴿٥٧﴾﴿وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات فَيُوَفِّيهِمْ﴾ -بِالْيَاءِ وَالنُّون- ﴿أُجُورهمْ وَاللهُ لاَ يُحِبّ الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ يعاقبهم. ﴿٥٨﴾﴿ذَلِكَ﴾ الْمَذْكُور مِنْ أَمْر عِيسَى ﴿نَتْلُوهُ﴾ نَقُصّهُ ﴿عَلَيْك﴾ يَا مُحَمَّد ﴿مِنَ الآيَات﴾ أي إن تلاوة ذلك عليك هو من آيات صدقك في دعوى الرسالة فإنك لم تكن تعلم ذلك ﴿وَالذِّكْر الْحَكِيم﴾ وهو ذكر محكم وموعظة مؤثرة للناس. والحكيم هنا بمعنى المحكم أو ذي الحكمة.

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

﴿٥٩﴾﴿إِنَّ مَثَل عِيسَى﴾ شَأْنه ﴿عِنْد اللهِ كَمَثَلِ آدَم﴾ كَشَأْنِهِ فِي خَلْقه مِنْ غَيْر أَب. وَهُوَ مِنْ تَشْبِيه الْغَرِيب بِالأَغْرَبِ لِيَكُونَ أَقْطَع لِلْخَصْمِ وَأَوْقَع فِي النَّفْس. ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَاب﴾ من غير أب ولا أم ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ بَشَرًا ﴿فَيَكُون﴾ أَيْ فَكَانَ. وَكَذَلِكَ عِيسَى قَالَ لَهُ كُنْ مِنْ غَيْر أَب فَكَانَ. فليس أمر عيسى بأعجب من أمر آدم. ﴿٦٠﴾﴿الْحَقّ﴾ ما الذي جاء ﴿مِنْ رَبّك﴾ في شأن عِيسَى، ﴿فَلاَ تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ الشَّاكِّينَ فيه. والامتراء هو الشك الذي يدفع الإنسان إلى المجادلة المبنية على الأوهام لا على الحقائق. فيها إيماء إلى أن وفد نجران ممترون في هذا الذي بين الله لهم في هذه الآيات. ﴿٦١﴾﴿فَمَنْ حَاجَّك فِيهِ﴾ جَادَلَك مِنَ النَّصَارَى في أمر عيسى ﴿ مِنْ بَعْد مَا جَاءَك مِنَ الْعِلْم﴾ بِأَمْرِهِ ﴿فَقُلْ﴾ لَهُمْ ﴿تَعَالَوْا﴾ وهو اسم فعل أمر لطلب القدوم. وهو في الأصل أمر من "تعالى-يتعالى" إذا قصد العلو. فكأنهم أرادوا به في الأصل أمرا بالصعود إلى مكان عال تشريفا للمدعو، ثم شاع حتى صار لمطلق الأمر بالقدوم أو الحضور. ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسكُمْ﴾ فَنَجْمَعهُمْ ﴿ثُمَّ نَبْتَهِل﴾ نتباهل، فالافتعال هنا بمعنى المفاعلة. أي نَتَضَرَّع فِي الدُّعَاء أو نتلاعن في

أمر عيسى. والابتهال فيه وجهان: أحدهما: أن الابتهال هو الاجتهاد في الدعاء وإن لم يكن باللعن. والثاني: أنه مأخوذ من قولهم عليه بهلة الله، أي لعنته. ﴿فَنَجْعَلْ لَعْنَة اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ بِأَنْ نَقُول: "اللهُمَّ الْعَنْ الْكَاذِب فِي شَأْن عِيسَى." وَقَدْ دَعَا ﷺ وَفْد نَجْرَان لِذَلِكَ لَمَّا حَاجُّوهُ بِهِ، فَقَالُوا: "حَتَّى نَنْظُر فِي أَمْرنَا ثُمَّ نَأْتِيك." فَقَالَ ذَوُو رَأْيهمْ: "لَقَدْ عَرَفْتُمْ نُبُوَّته، وَأَنَّهُ مَا بَاهَلَ قَوْمٌ نَبِيًّا إلاَّ هَلَكُوا، فَوَادَعُوا الرَّجُل وَانْصَرَفُوا." فَأَتَوْا الرَّسُول ﷺ وَقَدْ خَرَجَ وَمَعَهُ الْحَسَن وَالْحُسَيْن وَفَاطِمَة وَعَلِيّ، وَقَالَ لَهُمْ: "إذَا دَعَوْت فَأَمِّنُوا." فَأَبَوْا أَنْ يُلاَعِنُوا، وَصَالَحُوهُ عَلَى الْجِزْيَة. (أبو نُعَيْم، دلائل النوبة، ٢٤٥ بالمعنى).

﴿٦٢﴾﴿إِنَّ هَذَا﴾ الْمَذْكُور ﴿لَهُوَ الْقَصَص﴾ الْخَبَر ﴿الْحَقّ﴾ الَّذِي لا شَكَّ فِيهِ ﴿وَمَا مِنْ إِلَه إِلاَّ اللهُ وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيز﴾ فِي مُلْكه ﴿الْحَكِيم﴾ فِي صُنْعه. ﴿٦٣﴾﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنِ الإِيمَان ﴿فَإِنَّ اللهَ عَلِيم بِالْمُفْسِدِينَ﴾ فَيُجَازِيهِمْ. وَفِيهِ وَضْع الظَّاهِر مَوْضِع المضمر.

الفصل الثاني: الدعوة العامة

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾

﴿٦٤﴾﴿قل يا أهل الْكِتَاب﴾ الْيَهُود وَالنَّصَارَى ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَة سَوَاء﴾ مشتركة مستقيمة لا يختلف فيها الرسل والكتب ﴿بَيْننَا وَبَيْنكُمْ﴾ هِيَ ﴿ألا نَعْبُد إِلاَّ الله وَلاَ نُشْرِك بِهِ شَيْئًا﴾ كما أشركتم به عُزَيْرًا وعِيسَى، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ (التوبة، ٣٠/٩) ﴿وَلاَ يَتَّخِذ بَعْضنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُون الله﴾ كَمَا اتَّخَذْتُمُ الأَحْبَار وَالرُّهْبَان، قال الله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ (التوبة، ٣١/٩) ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أَعْرَضُوا عَنِ التَّوْحِيد ﴿فَقُولُوا﴾ أَنْتُمْ لَهُمْ ﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مُوَحِّدُونَ.

يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

لما إجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده، فقالت الأحبار: "ما كان إبراهيم إلا يهوديا." وقالت النصارى: "ما كان إبراهيم إلا نصرانيا." فأنزل الله: ﴿٦٥﴾﴿يا أهل الْكِتَاب لِمَ تُحَاجُّونَ﴾ تُخَاصِمُونَ ﴿فِي إِبْرَاهِيم﴾ بِزَعْمِكُمْ أَنَّهُ عَلَى دِينكُمْ ﴿وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل إلا من بعده﴾ بزمن طويل، وبعد نزولها حَدَثَتْ الْيَهُودِيَّة وَالنَّصْرَانِيَّة ﴿أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ بُطْلاَن قَوْلكُمْ. ﴿٦٦﴾﴿هَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ﴾ أَنْتُمْ مبتدأ وهؤُلاءِ خبره. وحاجَجْتُمْ جملة مستأنفة مبينة للجملة الأولى. والمعنى أنتم هؤلاء الأشخاص الحمقى، وبيان حماقتكم وقلة عقولكم أنكم جادلتم ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْم﴾ مِنْ أَمْر مُوسَى وَعِيسَى، وَزَعْمكُمْ أَنَّكُمْ عَلَى دِينهمَا ﴿فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْم﴾ مِنْ شَأْن إبْرَاهِيم؛ لأنه من البديهي أن إبراهيم ما كان يهوديا ولا نصرانيا إذ وجوده سابق على وجودهما بأزمان طويلة. وإذن فجدالكم في شأن إبراهيم هو لون من ألوان جهلكم ومخالفتكم لكل ما تقتضيه العقول السليمة ﴿وَالله يَعْلَم﴾ شَأْنه ﴿وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ــه. قَالَ تَعَالَى تَبْرِئَة لإِبْرَاهِيم: ﴿٦٧﴾﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيم يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا﴾ مَائِلاً عَنِ الأَدْيَان كُلّهَا إِلَى الدِّين الْقَيِّم ﴿مُسْلِمًا﴾ مُوَحِّدًا ﴿وما كان من المشركين﴾ كما أنتم. ﴿٦٨﴾﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاس بِإِبْرَاهِيم﴾ أي أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم ﴿لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ فِي زَمَانه ﴿وَهَذَا النَّبِيّ﴾ مُحَمَّد لِمُوَافَقَتِهِ لَهُ فِي أَكْثَر شَرْعه ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ مِنْ أُمَّته، فَهُمْ الَّذِينَ يَنْبَغِي أَنْ يَقُولُوا نَحْنُ عَلَى دِينه، لا أَنْتُمْ ﴿وَالله وَلِيّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نَاصِرهمْ وحافظهم. وهذا وعد لهم بالنصر في الدنيا، وبالفوز في الآخرة.

الفصل الثالث: مكائد اليهود

المبحث الأول: الكيد الأول

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلاَ تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

﴿٦٩﴾﴿وَدَّتْ﴾ أحبت ﴿طَائِفَة مِنْ أَهْل الْكِتَاب﴾ من رؤسائهم، وأحبارهم، ورهبانهم ﴿لَوْ يُضِلُّونَكُمْ﴾ عن الإسلام ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إلاَّ أَنْفُسهمْ﴾ لأ أنهم بتوجههم إلى الإضلال واشتغالهم به ينصرفون عن النظر في طرق الهداية وما أوتيه النبي ﷺ من الآيات البينات على كونه نبيا هاديا، فهم يعبثون بعقولهم ويفسدون فطرتهم باختيارهم ﴿وما يشعرون﴾ بذلك. ﴿٧٠﴾﴿يا أهل الْكِتَاب لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ بالتحريف ﴿بآيَاتِ اللهِ﴾ الواردة في التوراة والإنجيل من نعت محمد ﷺ، وحنيفية إبراهيم عليه السلام ﴿وأنتم تشهدون﴾ـــها فيهما وتعلمون أنها الحق. ﴿٧١﴾﴿يا أهل الْكِتَاب لِمَ تُلْبِسُونَ﴾ تَخْلِطُونَ ﴿الْحَقّ بِالْبَاطِلِ﴾ بِالتَّحْرِيفِ وَالتَّزْوِير ﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقّ﴾ كنَعْت النَّبِيّ ﷺ ﴿وَأَنْتُمْ تعلمون﴾ ذلك. ﴿٧٢﴾﴿وقالت طائفة من أهل الكتاب﴾ فيما بينهم ﴿آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَيْ القرآن ﴿وجه النهار﴾ أوله ﴿واكفروا آخِرَهُ﴾ به. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي لعلهم يشكّون في دينهم فيرجعون عنه. إذْ يَقُولُونَ: "مَا رَجَعَ هَؤُلاَءِ عَنْهُ بَعْد دُخُولهمْ فِيهِ وَهُمْ أُولُو عِلْم إلاَّ لعلمهم بطلانه." وقالوا أيضا. ﴿٧٣﴾﴿وَلاَ تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَنْ تَبِعَ دِينكُمْ﴾ أي ولا تصدقوا إلا نبيًّا يقرر شرائع التوراة، فأما من جاء بتغيير شيء

من أحكام التوراة فلا تصدقوه، وهذا هو مذهب اليهود إلى اليوم. قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّد! ﴿إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ﴾ الَّذِي هُوَ الإِسْلاَم، وَمَا عَدَاهُ ضَلاَل. وَالْجُمْلَة اعْتِرَاض. يا أهل الكتاب! قلتم ذلك حسدًا بـــ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَد مِثْل مَا أُوتِيتُمْ﴾ مِنَ الْكِتَاب وَالْحِكْمَة وَالْفَضَائِل ﴿أَوْ﴾ بِأَنْ ﴿يُحَاجُّوكُمْ﴾ الْمُؤْمِنُونَ. أَيْ يَغْلِبُوكُمْ ﴿عِنْد رَبّكُمْ﴾ يَوْم الْقِيَامَة. واعلم أن الحسد يقود صاحبه إلى العمل غير المعقول كما ترى ههنا؛ لأنهم اشتروا الآخرة بالدنيا، وأنهم يعلمون عاقبتهم السوء. وقيل: "والمعنى لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم وأن يحاجوكم عند ربكم." قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء﴾ من عباده ﴿وَاللهُ وَاسِع﴾ كَثِير العطاء ﴿عليم﴾ بمن هو أهله. ﴿٧٤﴾﴿يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾ أي فضله واسع عظيم، لا يُحدُّوا ولا يُمنع.

المبحث الثاني: الكيد الثاني

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلاَ يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾

﴿٧٥﴾﴿وَمِنْ أَهْل الْكِتَاب مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ بِقِنْطَارٍ﴾ أَيْ بِمَالٍ كَثِير ﴿يُؤَدِّهِ إِلَيْك﴾ لأَمَانَتِهِ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْك﴾ لِخِيَانَتِهِ ﴿إِلاَّ مَا دُمْت عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ أي قائما على رأسه لا تُفَارِقهُ، فَمَتَى فَارَقْته أَنْكَرَهُ، ﴿ذَلِكَ﴾ أَيْ تَرْك الأَدَاء ﴿بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾ بِسَبَبِ قَوْلهمْ ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ﴾ أَيْ الْعَرَب؛ لأنهم لم يكن عندهم كتاب ولا حضارة، وهذا استخفاف بهم، ولحقوا المسلمين إلى زمرتهم. ﴿سَبِيل﴾ أَيْ ليس علينا في أكل حقوقهم حرج ولا إثم لاسْتِحْلاَلِهِمْ ظُلْم من خالف دينهم، ونسبوه إلى

الله تعالى. وقال تَعَالَى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ﴾ فِي نِسْبَة ذَلِكَ إِلَيْهِ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ، وليس في التوراة التي عندهم إباحة خيانة الأميين وأكل أموالهم بالباطل، ولكنهم لا يأخذون الدين من الكتاب، وإنما لجئوا إلى التقليد فعدوا كلام أحبارهم دينا ينسبونه إلى الله. ﴿٧٦﴾﴿بلى﴾ أي ليس كما زعموا، بل عليهم فيه إثم لكنْ ﴿مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ﴾ الَّذِي عَاهَدَ عَلَيْهِ، أَوْ بِعَهْدِ اللهِ إِلَيْهِ مِنْ أَدَاء الأَمَانَة وَغَيْره ﴿وَاتَّقَى﴾ اللهَ بِتَرْكِ الْمَعَاصِي وَعَمِلَ الطَّاعَات ﴿فَإِنَّ اللهَ يُحِبّ الْمُتَّقِينَ﴾ أي يُثيبهُمْ. ﴿٧٧﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ﴾ يَسْتَبْدِلُونَ ﴿بِعَهْدِ اللهِ﴾ إِلَيْهِمْ فِي الإِيمَان بِالنَّبِيِّ وَأَدَاء الأَمَانَة ﴿وَأَيْمَانِهِمْ﴾ وبحَلِفهمْ بِاللهِ تَعَالَى كَاذِبِينَ ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ مِنَ الدُّنْيَا ﴿أُولَئِكَ لاَ خَلاَقَ﴾ نَصِيب ﴿لَهُمْ فِي الآخِرَة وَلاَ يُكَلِّمهُمْ اللهُ﴾ غَضَبًا ﴿وَلاَ يَنْظُر إِلَيْهِمْ﴾ بنظر الرحمة ﴿يَوْم الْقِيَامَة وَلاَ يُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرهُمْ من دنس ذنوبهم ﴿وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم موجع بسبب ما ارتكبوه.

المبحث الثالث: الكيد الثالث

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾

﴿٧٨﴾﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ﴾ أَيْ من أَهْل الْكِتَاب ﴿لَفَرِيقًا﴾ طَائِفَة ﴿يَلْوُونَ أَلْسِنَتهمْ﴾ أي يميلونها عن الحق ﴿بِالْكِتَابِ﴾ عند قراءته إلى ما في قلوبهم بالتحريف والتأويل. وهذا يشمل التحريف اللفظي، والتحريف المعنوي كما في نَعْت النَّبِيّ ﷺ وَنَحْوه ﴿لِتَحْسَبُوهُ﴾ أَيْ الْمُحَرَّف ﴿مِنَ الْكِتَاب﴾ الَّذِي أَنْزَلَهُ الله ﴿وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَاب وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْد الله وَمَا هُوَ مِنْ عِنْد الله وَيَقُولُونَ عَلَى الله الْكَذِب وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾

أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ. ثم قال ردا على أهل الكتاب: ﴿٧٩﴾﴿مَا كَانَ﴾ يَنْبَغِي ﴿لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيه اللهُ الْكِتَاب وَالْحُكْمَ﴾ الحكمةَ. أيْ العلم النافع والْفَهْم لِلشَّرِيعَةِ ﴿وَالنُّبُوَّة ثُمَّ يَقُول لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُون اللهِ وَلَكِنْ﴾ يَقُول ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ أي كُونُوا عُلَمَاء عَامِلِينَ مَنْسُوبِينَ إِلَى الرَّبّ بِزِيَادَةِ أَلِف وَنُون تَفْخِيمًا ﴿بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَاب﴾ بتعليمكم الناس -بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد- ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ تتعلّمون. أي بسبب كونكم معلمين الكتاب وبسبب كونكم دارسين له؛ فإن فائدة التعليم والتعلم معرفة الحق والخير للاعتقاد والعمل. ﴿٨٠﴾﴿وَلاَ يَأْمُرَكُمْ﴾ معطوف على ﴿ما كان لبشر﴾. أي وما كان له أن يأمركم ﴿أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلاَئِكَة وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ كَمَا اتَّخَذَتِ النَّصَارَى رُوحَ الْقُدُسِ وعِيسَى، وَالْيَهُود عُزَيْرًا ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْد إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ لا يَنْبَغِي لَهُ هَذَا.

لما ذكر تعالى خيانة أهل الكتاب بتحريفهم كلام الله عن مواضعه، وتغييرهم أوصاف رسول الله ﷺ الموجودة في كتبهم حتى لا يؤمنوا به، ذكر تعالى هنا ما تقوم به الحجة عليهم وهو أن الله قد أخذ الميثاق على أنبيائهم أن يؤمنوا بمحمد ﷺ إن أدركوا حياته، وأن يكونوا من أتباعه وأنصاره، فإذا كان الأنبياء قد أخذ عليهم العهد أن يؤمنوا به ويبشروا بمبعثه فكيف يصح من أتباعهم التكذيب برسالته؟ ثم ذكر تعالى أن الإيمان بجميع الرسل شرط لصحة الإيمان وبيَّن أن الإسلام هو الدين الحق الذي لا يقبل الله ديناً سواه.

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لاَ

نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾

﴿٨١﴾﴿وَ﴾ اذْكُرْ ﴿إذ﴾ حِين ﴿أَخَذَ الله مِيثَاق النَّبِيِّينَ﴾ عَهْدهمْ. قال الرازي: "فاعلم أن المصدر يجوز إضافته إلى الفاعل وإلى المفعول، فيحتمل أن يكون الميثاق مأخوذا منهم، ويحتمل أن يكون مأخوذا لهم من غيرهم. فلهذا السبب اختلفوا في تفسير هذه الآية على هذين الوجهين: أما الاحتمال الأول: وهو أنه تعالى أخذ الميثاق منهم في أن يصدق بعضهم بعضا. وأما الاحتمال الثاني: أن المراد من الآية أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كانوا يأخذون الميثاق من أممهم بأنه إذا بعث محمد ﷺ فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه." ﴿لَمَا آتَيْتُكُمْ﴾ قرأ بعضهم "لَمَّا" بنصب اللام والتشديد. أي حين آتيتكم ﴿مِنْ كِتَاب وَحِكْمَة ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُول مُصَدِّق لِمَا مَعَكُمْ﴾ مِنَ الْكِتَاب وَالْحِكْمَة وَهُوَ مُحَمَّد ﷺ ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ إنْ أَدْرَكْتُمُوهُ. وَأُمَمهمْ تَبَع لَهُمْ فِي ذَلِكَ ﴿قَالَ﴾ تَعَالَى لَهُمْ ﴿أَأَقْرَرْتُمْ﴾ بِذَلِكَ ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ قَبِلْتُمْ ﴿على ذلك إصْرِي﴾ عَهْدِي. وسمي إصرًا؛ لأنه مما يؤصر أي يشد ويعقد. ﴿قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا﴾ عَلَى أنفسكم وأتباعكم ذلك ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عَلَيْكُمْ وَعَلَيْهِمْ. ﴿٨٢﴾﴿فَمَنْ تَوَلَّى﴾ أَعْرَض ﴿بَعْد ذَلِكَ﴾ الْمِيثَاق ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ ﴿٨٣﴾﴿أَفَغَيْر دِين الله يَبْغُونَ﴾ أي أيبتغي أهل الكتاب دينًا غير الإسلام الذي أرسل الله به رسله؟ ﴿وله أسلم﴾ إنقاد ﴿من في السماوات وَالأَرْض طَوْعًا﴾ بِلاَ إبَاء ﴿وَكَرْهًا﴾ والمراد أن كل من في السموات والأرض قد انقادوا وخضعوا لله تعالى. إما عن طواعية واختيار، وهم المؤمنون؛ لأنهم راضون في كل الأحوال بقضائه وقدره، ومستجيبون له في المنشط والمكره والعسر واليسر. وإما عن تسخير وقهر، وهم الكافرون؛ لأنهم واقعون تحت سلطانه العظيم وقدرته النافذة، فهم مع كفرهم لا يستطيعون دفع قضائه سبحانه. وإذن فهم خاضعون لسلطانه عز وجل لأنهم لا سبيل لهم ولا لغيرهم إلى الامتناع عن دفع ما يريده بهم. ﴿وإليه يرجعون﴾ فيجازيكم بما

تستحقون. ﴿٨٤﴾﴿قُلْ﴾ لَهُمْ يَا مُحَمَّد ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيم وَإِسْمَاعِيل وَإِسْحَاق وَيَعْقُوب وَالأَسْبَاط﴾ قيل: "هم أحفاد إسحاق، وهم أبناء يعقوب اثنا عشر ابنا." قال الصابوني: "والصحيح أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب، وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب كما نبّه عليه المحققون." ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ﴾ أي ونؤمن بما أنزل على غيرهم من الأنبياء جميعًا ﴿مِنْ رَبِّهِمْ لاَ نُفَرِّق بَيْن أَحَد مِنْهُمْ﴾ أي لا نؤمن بالبعض ونكفر بالبعض كما فعلت اليهود والنصارى ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ مُخْلِصُونَ فِي الْعِبَادَة. ﴿٨٥﴾﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْر الإِسْلاَم دِينًا فَلَنْ يُقْبَل مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَة مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لِمَصِيرِهِ إِلَى النَّار الْمُؤَبَّدَة عَلَيْهِ.

كَيْفَ يَهْدِي اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾

﴿٨٦﴾﴿كَيْفَ﴾ أَيْ لاَ ﴿يَهْدِي الله قَوْمًا كَفَرُوا بَعْد إِيمَانِهِمْ﴾ وهم اليهود. قال الحسن: نزلت في اليهود؛ لأنهم كانوا يبشرون بالنبي ﷺ ويستفتحون على الذين كفروا، فلما بعث عاندوا وكفروا. ﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُول حق﴾ أي رأوا في كتابهم أنه نبي ﴿وجَاءَهُمْ الْبَيِّنَات﴾ القرآن وسائر المعجزات عَلَى صِدْقه ﴿وَالله لاَ يَهْدِي الْقَوْم الظَّالِمِينَ﴾ أَيْ الْكَافِرِينَ. ﴿٨٧﴾﴿أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين﴾ ﴿٨٨﴾﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أَيْ فِي اللعْنَة أَوْ فِي النَّار الْمَدْلُول بِهَا عَلَيْهَا ﴿لاَ يُخَفَّف عَنْهُمُ الْعَذَاب وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ لا يُفتّر عنهم العذاب. ﴿٨٩﴾﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْد ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ عَمَلهمْ ﴿فَإِنَّ الله غَفُور﴾ لَهُمْ ﴿رَحِيم﴾ بِهِمْ. وَنَزَلَت فِي الْيَهُود

أيضا: ﴿٩٠﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعِيسَى ﴿بَعْد إِيمَانهمْ﴾ بمُوسَى ﴿ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ بمُحَمَّدٍ ﴿لَنْ تُقْبَل تَوْبَتهمْ﴾ إذَا غَرْغَرُوا أَوْ مَاتُوا كفارًا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (النساء، ١٨/٤). ﴿وأولئك هم الضالون﴾ عن منهج الحق إلى طريق الغي. ﴿٩١﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّار فَلَنْ يُقْبَل مِنْ أَحَدهمْ مِلْء الأَرْض﴾ مِقْدَار مَا يَمْلَؤُهَا ﴿ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ بأنهم ماتوا وهم كفار ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ معينين دافعين للعذاب.

لما ذكر تَعالى حال الكفار ومآلهم في الآخرة، وبيّن أن الكافر لو أراد أن يفتدى نفسه بملء الأرض ذهبًا ما نفعه ذلك، ذكر هنا استطرادًا ما ينفع المؤمن لنيل رضى الله والفوز بالجنة.

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٩٢﴾

﴿٩٢﴾﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ﴾ أي لن تكونوا من الأبرار ولن تدركوا الجنة ﴿حَتَّى تُنْفِقُوا﴾ تَصَدَّقُوا ﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مِنْ أَمْوَالكُمْ ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْء فَإِنَّ الله بِهِ عَلِيم﴾ فَيُجَازِي عَلَيْهِ.

المبحث الرابع: الكيد الرابع

ثم عاد الكلام لرفع الشبهات التي أوردها أهل الكتاب حول النبوة والرسالة وصحة دين الإسلام.

كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾ قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى

لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾

ونَزَلَت لَمَّا قَالَ الْيَهُود: "إِنَّك تَزْعُم أَنَّك عَلَى مِلَّة إِبْرَاهِيم وَكَانَ لاَ يَأْكُل لُحُوم الإِبِل وَأَلْبَانهَا." ﴿٩٣﴾﴿كُلّ الطَّعَام كَانَ حِلاًّ﴾ حَلاَلاً ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيل إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيل﴾ يَعْقُوب عليه السلام ﴿عَلَى نَفْسه﴾ وَهُوَ الإِبِل وَأَلْبَانهَا. قَالَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ: حَضَرَتْ عِصَابَةٌ مِنَ الْيَهُودِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالُوا: "يَا أَبَا الْقَاسِمِ! حَدِّثْنَا عَنْ خِلاَلٍ نَسْأَلُكَ عَنْهَا، لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ نَبِيٌّ." فَكَانَ فِيمَا سَأَلُوهُ: "أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ؟" قَالَ: "فَأَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى! هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ عليه السلام مَرِضَ مَرَضًا شَدِيدًا فَطَالَ سَقَمُهُ، فَنَذَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَئِنْ شَفَاهُ اللهُ مِنْ سَقَمِهِ، لَيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، فَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لُحْمَانُ الإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ أَلْبَانُهَا؟" فَقَالُوا: "اللهُمَّ نَعَمْ." (أحمد، ٢٤٧١). فشفاه الله وحَرِّمَ يعقوب عَلَى نفسه لُحُوم الإِبِل وَأَلْبَانهَا ﴿مِنْ قَبْل أَنْ تُنَزَّل التَّوْرَاة﴾ وَذَلِك بَعْد إِبْرَاهِيم، وَلَمْ تَكُنْ عَلَى عَهْده حَرَامًا كَمَا زَعَمُوا. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا﴾ لِيَتَبَيَّن صِدْق قَوْلكُمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِيهِ، فَبُهِتُوا وَلَمْ يَأْتُوا بِهَا. قال تعالى: ﴿٩٤﴾﴿فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ أَيْ ظُهُور الْحُجَّة بِأَنَّ التَّحْرِيم إِنَّمَا كَانَ مِنْ جِهَة يَعْقُوب لاَ عَلَى عَهْد إِبْرَاهِيم ﴿فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الْمُتَجَاوِزُونَ الْحَقّ إِلَى الباطل. ﴿٩٥﴾﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ﴾ فِي هَذَا كَجَمِيعِ مَا أَخْبَرَ بِهِ ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ الَّتِي أَنَا عَلَيْهَا ﴿حَنِيفًا﴾ موحدًا مَائِلاً عَنْ كُلّ دِين إِلَى الإِسْلاَم ﴿وما كان من المشركين﴾ برأه مما نسبه اليهود والنصارى إليه من اليهودية والنصرانية، وفيه تعريض بإشراكهم.

المبحث الخامس: الكيد الخامس

في اتصال هذه المبحث بما قبلها وجوه. الأول: أن المراد منه الجواب عن شبهة أخرى من شبه اليهود في إنكار نبوة محمد ﷺ، وذلك لأنه ﷺ لما حول القبلة إلى الكعبة

طعن اليهود في نبوته وقالوا: "إن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق بالاستقبال، وذلك لأنه وضع قبل الكعبة، وهو أرض المحشر، وقبلة جملة الأنبياء، وإذا كان كذلك كان تحويل القبلة منه إلى الكعبة باطلا." فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿إن أول بيت وضع للناس﴾ فبين تعالى أن الكعبة أفضل من بيت المقدس وأشرف، فكان جعلها قبلة أولى. والثاني: أن المقصود من الآية المتقدمة بيان أن النسخ هل يجوز أم لا؟ فإن النبي ﷺ استدل على جوازه بأن الأطعمة كانت مباحة لبني إسرائيل، ثم إن الله تعالى حرم بعضها، والقوم نازعوا رسول الله ﷺ فيه، وأعظم الأمور التي أظهر رسول الله نسخها هو القبلة، لا جرم ذكر تعالى في هذه الآية بيان ما لأجله حولت الكعبة، وهو كون الكعبة أفضل من غيرها. الثالث: أنه تعالى لما قال في الآية المتقدمة فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين (٩٥) وكان من أعظم شعار ملة إبراهيم الحج، ذكر في هذه الآية فضيلة البيت، ليفرع عليه إيجاب الحج. الرابع: أن اليهود والنصارى زعم كل فرقة منهم أنه على ملة إبراهيم، وقد سبقت هذه المناظرة في الآيات المتقدمة، فإن الله تعالى بين كذبهم، من حيث إن حج الكعبة كان ملة إبراهيم، واليهود والنصارى لا يحجون، فيدل هذا على كذبهم في ذلك.

﴿٩٦﴾﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ﴾ مُتَعَبَّدًا ﴿لِلنَّاسِ﴾ فِي الأَرْض ﴿لَلَّذِي﴾ بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ﴿بِبَكَّةَ﴾ بكة لغة في مكة عند الأكثرين، والباء والميم تعقب إحداهما الأخرى كثيرا، ومنه النميط والنبيط، فهما اسم لموضع. وقيل: هما متغايران؛ فبكة موضع المسجد، ومكة اسم البلد. وأصل كلمة بكة من البك وهو الازدحام. يقال تباك القوم إذا تزاحموا. وكأنها سميت بذلك لازدحام الحجيج فيها. ﴿مُبَارَكًا﴾ أي كثير الخير والنفع لمن حجه أو اعتمره أو اعتكف فيه، أو طاف حوله، بسبب مضاعفة الأجر، وإجابة الدعاء، وتكفير الخطايا لمن قصده بإيمان وإخلاص وطاعة الله رب العالمين ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ ومصدر الهداية لأهل الأرض؛ لأنه يذكرهم بالدين الحق ويجمعهم على قبلة واحدة. ﴿٩٧﴾﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ تدل على من بناه وأوليته وفضيلته. مِنْهَا

﴿مَقَام إِبْرَاهِيم﴾ أَيْ الْحَجَر الَّذِي قَامَ عَلَيْهِ عِنْد بِنَاء الْبَيْت فَأَثَّر قَدَمَاهُ فِيهِ وَبَقِيَ إِلَى الآن مَعَ تَطَاوُل الزَّمَان وَتَدَاوُل الأَيْدِي عَلَيْهِ. ومنها الحجر، والحطيم، والأمن فيه كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ لاَ يُتَعَرَّض إِلَيْهِ بِقَتْلٍ، أَوْ ظُلْم، أَوْ غَيْر ذَلِكَ. ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاس حِجّ الْبَيْت﴾ حق وَاجِب. والحج بِكَسْرِ الْحَاء وَفَتْحهَا لُغَتَانِ فِي مَصْدَر حَجَّ، ومعناه قَصَدَ. وَيُبْدَل مِنَ النَّاس ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ طَرِيقًا، فَسَّرَهُ ﷺ بِـــ"الزَّادِ وَالرَّاحِلَة." (الترمذي، ٨١٣). ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بِاللهِ، أو بفضل البيت، أَوْ بفرضية الحج، أو بنعمة الله و لم يشكر ما أنعمت عليه من صحة الجسم وسعة الرزق و لم يحج ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ الإِنْس وَالْجِنّ وَالْمَلاَئِكَة، وَعَنْ عِبَادَتهمْ.

الفصل الرابع: التحذير العامة

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾

﴿٩٨﴾﴿قل يَا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله﴾ الدالة على صدق محمد ﷺ. ﴿وَاللهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾ أي مطلع على جميع أعمالكم فيجازيكم عليها. ﴿٩٩﴾﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ﴾ تَصْرِفُونَ ﴿عَنْ سَبِيل اللهِ﴾ أَيْ دِينه ﴿مَنْ آمَنَ﴾ به بترتيب المكائد وإلقاء الشبهات ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي تطلبون أن توهموهم أن فيها عوجا بدسائسكم كقولكم: "النسخ يدل على البداء." وقولكم: "إنه ورد في التوراة أن شريعة موسى عليه السلام باقية إلى الأبد." ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاء﴾ أنها سبيل الله ﴿وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ مِنَ الْكُفْر والصَّدِّ، وَإِنَّمَا يُؤَخِّرُكُمْ إِلَى وقتكم ليجازيكم.

الباب الثاني: خطاب الله للمؤمنين

المبحث الأول: علاقات مع أهل الكتاب

المطلب الأول: تحذير من أهل الكتاب

واعلم أنه تعالى لما حذر الفريق من أهل الكتاب في الآية السابقة عن الإغواء والإضلال حذر المؤمنين في هذه الآية عن إغوائهم وإضلالهم ومنعهم وعن الالتفات إلى قولهم.

روي أن شاس بن قيس اليهودي كان عظيم الكفر شديد الطعن على المسلمين شديد الحسد، فاتفق أنه مر على نفر من الأنصار من الأوس والخزرج فرآهم في مجلس لهم يتحدثون، وكان قد زال ما كان بينهم في الجاهلية من العداوة ببركة الإسلام، فشق ذلك على اليهودي، فجلس إليهم وذكرهم ما كان بينهم من الحروب قبل ذلك، وقرأ عليهم بعض ما قيل في تلك الحروب من الأشعار، فتنازع القوم وتغاضبوا وقالوا: "السلاح! السلاح!" فوصل الخبر إلى النبي ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين والأنصار، وقال: "أترجعون إلى أحوال الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ وقد أكرمكم الله بالإسلام، وألف بين قلوبكم؟" فعرف القوم أن ذلك كان من عمل الشيطان، ومن كيد ذلك اليهودي، فألقوا السلاح وعانق بعضهم بعضا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ، فما كان يوم أقبح أولاً وأحسن آخرًا من ذلك اليوم، فأنزل الله تعالى هذه الآية:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾

﴿١٠٠﴾﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا﴾ ما ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ من اليهود والنصارى ﴿يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾ بمكائدهم. ﴿١٠١﴾﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ بإغواءهم. اسْتِفْهَام تَعْجِيب وَتَوْبِيخ ﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَات اللهِ﴾ الموضحة أنهم ضلوا عن الحق ﴿وَفِيكُمْ رَسُوله﴾ ينبهكم، ويعظكم، ويزيح عنكم شبهكم ﴿وَمَنْ يَعْتَصِم

بالله﴾ أي يَتَمَسَّك بدينه ﴿فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾ أرشد إلى الدين الحق.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

﴿١٠٢﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقّ تُقَاته﴾ قال عبد الله في هذه الآية: "أَنْ يُطَاع فَلاَ يُعْصَى، وَيُشْكَر فَلاَ يُكْفَر، وَيُذْكَر فَلاَ يُنْسَى." (النسائي، السنن الكبرى، ١١٨٤٧). فقال بعضهم هي نسخت بقَوْلِهِ تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ (التغابن، ١٦/٦٤)، وهو خطأ من قائله، هذه الآية مبينة لها، لا ناسخة. ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مسلمون﴾ أي تمسكوا بالإسلام وعضوا عليه بالنواجذ حتى يدرككم الموت وأنتم على تلك الحالة فتموتون على الإسلام. ﴿١٠٣﴾﴿وَاعْتَصِمُوا﴾ تَمَسَّكُوا ﴿بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا﴾ أَيْ دِينه وكتابه جملةً كالجسد الواحد ﴿وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ شيعًا وأحزابًا ليموت مسلمًا، وصار كُلُّ حِزْبٍ بِما لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ، واختلفوا فيما بينهم اختلافا شنيعًا، وقد ترتب على ذلك أن كفّر بعضُهم بعضًا، وقاتل بعضهم بعضًا، وزعم كل فريق منهم أنه على الحق (انظر إلى أحمد، ٤١٤٢؛ مسلم، ١٨٤٧). ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ﴾ إنْعَامه ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يَا مَعْشَرَ الأَوْس وَالْخَزْرَج خحوصًا ﴿إِذْ كُنْتُمْ﴾ قَبْل الإِسْلام ﴿أَعْدَاءً﴾ متقاتلين ﴿فَأَلَّفَ﴾ جَمَعَ ﴿بَيْن قُلُوبكُمْ﴾ بالإسلام ﴿فَأَصْبَحْتُمْ﴾ فَصِرْتُمْ ﴿بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ فِي الدِّين وَالْوِلايَة ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا﴾ طَرَف ﴿حُفْرَة مِنَ النَّار﴾ بسبب كفركم، لَيْسَ بَيْنكُمْ وَبَيْن الْوُقُوع فِيهَا إِلاَّ أَنْ تَمُوتُوا كُفَّارًا ﴿فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ بِالإِيمَانِ. ﴿كذلك﴾ كهذا البيان الواضح الذي سمعتموه في هذه الآيات ﴿يبين الله لكم آياته﴾ دائمًا ﴿لعلكم تهتدون﴾ أي لتهتدوا به إلى الصواب وما ينال به الثواب.

قال الرازي: "اعلم! أنه تعالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتاب على شيئين أحدهما: أنه عابهم على الكفر، فقال: ﴿يا أهل الكتاب لم تكفرون﴾ (آل عمران، ٧٠/٣)،

ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر، فقال: ﴿يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله﴾ (آل عمران، ٩٩/٣). فلما انتقل منه إلى مخاطبة المؤمنين أمرهم أولا بالتقوى والإيمان، فقال: ﴿اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا﴾ (آل عمران، ١٠٢-١٠٣)، ثم أمرهم بالسعي في إلقاء الغير في الإيمان والطاعة، فقال: ﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير﴾. وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقل."

وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴿١٠٩﴾

﴿١٠٤﴾﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ﴾ طائفة تؤم الناس، قوية الإيمان، عظيمة الإخلاص، تامة الكفاية ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي تبذل أقصى طاقتها وجهدها في الدعوة إلى الإسلام، وإلى ما فيه صلاح للناس ديني أو دنيوي ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ بما استحسنه الشرع والعقل ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ عما استقبحه الشرع والعقل ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الْفَائِزُونَ. أي المخصوصون بكمال الفلاح. ﴿١٠٥﴾﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا﴾ عَنْ دِينهمْ ﴿وَاخْتَلَفُوا﴾ فِيهِ ﴿مِنْ بَعْد مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَات﴾ الموجبة للاتفاق على كلمة واحدة. وَهُمُ الْيَهُود وَالنَّصَارَى ﴿وأولئك لهم عذاب عظيم﴾ ﴿١٠٦﴾﴿يَوْم﴾ الْقِيَامَة ﴿تَبْيَضّ وُجُوه﴾ أي وجوه المؤمنين بالإيمان والطاعة ﴿وَتَسْوَدّ وُجُوه﴾ أَيْ وجوه الكافرين بالكفر والمعاصي. ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوههمْ﴾ فَيُلْقَوْنَ فِي النَّار وَيُقَال لَهُمْ تَوْبِيخًا ﴿أَكَفَرْتُمْ بعد إيمانكم﴾ بالعداوة والتفرقة، وبرد النبي الذي تستفتحون به

على الكافرين من قبل (البقرة، ٨٩/٢) ﴿فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ أي بسبب كفركم. ﴿١٠٧﴾﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رحمة اللهِ﴾ أي جنته ﴿هم فيها خالدون﴾ لا يخرجون منها أبدًا. ﴿١٠٨﴾﴿تِلْكَ﴾ أَيْ هَذِهِ الآيَات ﴿آيَات اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْك﴾ يَا مُحَمَّد ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي ملتبسة بالحق والعدل من إجزاء المحسن والمسيء بما يستوجبانه ﴿وَمَا اللهُ يُرِيد ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾ بِأَنْ يَأْخُذهُمْ بِغَيْرِ جُرْم. ﴿١٠٩﴾﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿وَإِلَى اللهِ تُرْجَع الأمور﴾ أي تعود أمور الناس إلى حكمه وفضائه؛ فيجازى الذين أساؤوا بما عملوا، ويجازى الذين أحسنوا بالحسنى.

كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١١٠﴾ لَنْ يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ ﴿١١١﴾ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾

﴿١١٠﴾﴿كُنْتُمْ﴾ يَا أُمَّة مُحَمَّد ﴿خَيْر أُمَّة﴾ على الشرائط الآتية ﴿أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أي أخرجت لمصلحتهم؛ لأنكم ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ أي وتدومون على الإيمان به. فعلم منه أن خيرية الأمة وفضلها على غيرها تكون بهذه الأمور: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والإيمان بالله تعالى. ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْل الْكِتَاب﴾ بمحمد ﷺ ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ في الدنيا والآخرة. ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بمحمد ﷺ كَعَبْدِ الله بْن سَلام ﷺ ﴿وَأَكْثَرهمْ الْفَاسِقُونَ﴾ المتمردون في الكفر. ﴿١١١﴾﴿لَنْ يَضُرُّوكُمْ﴾ بِشَيْءٍ. وهم الْيَهُود على الخصوص ﴿إِلاَّ أَذًى﴾ بِاللِّسَانِ مِنْ سَبّ وَوَعِيد ﴿وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَار﴾ مُنْهَزِمِينَ ﴿ثُمَّ لاَ يُنْصَرُونَ﴾ عَلَيْكُمْ بَلْ لَكُمْ النَّصْر عَلَيْهِمْ. ﴿١١٢﴾﴿ضُرِبَتْ﴾ أي ألزمت ﴿عَلَيْهِمْ﴾ يعود الضمير إلى ﴿وأكثرهم

الفاسقون﴾ (آل عمران، ١١٠/٣)، وهو خاص باليهود لا محالة ﴿الذِّلَّة﴾ الهوان، والحقارة، وهدر النفس والمال والأهل ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾ حَيْثُمَا وُجِدُوا، فَلاَ عِزّ لَهُمْ وَلاَ اعْتِصَام، لا ترفع الذلة عن هؤلاء اليهود ﴿إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ﴾ وهو الإيمان ﴿وَحَبْل مِنَ النَّاس﴾ وهو العهد. أَيْ لا عِصْمَة لَهُمْ غَيْر ذَلِكَ. والحبل معناه في أصل اللغة ما يربط بين شيئين، ويطلق على العهد، وقد فسره جمهور المفسرين هنا بهذا المعنى. ﴿وَبَاءُوا﴾ رَجَعُوا ﴿بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ﴾ أي داموا في غضب الله. ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمْ الْمَسْكَنَة﴾ أَيْ الفاقة والفقر وَإِنْ كَانُوا أَغْنِيَاء. مأخوذة من السكون؛ لأن المسكين قليل الحركة لما به من الفقر. والضرب هنا كناية عن إحاطتهما بهم كما تحيط القبَّة. وقيل: والمراد بالمسكنة في الآية: الضعف النفسي، والفقر القلبي. والذلة هوان تجيء أسبابه من الخارج. أما المسكنة فهي هوان ينشأ من داخل النفس كما تقدم (البقرة، ٦١/٢). ﴿ذَلِكَ﴾ الجزاء ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ أَيْ بِسَبَبِ أَنَّهُمْ ﴿كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ﴾ أي بأمارات الحق وأدلته التي يقيمها الله تعالى عليهم في كتبه وخلقه وعلى ألسنة رسله ﴿وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقّ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام. ﴿ذلك﴾ تأكيدا ﴿بِمَا عَصَوْا﴾ أَمْر الله ﴿وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يَتَجَاوَزُونَ حدود الله.

المطلب الثاني: أصناف أهل الكتاب

وهم ثلاثة أصناف: مؤمنون، وكافرون، ومنافقون. هنا بدأ الله بالمؤمنين فقال:

لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾

﴿١١٣﴾﴿لَيْسُوا﴾ أَيْ أَهْل الْكِتَاب ﴿سَوَاء﴾ مُسْتَوِينَ. ﴿مِنْ أَهْل الْكِتَاب أُمَّة قَائِمَة﴾ جماعة مُسْتَقِيمَة ثَابِتَة عَلَى الْحَقّ كَعَبْدِ اللهِ بْن سَلاَم رضي الله عنه ﴿يتلون آيات الله آناء الليل﴾

أي سَاعَاته ﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ يُصَلُّونَ. ﴿١١٤﴾﴿يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ يبادرون اليها خشية الفوت ﴿وَأُولَئِكَ﴾ الْمَوْصُوفُونَ بِمَا ذَكَرَ الله ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي من المسلمين. ﴿١١٥﴾﴿وَمَا يَفْعَلُوا﴾ أَيْ هذه الأمة القائمة ﴿من خير فلن يُكْفَرُوهُ﴾ بِالْوَجْهَيْنِ أَيْ بَلْ يُجَازُونَ عَلَيْهِ ﴿والله عليم بالمتقين﴾ أي لا يخفى عليه عمل عامل، ولا يضيع لديه أجر المتقين.

ثم أخبر تعالى عن مآل الكافرين فقال:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

﴿١١٦﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ﴾ تَدْفَع ﴿عَنْهُمْ أموالهم ولا أولادهم من الله﴾ أي من عذابه ﴿شيئا﴾ وخصها بالذِّكْرِ؛ لأَنَّ الإِنْسَان يَدْفَع عَنْ نَفْسه تَارَة بفداء المال، وتارة بالإستعانة بالأولاد؛ ولأن الكفار كانوا أكثر ما يكونون اغترارا بالأموال والأولاد ﴿وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لا يخرجون منها. ﴿١١٧﴾﴿مَثَلُ﴾ صِفَة ﴿مَا يُنْفِقُونَ﴾ أَيْ الْكُفَّار ﴿فِي هَذِهِ الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾ فِي عبادة الله أو في عَدَاوَة الرسول ﴿كَمَثَلِ رِيح فِيهَا صِرّ﴾ حَرّ شديد أَوْ بَرْد شَدِيد ﴿أَصَابَتْ حَرْث﴾ زَرْع ﴿قَوْم ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ﴾ بأن زرعوا في غير موضع الزراعة. والظلم هو وضع الشيء في غير موضعه. ﴿فَأَهْلَكَتْهُ﴾ فَلَمْ يَنْتَفِعُوا بِهِ، فَكَذَلِكَ نَفَقَاتهمْ ذَاهِبَة لاَ يَنْتَفِعُونَ بِهَا ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ الله﴾ بِضِيَاعِ نَفَقَاتهمْ ﴿وَلَكِنْ أَنْفُسهمْ يظلمون﴾ بالكفر الموجب لضياعها.

ثم حذر تعالى من اتخاذ المنافقين بطانة يطلعونهم على أسرارهم فقال:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَاعَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ

تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾ هَا أَنْتُمْ أُولاَءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾

﴿١١٨﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا بِطَانَةً﴾ أَصْفِيَاء تُطْلِعُونَهُمْ عَلَى سِرّكُمْ. والبطانة في الأصل باطن الثوب، ثم أطلقت البطانة على صديق الرجل وصفيه الذي يطلع على شئونه الخفية تشبيها ببطانة الثياب في شدة القرب من صاحبها ﴿مِنْ دُونكُمْ﴾ أَيْ غَيْرِكُمْ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، وأكثرهم من اليهود دون الذين كانوا مشركين من الأوس والخزرج ﴿لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً﴾ أَيْ لاَ يُقَصِّرُونَ لَكُمْ فِي الْفَسَاد، ولا يتركون الجهد في المكر والخديعة. والخَبَالُ الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطرابا كالجنون والمرض المؤثّر في العقل والفكر. ﴿وَدُّوا﴾ تَمَنَّوْا ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾ أي تمنوا ما يوقعكم في الضرر الشديد. ﴿قَدْ بَدَتْ﴾ ظَهَرَتْ ﴿الْبَغْضَاء﴾ الْعَدَاوَة لَكُمْ ﴿مِنْ أَفْوَاههِمْ﴾ لأنهم لا يتمالكون مع ضبطهم أنفسهم ﴿وَمَا تُخْفِي صُدُورهمْ﴾ مِنَ الْعَدَاوَة ﴿أَكْبَر﴾ مما بدا ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الآيَات﴾ عَلَى عَدَاوَتهمْ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ذَلِكَ فلا تباطنوهم ولا تفشوا لهم أسراركم. ﴿١١٩﴾﴿هَا﴾ لِلتَّنْبِيهِ ﴿أَنْتُمْ أُولاَءِ﴾ أي أنتم أولاء الخاطئون في موالاة منافقي أهل الكتاب ﴿تُحِبُّونَهُمْ﴾ تريدون لهم النفع وتبذلون لهم المحبة رغم مخالفتهم لعقيدتكم ﴿وَلاَ يُحِبُّونَكُمْ﴾ وهم يريدون لكم الضر ويضمرون لكم العداوة لمخالفتهم لكم في الدين. ﴿وتؤمنوا بِالْكِتَابِ كُلّه﴾ أَيْ بِالْكُتُبِ كُلّهَا، وَلا يُؤْمِنُونَ بِكِتَابِكُمْ. ﴿وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ﴾ أَطْرَاف الأَصَابِع ﴿مِنَ الْغَيْظ﴾ من شِدَّة الْغَضَب لِمَا يَرَوْنَ مِنْ ائْتِلافكُمْ، فيقول بعضهم لبعض: "ألا ترون إلى هؤلاء قد ظهروا وكثروا؟!" وَيُعَبَّر عَنْ شِدَّة الْغَضَب بِعَضِّ الأَنَامِلِ مَجَازًا وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ عَضّ. ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ﴾ أَيْ ابْقَوْا عَلَيْهِ إِلَى الْمَوْت، فَلَنْ تَرَوْا مَا يَسُرّكُمْ ﴿إِنَّ اللّه عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُور﴾ أي هو يعلم ما تضم صدوركم من شعور

الغيظ والبغضاء والحسد، فكيف يخفى عليه ما تقولون في خلوتكم؛ ويعلم كذلك ما تنطوي عليه صدورنا معشر المؤمنين من حب الخير والنصح لكم. ﴿١٢٠﴾﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ﴾ تُصِبْكُمْ ﴿حَسَنَة﴾ نِعْمَة كَنَصْرٍ وَغَنِيمَة ﴿تَسُؤْهُمْ﴾ تُحْزِنْهُمْ، ﴿وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَة﴾ كَهَزِيمَةٍ وَجَدْبٍ ﴿يَفْرَحُوا بِهَا﴾ بإصابتها. وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ مُتَنَاهُونَ فِي عَدَاوَتِكُمْ فَلِمَ تُوَالُوهُمْ؟ فَاجْتَنِبُوهُمْ ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ عَلَى أَذَاهُمْ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ اللهَ فِي مُوَالاتِهِمْ وَغَيْرِهَا ﴿لاَ يَضُرُّكُمْ كَيْدهمْ شَيْئًا﴾ فشرط تعالى نفي ضررهم بالصبر والتقوى ﴿إِنَّ اللهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيط﴾ أي هو سبحانه عالم بما يُدبّرونه لكم من مكائد، فيصرف عنكم شرهم، ويعاقبهم على نواياهم الخبيثة.

المبحث الثاني: غزوة أحد

المطلب الأول: قبل المعركة

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلاَ وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُنْزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾ لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا خَائِبِينَ ﴿١٢٧﴾

﴿١٢١﴾﴿وَ﴾ اذْكُرْ يَا مُحَمَّد! ﴿إِذْ غَدَوْت﴾ أي خرجت مبكِّرًا. غَدَوْتَ من الغدو، وهو الخروج في أول النهار. ﴿مِنْ أهلك﴾ أي من حجرة عائشة ﵂ ﴿تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي تُنْزِلهم وتنظِّمهم. تُبَوِّئُ من التبوء، وهو اتخاذ المنزل ﴿مَقَاعِد لِلْقِتَالِ﴾ مَواقِفَ يَقِفُونَ فِيهَا ﴿وَاللهُ سَمِيع﴾ بما قيل في مشاورتك لمن معك في أمر الخروج إلى

لقاء المشركين في أحد أو انتظارهم في المدينة ﴿عَلِيم﴾ نية كل قائل. خَرَجَ النَّبِيّ ﷺ يَوْم أُحُد بِأَلْفٍ أَوْ إلاَّ خَمْسِينَ رَجُلاً وَالْمُشْرِكُونَ ثَلاثَة آلاف، وَنَزَلَ بِالشِّعْبِ يَوْم السَّبْت سَابِع شَوَّال سَنَة ثَلاَث مِنَ الْهِجْرَة، وَجَعَلَ ظَهْره وَعَسْكَره إِلَى أُحُد، وَسَوَّى صُفُوفهمْ، وَأَجْلَسَ جَيْشًا مِنَ الرُّمَاة، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ عَبْد الله بْن جُبَيْر بِسَفْحِ الْجَبَل، وَقَالَ: "انْضَحُوا عَنَّا بِالنَّبْلِ لاَ يأتونا مِنْ وَرَائِنَا، وَلاَ تَبْرَحُوا غُلِبْنَا أَوْ نُصِرْنَا." ﴿١٢٢﴾﴿إِذْ﴾ بَدَل مِنْ إِذْ قَبْله ﴿هَمَّتْ﴾ أن ترجعا ﴿طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ﴾ حيان من الأنصار؛ بنو سلمة من الخزرج، وبنو حارثة من الأوس ﴿أَنْ تَفْشَلاَ﴾ أي بأن تفشلا، أي بأن تجبنا وتضعفا لَمَّا رَجَعَ عَبْد الله بْن أُبَيٍّ الْمُنَافِق بثلث الجيش وَقَالَ: "عَلاَم نَقْتُل أَنْفُسنَا وَأَوْلاَدنَا." وَقَالَ لأَبِي جَابِر السُّلَمِيّ الْقَائِل لَهُ "أَنْشُدكُمُ الله فِي نَبِيّكُمْ وَأَنْفُسكُمْ!": "لَوْ نَعْلَم قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ." فَثَبَّتَهُمَا الله وَلَمْ يَنْصَرِفَا ﴿وَالله وَلِيّهمَا﴾ نَاصِرهمَا ﴿وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ لِيَثِقُوا بِهِ وحده، لا على حولهم وقوتهم، ولا على أعوانهم وعددهم. ثم ذكرهم ما يوجب عليهم التوكل مما يسر لهم من الفتح يوم بدر: ﴿١٢٣﴾﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمْ الله بِبَدْرٍ﴾ مَوْضِع بَيْن مَكَّة وَالْمَدِينَة ﴿وَأَنْتُمْ أَذِلَّة﴾ بِقِلَّةِ الْعَدَد وَالسِّلاح كما هنا. ﴿فَاتَّقُوا الله﴾ في الثبات مع رسوله ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ بتقواكم ما أنعم الله به عليكم من النصر. ﴿١٢٤﴾﴿إِذْ﴾ يوم بدر. وقيل: يوم أحد. فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر. وهذا ما تسكن إليه النفس؛ لأن الوعد بنصرة الملائكة للمؤمنين كان يوم بدر لا يوم أحد، فقد كانوا في بدر قليلي العدد. ﴿تَقُول لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ تُوعِدهُمْ تَطْمِينًا ﴿أَلَنْ يَكْفِيكُمْ أَنْ يُمِدّكُمْ﴾ يُعِينكُمْ ﴿رَبّكُمْ بِثَلاَثَةِ آلاَف مِنَ الْمَلاَئِكَة مُنْزَلِينَ﴾ لنصرتكم. ﴿١٢٥﴾﴿بَلَى﴾ يَكْفِيكُمْ ذَلِكَ. وَفِي الأَنْفَال بِأَلْفٍ؛ لأَنَّهُ أَمَدَّهُمْ أَوَّلاً بِهَا، ثُمَّ صَارَتْ ثَلاَثَة، ثُمَّ صَارَتْ خَمْسَة كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنْ تَصْبِرُوا﴾ في المعركة ﴿وَتَتَّقُوا﴾ مِنَ الْمُخَالَفَة ﴿وَيَأْتُوكُمْ﴾ أَيْ الْمُشْرِكُونَ ﴿مِنْ فَوْرهمْ هَذَا﴾ أي مسرعين ﴿يُمْدِدْكُمْ رَبّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَف مِنَ الْمَلاَئِكَة مُسَوِّمِينَ﴾ أَيْ مُعَلَّمِينَ. وَقَدْ صَبَرُوا وَأَنْجَزَ الله وَعْده بِأَنْ قَاتَلَتْ مَعَهُمْ الْمَلاَئِكَة عَلَى خَيْل بُلْق، عَلَيْهِمْ عَمَائِم صُفْر أَوْ بِيض، أَرْسَلُوهَا بَيْن

أَكْتَافهمْ. ﴿١٢٦﴾﴿وَمَا جَعَلَهُ اللهُ﴾ أَيْ الإِمْدَاد ﴿إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ﴾ بِالنَّصْرِ ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ﴾ تَسْكُن ﴿قُلُوبكُمْ بِهِ﴾ فَلاَ تجزع من كسرة الْعَدُوّ وَقِلَّتكُمْ ﴿وَمَا النَّصْر إِلاَّ مِنْ عِنْد اللهِ الْعَزِيز الْحَكِيم﴾ يُؤْتِيه مَنْ يَشَاء، وَلَيْسَ بكثرة الجند. ﴿١٢٧﴾﴿لِيَقْطَعَ﴾ مُتَعَلِّق بـــ﴿نَصَرَكُمْ﴾. أَيْ لِيُهْلِك ويُضْعف ﴿طَرَفًا﴾ أي طائفة ﴿مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بِالْقَتْلِ وَالأَسْر ﴿أَوْ يَكْبِتَهُمْ﴾ يُذِلّهُمْ بِالْهَزِيمَةِ ﴿فَيَنْقَلِبُوا﴾ يَرْجِعُوا ﴿خَائِبِينَ﴾ منقطعي الآمال، غير ظافرين بمبتغاهم.

المطلب الثاني: هزيمة المسلمين

لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٩﴾

لَمَّا كُسِرَتْ رُبَاعِيَّة النبي ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ، وَشُجَّ فِي رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدَّمَ عَنْهُ، وَيَقُولُ: "كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ، وَكَسَرُوا رَبَاعِيَتَهُ، وَهُوَ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ؟" فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (مسلم، ١٧٩١): ﴿١٢٨﴾﴿لَيْسَ لَك مِنَ الأَمْر شَيْءٌ﴾ أي في أمر إفلاحهم أو إهلاكهم، بَلِ الأَمْر لِلَّهِ، فَاصْبِرْ ﴿أَوْ﴾ بِمَعْنَى "حتى" ﴿يَتُوب عَلَيْهِمْ﴾ بِالإِسْلامِ ﴿أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ بِالْكُفْرِ. ﴿١٢٩﴾﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الأَرْض﴾ مُلْكًا وَخَلْقًا وَعَبِيدًا ﴿يَغْفِر لِمَنْ يَشَاء﴾ من المذنبين ﴿وَيُعَذِّب مَنْ يَشَاء﴾ منهم. ﴿وَالله غَفُور رحيم﴾ لعباده. والمقصود بيان أنه وإن حسن كل ذلك منه إلا أن جانب الرحمة والمغفرة غالب. لا على سبيل الوجوب بل على سبيل الفضل والإحسان.

وقال القفال: "يحتمل أن تكون الآية الآتية متصلة بما قبلها من جهة أن المشركين في غزوة أحد أنفقوا على عساكرهم أموالا كثيرة جمعوها من الربا، ولعل ذلك يصير داعيا للمسلمين إلى الإقدام على الربا حتى يجمعوا المال وينفقوه على العسكر، ويتمكنوا من الانتقام منهم، فلا جرم نهاهم الله عن ذلك."

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُوا اللهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾ وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾

﴿١٣٠﴾﴿يَا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ هذا نهي عن الربا مع التوبيخ بما كانوا عليه من تضعيفه، فقليله وكثيره حرام. كان الرجل منهم إذا بلغ الدين محله يقول: "إما أن تقضي حقي، أو تربي وتزيد في الأجل." ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾ في أكله ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ في دنياكم بإصلاح حال مجتمعكم، وفي الآخرة بحسن الجزاء على أعمالكم. ﴿١٣١﴾﴿وَاتَّقُوا النَّار الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ أَنْ تُعَذَّبُوا بها. ﴿١٣٢﴾﴿وأطيعوا الله والرسول﴾ في كل ما أمروا به ونهوا عنه ﴿لعلكم ترحمون﴾ بسبب هذه الطاعة. ﴿١٣٣﴾﴿وَسَارِعُوا﴾ بِوَاوٍ وَدُونَهَا ﴿إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ﴾ أَيْ كَعَرْضِهِمَا لَوْ وُصِلَتْ إِحْدَاهُمَا بِالأُخْرَى. وَالْعَرْض السِّعَة ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ بِعَمَلِ الطَّاعَات وترك المعاصي. ﴿١٣٤﴾﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ﴾ فِي طَاعَة الله ابتغاء مرضاة الله ﴿فِي السَّرَّاء وَالضَّرَّاء﴾ فِي حال الْيُسْر وَالْعُسْر، أي في جميع أحوالهم ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظ﴾ يمسكون غيظهم، ويمتنعون عن إمضائه مع القدرة عليه ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاس﴾ يعفون عمن أساء إليهم وظلمهم، أَيْ التَّارِكِينَ عُقُوبَتهمْ ﴿وَالله يُحِبّ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي يحب المتصفين بتلك الأوصاف الجليلة وغيرها، أَيْ يُثِيبهُمْ. ﴿١٣٥﴾﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَة﴾ ذَنْبًا قَبِيحًا كبيرًا كالزنا. والفاحشة من الفحش، وهو مجاوزة الحد في السوء. والمراد بها الفعلة البالغة في القبح كالزنا، والسرقة، وما يشبههما

من الكبائر ﴿أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ﴾ بِمَا دُونه كَالْقُبْلَةِ. واعلم! أن ظلم النفس فيتناول كل ذنب سواء أكان صغيرا أم كبيرا. ﴿ذَكَرُوا اللهَ﴾ أَيْ حقه العظيم، وعذابه الشديد، وحسابه العسير للظالمين يوم القيامة ﴿فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ﴾ نادمين ﴿وَمَنْ﴾ أَيْ لاَ ﴿يَغْفِرِ الذُّنُوب إلاَّ اللهُ وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ يُدَاوِمُوا ﴿عَلَى مَا فَعَلُوا﴾ بَلْ أَقْلَعُوا عَنْهُ ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أي يعلمون سوء فعلهم، أو يعلمون أن الله يتوب على من تاب فلم ييأسوا، أو يعلمون عظم غضب الله على المذنبين الذين يداومون على فعل القبائح دون أن يتوبوا إليه. ﴿١٣٦﴾﴿أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَة مِنْ رَبّهِمْ﴾ أي الموصوفون بتلك الصفات الحميدة جزاؤهم وثوابهم العفو عما سلف من الذنوب ﴿وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي ولهم جنات تجري خلال أشجارها الأنهار ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي ماكثين فيها أبدًا إذَا دَخَلُوهَا ﴿وَنِعْمَ أَجْر الْعَامِلِينَ﴾ أي ونعم ذلك الجزاء الذي ذكر من المغفرة والجنات أجرًا للعاملين تلك الأعمال البدنية كالإنفاق، والنفسية كعدم الإصرار، وإن كانوا يتفاوتون فيه لتفاوتهم في التقوى والأعمال.

ثم رجع تعالى إلى غزوة أُحد بعد تمهيد مبادئ الرشد والصلاح وقال فِي الهَزِيمَة:

قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾ وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾

﴿١٣٧﴾﴿قَدْ خَلَتْ﴾ مَضَتْ ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَن﴾ أي قد مضت سنة الله في الأمم الماضية من نصر وهزيمة، وعزة وذلة، وإصبار وإمهال، وعقاب في الدنيا وثواب فيها، ﴿فَسِيرُوا﴾ أَيّهَا الْمُؤْمِنُونَ ﴿فِي الأَرْض﴾ متأملين متبصرين ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة

﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ الرُّسُل. أي فسترون الحال السيئة التي انتهى إليها المكذبون من تخريب ديارهم، وبقايا آثارهم. أَيْ آخِرِ أَمْرِ الكفار مِنَ الْهَلاك، فَلاَ تَحْزَنُوا لِغَلَبَتِهِمْ، فَأَنَا أُمْهِلهُمْ لِوَقْتِهِمْ ولا أهملهم. ﴿١٣٨﴾﴿هَذَا﴾ الْقُرْآن أو ما تقدم ذكره ﴿بَيَان لِلنَّاسِ﴾ كُلّهمْ ﴿وَهُدًى﴾ مِنَ الضَّلاَلَة ﴿وَمَوْعِظَة لِلْمُتَّقِينَ﴾ مِنْهُمْ. ﴿١٣٩﴾﴿وَلاَ تَهِنُوا﴾ تَضْعُفُوا عَنْ قِتَال الْكُفَّار ﴿وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ عَلَى مَا أَصَابَكُمْ بِأُحُدٍ ﴿وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ﴾ لأنكم قد أصبتم منهم في غزوة بدر أكثر مما أصابوا منكم في غزوة أحد، ولأنكم تقاتلون من أجل إعلاء كلمة الله وهم يقاتلون في سبيل الطاغوت، ولأنكم سيكون لكم النصر عليهم في النهاية ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حَقًّا فلا تهنوا ولا تحزنوا؛ فإن الله تعالى وعد بنصرة هذا الدين، فإن كنتم من المؤمنين علمتم أن هذه الواقعة لا تبقى بحالها، وأن الدولة تصير للمسلمين والاستيلاء على العدو يحصل لهم. ﴿١٤٠﴾﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ﴾ يُصِبْكُمْ بِأُحُدٍ ﴿قَرْح﴾ مِنْ جُرْح وَنَحْوه. والقرح -بفتح القاف- الجرح الذي يصيب الإنسان، والقرح -بضم القاف- الألم الذي يترتب على ذلك. وقيل: "هما لغتان بمعنى واحد وهو الجرح وأثره." ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْم﴾ الْكُفَّار ﴿قَرْح مِثْله﴾ بِبَدْرٍ ﴿وَتِلْكَ الأَيَّام نُدَاوِلهَا﴾ نُصَرِّفهَا ﴿بَيْن النَّاس﴾ يَوْمًا لِفِرْقَةٍ، وَيَوْمًا لأُخْرَى لِيَتَّعِظُوا ﴿وَلِيَعْلَم الله﴾ عِلْم ظُهُور ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أَخْلَصُوا فِي إِيمَانهمْ مِنْ غَيْرهمْ ﴿وَيَتَّخِذ مِنْكُمْ شُهَدَاء﴾ أي وليكرم بعضكم بنعمة الشهادة ﴿وَالله لاَ يُحِبّ الظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ. أَيْ يُعَاقِبهُمْ، وَمَا يُنْعِم بِهِ عليهم استدراج. ﴿١٤١﴾﴿وَلِيُمَحِّص الله الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يُطَهِّرهُمْ مِنَ الذُّنُوب بما يصيبهم، ويخلصهم من المنافقين الْمُنْدَسِّين بينهم. من المحص بمعنى التنقية والتخليص. يقال: "محصت الذهب بالنار ومحصته." إذا أزلت عنه ما يشوبه من خبث، ﴿ويمحق﴾ يهلك ﴿الكافرين﴾ بسبب بغيهم وبطرهم رويدا رويدا. ﴿١٤٢﴾﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّة ولما﴾ لم ﴿يَعْلَمِ الله﴾ عِلْم ظُهُور ﴿الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَم الصَّابِرِينَ﴾ فِي الشَّدَائِد. ﴿١٤٣﴾﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ﴾ فِيهِ حَذْف إِحْدَى التَّاءَيْنِ فِي الأَصْل ﴿الْمَوْت مِنْ قَبْل أَنْ تَلْقَوْهُ﴾ حَيْثُ قُلْتُمْ: "لَيْتَ لَنَا يَوْمًا كَيَوْمِ بَدْر لِنَنَالَ مَا نَالَ شُهَدَاؤُهُ." ﴿فَقَدْ

رَأَيْتُمُوهُ﴾ أَيْ سَبَبه الْحَرْب ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ وظاهره العموم والمراد الخصوص. وذلك أن جماعة من المؤمنين لم يحضروا غزوة بدر، فتمنوا لقاء العدو ليكون لهم يوم كيوم بدر، وهم الذين حرضوا على الخروج لأحد. فلما كان في يوم أحد ما كان من قتل عبد الله بن قميئة مصعب بن عمير الذاب عن رسول الله ﷺ ظانا أنه رسول الله وقال: "قتلت محمدًا." وصرخ بذلك صارخ، وفشاد ذلك في الناس انكفوا فارين، فدعاهم الرسول ﷺ: "إلي عباد الله." حتى انحازت إليه طائفة واستعذروا عن انكفافهم قائلين: "أتانا خبر قتلك، فرعبت قلوبنا، فولينا مدبرين." فنزلت هذه الآية تلومهم على ما صدر منهم مع ما كانوا قرروا على أنفسهم من تمني الموت.

لَمَّا أُشِيعَ أَنَّ النَّبِيّ ﷺ قُتِلَ، وَقَالَ لَهُمْ الْمُنَافِقُونَ: "إنْ كَانَ قُتِلَ فَارْجِعُوا." فنزلت:

وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ كِتَابًا مُؤَجَّلاً وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾

﴿١٤٤﴾﴿وَمَا مُحَمَّد إلاَّ رَسُول قَدْ خَلَتْ مِنْ قبله الرسل أفإنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ أي أفإن أماته الله أو قتله الكفار ﴿انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابكُمْ﴾ رَجَعْتُمْ إلَى الْكُفْر. وقيل: "أدبرتم إلى المدينة." ﴿وَمَنْ يَنْقَلِب عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرّ الله شَيْئًا﴾ وَإِنَّمَا يَضُرّ نَفْسه ﴿وَسَيَجْزِي الله الشَّاكِرِينَ﴾ نِعَمه من الصحة والهداية والأرزاق بالثبات في الدين والحرب.

﴿١٤٥﴾﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوت إلاَّ بِإِذْنِ اللهِ﴾ بِقَضَائِهِ ﴿كِتَابًا مُؤَجَّلاً﴾ أي كتب لكل نفسٍ أجلها كتابًا مؤقتًا بوقت معلوم لا يتقدم ولا يتأخر. والغرض تحريضهم على الجهاد وترغيبهم في لقاء العدو، فالجبنُ لا يزيد في الحياة، والشجاعة لا تنقص منها. ﴿وَمَنْ يُرِدْ﴾ بِعَمَلِهِ ﴿ثَوَاب الدُّنْيَا﴾ أَيْ جزاءها وثمارها كالأموال والغنائم ﴿نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ما نشاء أن نؤتيه، ولا يكون له في الآخرة من نصيب. وهذا تعريض بمن شغلوا بجمع الغنائم عن الجهاد مع رسول الله ﷺ أو بمن تركوا أماكنهم التي وضعهم فيها رسول الله ﷺ وسارعوا إلى جمع حطام الدنيا، فنتج عن ذلك هزيمة المسلمين في غزوة أحد. ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَاب الآخِرَة نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾ ما نشاء من عطائنا الذين تشتهيه النفوس وتقر له العيون. ﴿وسنجزي الشاكرين﴾ على نعمه ويثبت على شرعه. ﴿١٤٦﴾﴿وكأين﴾ كم ﴿من نبي قاتَلَ مَعَهُ﴾ لإعلاء كلمة الله ﴿رِبِّيُّونَ كَثِير﴾ علماء ربانيون وعُبَّاد صالحون. قال الأخفش: "الربيون الذين يعبدون الرب." وقال الزجاج: "هم الجماعات الكثيرة، الواحد ربي." وقال الفراء: "الربيون الأولون." وقال صاحب الكشاف: "الربيون الربانيون." وقال ابن زيد: "الربانيون الأئمة والولاة، والربيون الرعية، وهم المنتسبون إلى الرب." ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ جَبُنُوا ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيل اللهِ﴾ مِنَ الْجِرَاح وَقَتْل أَنْبِيَائِهِمْ وَأَصْحَابِهِمْ ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ عَنِ الْجِهَاد ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ خَضَعُوا لِعَدُوِّهِمْ كَمَا فَعَلْتُمْ حِين قِيلَ قُتِلَ النَّبِيّ ﴿وَاللهُ يُحِبّ الصَّابِرِينَ﴾ عَلَى آلام القتال ومصاعب الجهاد. ﴿١٤٧﴾﴿وَمَا كَانَ قَوْلهمْ﴾ عِنْد قَتْل نَبِيّهِمْ وهزيمتهم مَعَ ثَبَاتهمْ وَصَبْرهمْ ﴿إلاَّ أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ أي تجاوزنا الحد في عبوديتنا، خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على سُوءِ فِعْلهمْ وَهَضْمًا لأنفسهم ﴿وثبت أقدامنا﴾ في القتال ﴿وانصرنا على القوم الكافرين﴾ بالغلبة. وقدم الدعاء الاستغفار من الذنوب على طلب تثبيت الأقدام والنصرة على الأعداء؛ لأنه أقرب إلى الإجابة لما فيه من الخضوع والاستكانة. ﴿١٤٨﴾﴿فَآتَاهُمْ اللهُ ثَوَاب الدُّنْيَا﴾ النَّصْر وَالْغَنِيمَة ﴿وَحُسْنَ ثَوَاب الآخِرَة﴾ أَيْ المغفرة والْجَنَّة. وصفه بقوله ﴿وحسن ثواب الآخرة﴾ لأنه خير

وأبقى. ﴿والله يحب المحسنين﴾ أي يحب من أحسن عمله وأخلص نيته. ﴿١٤٩﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فِيمَا يأمرونكم به. والمراد بهم المنافقون؛ لأنهم قالوا للمؤمنين عند هزيمتهم في أحد: "ارجعوا إلى إخوانكم وادخلوا في دينهم." ﴿يردكم على أعقابكم﴾ إلى الكفر ﴿فتنقلبوا خاسرين﴾ أي فترجعوا خاسرين لخيرى الدنيا والآخرة. ﴿١٥٠﴾﴿بَلِ اللهُ مَوْلاَكُمْ﴾ والمعنى أنكم إنما تطيعون الكفار لينصروكم ويعينوكم على مطالبكم، وهذا جهل، لأنهم ليسوا أولياء لكم وأنهم عاجزون متحيرون؛ والعاقل يطلب النصرة من الله تعالى، لأنه تعالى هو وليكم ومعينكم ﴿وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ﴾ لأنه هو الذي لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، فأخلصوا له العبادة والطاعة.

المطلب الثالث: رجوع المشركين إلى مكة

ثم بشر تعالى المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم فقال:

سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٥١﴾

﴿١٥١﴾﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوب الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْب﴾ وَقَدْ عَزَمُوا بَعْد ارْتِحَالهمْ مِنْ أُحُد عَلَى الْعَوْد وَاسْتِئْصَال الْمُسْلِمِينَ، فَرَعَبُوا وَلَمْ يَرْجِعُوا ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ بِسَبَبِ إِشْرَاكهمْ ﴿بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ حُجَّة عَلَى عِبَادَته وَهُوَ الأَصْنَام ﴿وَمَأْوَاهُمْ النَّار﴾ أي مستقرهم النار. والمأوى اسم مكان من أوى يأوى. وهو المكان الذي يرجع إليه الشخص ويعود إليه. ﴿وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ مستقر الْكَافِرِينَ هِيَ. والمثوى اسم مكان أيضا يقال: "ثوى بالمكان." أي أطال الإقامة والنزول فيه.

المطلب الرابع: نعاس المسلمين في أحد

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ

صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ إِذْ تُصْعِدُونَ وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلاَ تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾

﴿١٥٢﴾﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَه﴾ إِيَّاكُمْ بِالنَّصْرِ ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُمْ﴾ تَقْتُلُونَهُمْ قتلاً شديدًا يفقدون معه حسهم وحركتهم في أول المعركة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ بِإِرَادَتِهِ ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ جبنتم عن القتال ﴿وَتَنَازَعْتُمْ﴾ اخْتَلَفْتُمْ ﴿فِي الأَمْرِ﴾ أَيْ أَمْر النَّبِيّ ﷺ بِالْمُقَامِ فِي سَفْح الْجَبَل لِلرَّمْيِ، فَقَالَ بَعْضكُمْ: "نَذْهَب فَقَدْ نُصِرَ أَصْحَابنَا." وَبَعْضكُمْ: "لاَ نُخَالِف أَمْر النَّبِيّ ﷺ." ﴿وَعَصَيْتُمْ﴾ أي كثيركم أَمْره فَتَرَكْتُمْ الْمَرْكَز لِطَلَبِ الْغَنِيمَة ﴿مِنْ بَعْد مَا أَرَاكُمْ﴾ الله ﴿ما تحبون﴾ من النصر. وَجَوَاب "إِذَا" دَلَّ عَلَيْهِ مَا قَبْله، أَيْ منعكم نصره. ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيد الدُّنْيَا﴾ فَتَرَكَ الْمَرْكَز لِلْغَنِيمَةِ ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيد الآخِرَة﴾ فَثَبَتَ بِهِ حَتَّى قُتِلَ كَعَبْدِ اللهِ بْن جُبَيْر وَأَصْحَابه. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ عَطْف عَلَى جَوَاب "إِذَا" الْمُقَدَّر رَدَّكُمْ بِالْهَزِيمَةِ عن الْكُفَّار ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ لِيَمْتَحِنكُمْ؛ فَيَظْهَر الْمُخْلِص مِنْ غَيْره، ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ مَا ارْتَكَبْتُمُوهُ ﴿وَاللهُ ذُو فَضْل عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ بالعفو عنهم وقبول توبتهم. اذكروا ﴿١٥٣﴾﴿إذ تصعدون﴾ تَبْعُدُونَ فِي الأَرْض هَارِبِينَ ﴿وَلاَ تَلْوُونَ عَلَى أَحَد﴾ ولا تلتفتون إلى أحد ﴿وَالرَّسُول يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ﴾ أَيْ مِنْ وَرَائِكُمْ يَقُول: "إِلَيَّ عِبَاد الله!" ﴿فَأَثَابَكُمْ﴾ أي فعاقبكم. وأصل الإثابة إعطاء الثواب، وهو شيء يكون جزاءً على عطاء أو فعل. ولفظ الثواب لا يستعمل في الأعم

الأغلب إلا في الخير. والمراد به هنا العقوبة التي نزلت بهم. ﴿غَمًّا بِغَمٍّ﴾ أي أن الله عاقبكم بغموم كثيرة وأحزان كبيرة مثل إرجاف قتل النبي ﷺ، وخوف عذاب الله من ترك إجابة النبي ﷺ، وقلق تسلط المشركين على أهاليهم ﴿لكيلا تَحْزَنُوا﴾ لتتمرنوا على تجرع الغموم فلا تحزنوا فيما بعد ﴿عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ مِنَ النصر والْغَنِيمَة ﴿وَلاَ مَا أَصَابَكُمْ﴾ مِنَ الجرح والهزيمة ﴿والله خبير بما تعملون﴾ لا يخفى عليه شيء من أعمالكم. وهذا ترغيب في الطاعة وترهيب عن المعصية. ﴿١٥٤﴾﴿ثم أنزل عليكم مِنْ بَعْد الْغَمّ أَمَنَة﴾ أَمْنًا. والأمنة مصدر كالأمن ﴿نُعَاسًا﴾ بَدَل منه. والنعاس الفتور في أوائل النوم. ومن شأنه أن يزيل عن الإنسان بعض متاعبه ولا يغيب صاحبه، فلذلك كان أمنة لهم؛ لأنه لو كان نوما ثقيلا لهاجمهم المشركون ﴿يَغْشَى﴾ بِالْيَاءِ وَالتَّاء ﴿طَائِفَة مِنْكُمْ﴾ وَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ، فَكَانُوا يَمِيدُونَ تَحْت الحجف وَتَسْقُط السُّيُوف مِنْهُمْ. ﴿وَطَائِفَة قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسهمْ﴾ وَهُمْ الْمُنَافِقُونَ، فقد حَمَلَتْهُمْ أنفسهم عَلَى الْهَمّ، فَلاَ رَغْبَة لَهُمْ إلاَّ نَجَاتَهَا دُون النَّبِيّ وَأَصْحَابه، فَلَمْ يَنَامُوا. والهم ما يهتم له الإنسان أو ما يحزنه. ﴿يَظُنُّونَ بِاللهِ﴾ ظَنًّا ﴿غَيْر﴾ الظَّنّ ﴿الْحَقّ ظَنَّ﴾ أَيْ كَظَنِّ ﴿الْجَاهِلِيَّة﴾ أي يظنون بالله السيئة مثل ظنِّ أهل الجاهلية حَيْثُ اعْتَقَدُوا أَنَّ النَّبِيّ لاَ يُنْصَر. ﴿يَقُولُونَ﴾ أي المنافقون ﴿هَلْ﴾ مَا ﴿لَنَا مِنَ الأَمْر مِنْ شَيْء﴾ أي فلسنا مسئولين عن الهزيمة التي حدثت للمسلمين في أحد؛ لأننا لم يكن لنا رأى يطاع. وذلك أن عبد الله بن أبى لما استشاره النبي ﷺ في شأن الخروج لقتال المشركين في أحد أشار عليه بأن لا يخرج من المدينة، إلا أن الرسول ﷺ خرج لقتال المشركين بناء على إلحاح بعض الصحابة. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿إِنَّ الأَمْر كُلّه لِلَّهِ﴾ أَيْ الْقَضَاء لَهُ وحده من النصر والهزيمة وغيرهما، يَفْعَل مَا يَشَاء. ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسهمْ مَا لاَ يُبْدُونَ لَك﴾ يُظْهِرُونَ لك. هذا إعلان بما يخفونه من النفاق الذي لا يقدرون أن يظهروا منه أكثر من هذه النزغات. ﴿يَقُولُونَ﴾ بَيَان لِمَا قَبْله ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الأَمْر شيء ما قتلنا ها هنا﴾ أَيْ لَوْ كَانَ الاخْتِيَار إلَيْنَا لَمْ نَخْرُج فَلَمْ نُقْتَل، لَكِنْ أُخْرِجنَا كَرْهًا. ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿لَوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتكُمْ﴾ وَفِيكُمْ مَنْ كَتَبَ الله عَلَيْهِ

الْقَتْل ﴿لَبَرَزَ﴾ خَرَجَ ﴿الَّذِينَ كُتِبَ﴾ قُضِيَ ﴿عَلَيْهِمُ الْقَتْل﴾ مِنْكُمْ ﴿إِلَى مَضَاجِعِهِمْ﴾ مَصَارِعِهِمْ فَيُقْتَلُوا، وَلَمْ يُنْجِهِمْ قُعُودهمْ؛ لأَنَّ قَضَاءَهُ تَعَالَى كَائِن لاَ مَحَالَة ﴿و﴾ فَعَلَ مَا فَعَلَ بِأُحُدٍ ﴿لِيَبْتَلِيَ﴾ يَخْتَبِر ﴿اللهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ قُلُوبكُمْ مِنَ الإِخْلاَص وَالنِّفَاق ﴿وَلِيُمَحِّص مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي ليطهرهم من الذنوب ويصفيهم من السيئات. ﴿وَاللهُ عَلِيم بِذَاتِ الصُّدُور﴾ بِمَا فِي الْقُلُوب لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْء، وَإِنَّمَا يَبْتَلِي لِيُظْهِر لِلنَّاسِ. ﴿١٥٥﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ﴾ عَنِ الْقِتَال. وقد كان أصحاب النبي ﷺ تولوا عنه يوم أحد إلا أربعة عشر رجلاً؛ سبعة من المهاجرين، وسبعة من الأنصار. فمن المهاجرين أبو بكر، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة بن الجراح، والزبير بن العوام. ومن الأنصار الخباب بن المنذر، وأبو دجانة، وعاصم بن ثابت، والحارث بن الصمة، وسهل بن حنيف، وأسيد بن حضير، وسعد بن معاذ. ﴿يَوْم الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ أي جَمْع الْمُسْلِمِينَ وَجَمْع الْكُفَّار بِأُحُدٍ. ﴿إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَان﴾ أي حملهم على هذا الخطإ بِوَسْوَسَتِهِ ﴿بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا﴾ أى بسبب بعض ما اكتسبوه من ذنوب مثل ترك الرماة المركز الذي أمرهم رسول الله ﷺ بالثبات فيه. ﴿وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ﴾ أي تجاوز عن عقوبتهم، ومنهم عثمان بن عفان ﷺ. ﴿إِنَّ اللهَ غَفُور﴾ للذنوب ﴿حليم﴾ لا يعجل العقوبة لمن عصاه.

المطلب الخامس: رجوع المسلمين إلى المدينة

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾ وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

﴿١٥٦﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أَيْ الْمُنَافِقِينَ ﴿وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ﴾ أي في حقهم. يحتمل أن يكون المراد منه الأخوة في النسب وإن كانوا

مسلمين، ويحتمل أن يكون المراد منه الأخوة في النفاق وإن كانوا منافقين ﴿إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ﴾ أي إذا سافروا فيها للتجارة أو غيرها، فماتوا ﴿أَوْ كَانُوا غُزًّى﴾ أي إذا خرجوا غازين، فَقُتِلُوا ﴿لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ أَيْ لاَ تَقُولُوا كَقَوْلِهِمْ ﴿لِيَجْعَلَ اللهُ ذَلِكَ﴾ أي ليصير ذلك الاعتقاد الفاسد ﴿حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ والحسرة الندامة على فوت المحبوب. فالحسرة هنا الهم المضني الذي يلقي على النفس الحزن المستمر والألم الشديد ﴿وَاللهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ فَلا يَمْنَع عَنِ الْمَوْت قُعُود. ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. قال الراغب: علق ذلك بالبصر لا بالسمع، وإن كان الصادر منهم قولا مسموعا لا فعلا مرئيا؛ لما كان ذلك القول من الكافر قصدا منهم إلى عمل يحاولونه، فخص البصر بذلك، كقولك لمن يقول شيئا وهو يقصد فعلا يحاوله: "أنا أرى ما تفعله." ﴿١٥٧﴾﴿وَلَئِنْ﴾ لام قَسَم ﴿قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ أَيْ فِي الْجِهَاد ﴿أَوْ مُتُّمْ﴾ في سبيله من غير قتال ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ كَائِنَة ﴿مِنَ اللهِ﴾ لِذُنُوبِكُمْ ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ مِنْهُ لَكُمْ عَلَى ذَلِكَ ﴿خَيْرٌ مما يجمعون﴾ -بِالْيَاءِ وَالتَّاء-. أي خير مما يجمعه الكفرة من متع الدنيا وشهواتها الزائلة بخلاف مغفرة الله ورحمته؛ فإنهما باقيتان، ولا كدر معهما، ولا تعب، ولا قلق؛ أو مما تجمعون من الدنيا أيها المؤمنين! ﴿١٥٨﴾﴿وَلَئِنْ﴾ لام قَسَم ﴿مُتُّمْ﴾ على فراشكم ﴿أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ فِي الْجِهَاد ﴿لإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ﴾ تجمعون عنده. أي وسواء متم على فراشكم أو قتلتم في ساحة الحرب؛ فإن مرجعكم إلى الله فِي الآخِرَة فيجازيكم بأعمالكم.

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾

هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾

﴿١٥٩﴾﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ فبسبب رحمة عظيمة منحك الله إياها يا محمد! ﴿لِنْت لَهُمْ﴾ أَيْ سَهَّلْت أَخْلاَقك إذْ خَالَفُوك ﴿وَلَوْ كنت فظا﴾ سيء الْخُلُق ﴿غَلِيظ الْقَلْب﴾ جَافِيًا. فإن قيل: "ما الفرق بين الفظ وبين غليظ القلب؟" قلنا: "الفظ الذي يكون سيء الخلق، وغليظ القلب هو الذي لا يتأثر قلبه عن شيء، فقد لا يكون الإنسان سيء الخلق ولا يؤذي أحدا ولكنه لا يرق لهم ولا يرحمهم، فظهر الفرق من هذا الوجه." قال الصابوني: "الفظاظة في الكلام؛ نفى الجفاء عن لسانه، والقسوة عن قلبه." أي لو كنت جافي الطبع قاسي القلب، تعاملهم بالغلظة والجفا، إذًا ﴿لانْفَضُّوا﴾ تَفَرَّقُوا ﴿مِنْ حَوْلك﴾ ونفروا منك ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ تَجَاوَزْ مَا أَتَوْهُ ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ ذُنُوبهمْ حَتَّى أَغْفِر لَهُمْ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ بعد ذلك في أمر الحرب ونحوه مما لم ينزل عليك فيه وحي كما كان من قبل تطبيبًا لنفوسهم، وترويحا لقلوبهم، وَلِيُسْتَنّ بِك. والاستشارة مأخوذة من قول العرب: شرت العسل واشترته، إذا أخذته من موضعه؛ لأن به يستخرج الحق والصواب من عقول الحاذقين. ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ عَلَى إمْضَاء مَا تُرِيد بَعْد الْمُشَاوَرَة ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ ثِقْ بِهِ، لا بِالْمُشَاوَرَةِ ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ عَلَيْهِ. ﴿١٦٠﴾﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللهُ﴾ يُعِنْكُمْ عَلَى عَدُوّكُمْ كَيَوْمِ بَدْر ﴿فَلاَ غَالِب لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ﴾ يَتْرُك نَصْركُمْ كَيَوْمِ أُحُد ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْده﴾ أَيْ بَعْد خِذْلانه. والنصر الإعانة على الخلاص من غَلَب العدو ومريد الإضرار. والخذلان ضده، وهو إمساك الإعانة مع القدرة. ﴿وَعَلَى اللهِ﴾ لاَ غَيْره ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون﴾ أي وعلى الله وحده فليلجأ وليعتمد المؤمنون. وَنَزَلَتْ لَمَّا فُقِدَتْ قَطِيفَة حَمْرَاء يَوْم أُحُد فَقَالَ: "بَعْض النَّاس لَعَلَّ النَّبِيّ أَخَذَهَا." ﴿١٦١﴾﴿وَمَا كان لِنَبِيٍّ﴾ أي وما صحّ لنبي ﴿أَنْ يَغُلّ﴾ يَخُون فِي الْغَنِيمَة، فَلاَ تَظُنُّوا بِهِ ذَلِكَ ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْم الْقِيَامَة﴾ حَامِلاً لَهُ عَلَى ظهره ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلّ نَفْس﴾ الْغَالّ وَغَيْره جَزَاءُ ﴿مَا كَسَبَتْ﴾ عَمِلَتْ ﴿وَهُمْ لاَ يظلمون﴾ شيئا. ﴿١٦٢﴾﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَان اللهِ﴾ فَأَطَاعَ وَلَمْ يَغُلّ ﴿كَمَنْ بَاءَ﴾

رَجَعَ ﴿بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ﴾ لِمَعْصِيَتِهِ وَغُلُوله ﴿وَمَأْوَاهُ جَهَنَّم وَبِئْسَ الْمَصِيرِ﴾ الْمَرْجِع هِيَ. ﴿١٦٣﴾﴿هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْد اللهِ﴾ أي مختلفوا الْمَنَازِل عند الله؛ فَلِمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانه الثَّوَاب، وَلِمَنْ بَاءَ بِسَخَطِهِ الْعِقَاب. والضمير "هُمْ" يعود على من في قوله ﴿أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوانَ اللهِ﴾ وقوله ﴿كَمَنْ باءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللهِ﴾، أي على الفريقين. وبعضهم جعل مرجعه إلى الفريق الأول فقط. ﴿وَاللهُ بَصِير بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ فَيُجَازِيهِمْ به.

لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦٤﴾ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾

﴿١٦٤﴾﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي لقد أنعم الله على المؤمنين وأحسن إليهم ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أَيْ بشرًا مِثْلهمْ لِيَقتادوا به، لاَ مَلَكًا ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاته﴾ الْقُرْآن ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ يُطَهِّرهُمْ مِنَ الكفر والذُّنُوب ﴿وَيُعَلِّمهُمُ الْكِتَاب﴾ الْقُرْآن ﴿وَالْحِكْمَة﴾ السُّنَّة ﴿وَإِنْ﴾ مُخَفَّفَة أَيْ إِنَّهُمْ ﴿كَانُوا مِنْ قَبْل﴾ أَيْ قَبْل بَعْثه ﴿لَفِي ضَلَال مُبِين﴾ بَيِّن. ﴿١٦٥﴾﴿أَوَلَمَّا﴾ والهمزة للاستفهام الإنكاري التعجيبي، و الواو للعطف على محذوف، ولما ظرف بمعنى حين. أي أتركتم ما أرشدكم إليه الرسول

الكريم، ولما ﴿أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ﴾ بأُحُدٍ بِقَتْلِ سَبْعِينَ مِنْكُمْ ﴿قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا﴾ بِبَدْرٍ بِقَتْلِ سَبْعِينَ وَأَسْر سَبْعِينَ مِنْهُمْ ﴿قُلْتُمْ﴾ مُتَعَجِّبِينَ ﴿أَنَّى هَذَا﴾ أي من أين جاءت هذه الهزيمة؟ وَنَحْنُ مُسْلِمُونَ، وَرَسُول الله فِينَا؟ ﴿قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿هُوَ مِنْ عِنْد أَنْفُسكُمْ﴾ لأَنَّكُمْ تَرَكْتُمْ الْمَرْكَز والإجابة فَخُذِلْتُمْ ﴿إِنَّ الله عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير﴾ وَمِنْهُ النَّصْر وَمَنْعه، وَقَدْ جَازَاكُمْ بِخِلاَفِكُمْ. ﴿١٦٦﴾﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْم الْتَقَى الْجَمْعَانِ﴾ في أُحُدٍ ﴿فَبِإِذْنِ الله﴾ أي لا عجزًا في القدرة، ولا قهرًا للإرادة ﴿وَلِيَعْلَم﴾ عِلْم ظُهُور ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ حَقًّا. ﴿١٦٧﴾﴿وليعلم الذين نافقوا﴾ أي عبد الله بن أُبي بن سلول وأصحابه. ﴿وقِيلَ لَهُمْ﴾ أي للمنافقين لَمَّا انْصَرَفُوا عَنَ الْقِتَال ﴿تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيل الله﴾ أي جاهدوا للآخرة كما تقاتل المؤمنون ﴿أَوْ ادْفَعُوا﴾ أى قاتلوا دفعا عن أنفسكم وأهليكم وأموالكم إن لم تقاتلوا للآخرة. وقيل: "أو ادفعوا العدو بتكثيركم سواد المجاهدين إن لم تقاتلوا؛ لأن كثرة السواد مما تروع العدو." ﴿قَالُوا لَوْ نَعْلَم قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ أي قال المنافقون لو نعلم أنك تلقون حربًا لقاتلنا معكم، ولكن لا نظن أن يكون قتال. وقيل: "أرادوا لو نحسن القتال لاتبعناكم." قَالَ تَعَالَى تَكْذِيبًا لَهُمْ: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَب مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ﴾ يعني أنهم كانوا يتظاهرون بالإيمان قبل ذلك، وما ظهرت منهم أمارة تؤذّن بكفرهم، فلما انخذلوا عن عسكر المؤمنين وقالوا ما قالوا تباعدوا بذلك عن الإيمان المظنون بهم واقتربوا من الكفر. أو: هم لأهل الكفر أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان؛ لأن تقليلهم سواد المؤمنين بالانخذال تقوية المشركين. ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبهِمْ﴾ أي يظهرون خلاف ما يضمرون كما في قولهم: ﴿لَوْ نَعْلَم قِتَالاً لاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ ﴿وَالله أَعْلَم بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ مِنَ النِّفَاق. ﴿١٦٨﴾﴿الَّذِينَ قَالُوا﴾ أي ابن أبيّ وأصحابه ﴿لإِخْوَانِهِمْ﴾ أي من أجل إخوانهم، وهم الشهداء، وهم إخوة نسب ومجاورة، لا إخوة الدين ﴿و﴾ قَدْ ﴿قَعَدُوا﴾ هؤلاء المنافقين عَنِ الْجِهَاد ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ أَيْ شُهَدَاء أُحُد ﴿ما قتلوا قُلْ﴾ لَهُمْ ﴿فَادْرَءُوا﴾ ادْفَعُوا ﴿عَنْ أَنْفُسكُمُ الْمَوْت إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي زعمهم أَنَّ الْقُعُود يُنْجِي مِنْهُ. ﴿١٦٩﴾﴿وَلاَ تَحْسَبَن الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيل

اللهِ﴾ أَيْ لأَجْلِ دِينه ﴿أَمْوَاتًا بَلْ﴾ هُمْ ﴿أَحْيَاء عِنْد رَبّهمْ يُرْزَقُونَ﴾ من ثمار الجنة. ﴿١٧٠﴾﴿فَرِحِينَ﴾ حَال مِنْ ضَمِير يُرْزَقُونَ ﴿بِمَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْله وَ﴾ هُمْ ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفهمْ﴾ أي يطلبون أن يبشروا بإخوانهم المؤمنين ﴿ألا خوف عليهم﴾ أي الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ ﴿وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ فِي الآخِرَة. ﴿١٧١﴾﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ﴾ زِيَادَة عَلَيْهِ؛ فالنعمة ما استحقوه بطاعتهم، والفضلُ ما زادهم من المضاعفة في الأجر ﴿وَأَنَّ اللهَ لاَ يُضِيع أَجْر الْمُؤْمِنِينَ﴾ بَلْ يأجرهم. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "لَمَّا أُصِيبَ إِخْوَانُكُمْ بِأُحُدٍ جَعَلَ اللهُ أَرْوَاحَهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، تَرِدُ أَنْهَارَ الْجَنَّةِ، تَأْكُلُ مِنْ ثِمَارِهَا، وَتَأْوِي إِلَى قَنَادِيلَ مِنْ ذَهَبٍ مُعَلَّقَةٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ. فَلَمَّا وَجَدُوا طِيبَ مَأْكَلِهِمْ، وَمَشْرَبِهِمْ، وَمَقِيلِهِمْ قَالُوا: مَنْ يُبَلِّغُ إِخْوَانَنَا عَنَّا، أَنَّا أَحْيَاءٌ فِي الْجَنَّةِ نُرْزَقُ لِئَلاَّ يَزْهَدُوا فِي الْجِهَادِ، وَلاَ يَنْكُلُوا عِنْدَ الْحَرْبِ؟ فَقَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: أَنَا أُبَلِّغُهُمْ عَنْكُمْ." قَالَ: "فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ. (أبو داود، ٢٥٢٠)

المطلب السادس: تعقيب المشركين بعد الغزو

روي أن أبا سفيان وأصحابه لما انصرفوا من أحد فبلغوا الروحاء ندموا وهموا بالرجوع، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فأراد أن يرهبهم ويريهم من نفسه وأصحابه قوة، فندب النبي ﷺ وأصحابه للخروج في طلب أبي سفيان، فخرج يوم الأحد من المدينة مع سبعين رجلاً حتى بلغوا حمراء الأسد -وهي من المدينة على ثمانية أميال-، وكان بأصحابه القرح، فألقى الله الرعب في قلوب المشركين فذهبوا فنزلت:

الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللهِ وَاللهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾

﴿١٧٢﴾﴿الَّذِينَ﴾ مُبْتَدَأ ﴿اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُول مِنْ بَعْد مَا أَصَابَهُمْ الْقَرْح﴾ وَخَبَر الْمُبْتَدَأ: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ﴾ من للتبيين. أي لمن أطاع أمر الرسول وأجابه إلى الغزو على ما به من جراح وشدائد ﴿وَاتَّقَوْا﴾ مُخَالَفَته ﴿أَجْر عَظِيم﴾ هُوَ الْجَنَّة. ﴿١٧٣﴾﴿الَّذِينَ﴾ بَدَل مِنْ الَّذِينَ قَبْله أَوْ نَعْت ﴿قَالَ لَهُمُ النَّاس﴾ هم جماعة بني عبد القيس، كان أبو سفيان سألهم أن يثبِّطوا رسول الله ﷺ وأصحابه الذين خرجوا في طلبه بعد منصرفه عن أحد إلى حمراء الأسد: ﴿إِنَّ النَّاس﴾ أَبَا سُفْيَان وَأَصْحَابه ﴿قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ الْجُمُوع ليستأصلوكم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾ وَلاَ تَأْتُوهُمْ ﴿فَزَادَهُمْ﴾ ذَلِكَ الْقَوْل ﴿إِيمَانًا﴾ الظاهر أن الإيمان أطلق هنا على العمل، أي العزم على الجهاد ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ﴾ كَافِينَا أَمْرهمْ ﴿وَنِعْمَ الْوَكِيل﴾ الْمُفَوَّض إِلَيْهِ الأَمْر. ﴿١٧٤﴾﴿فَانْقَلَبُوا﴾ رَجَعُوا مِنْ حمراء الأسد ﴿بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ﴾ أي بعافية من ربهم لم يلقوا بها عدوًّا ﴿وَفَضْل﴾ وَبِرِبْح في التجارة بها. قال مجاهد والسدي: "النعمة هاهنا العافية، والفضل التجارة." وقيل: "النعمة منافع الدنيا، والفضل ثواب الآخرة." ﴿لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوء﴾ مِنْ قَتْل أَوْ جُرْح ﴿وَاتَّبَعُوا رِضْوَان اللهِ﴾ باتباع أثر العدوّ. أي أرضوا الله بفعلهم ذلك. ﴿وَاللهُ ذُو فَضْل عَظِيم﴾ عَلَى أَهْل طَاعَته. ﴿١٧٥﴾﴿إِنَّمَا ذَلِكُمْ الشيطان﴾ من الإنس أو الجن ﴿يخوف أولياءه﴾ المنافقين ليقعدوا عن قتال المشركين ﴿فَلاَ تَخَافُوهُمْ﴾ أيها المنافقين -أو المؤمنين- من المشركين ﴿وَخَافُونِ﴾ فِي تَرْك أَمْرِي ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حَقًّا. وقيل: "نزلت هذه الآيات في البدر الصغرى." والله أعلم!

وَلاَ يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٧﴾ وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٨﴾ مَا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا

فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

﴿١٧٦﴾﴿وَلاَ يَحْزُنك﴾ بِضَمِّ الْيَاء وَكَسْر الزَّاي، وَبِفَتْحِهَا وضم الزاي ﴿الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ بِنُصْرَتِهِ ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا الله شَيْئًا﴾ بِفِعْلِهِمْ، وَإِنَّمَا يَضُرُّونَ أَنْفُسهمْ ﴿يُرِيد الله أَلاَّ يَجْعَل لَهُمْ حَظًّا﴾ نَصِيبًا ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ أَيْ الْجَنَّة، فَلِذَلِكَ خَذَلَهُمْ الله ﴿وَلَهُمْ عَذَاب عَظِيم﴾ فِي النَّار. ﴿١٧٧﴾﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ﴾ أَيْ أَخَذُوهُ بَدَله ﴿لَنْ يَضُرُّوا الله﴾ بِكُفْرِهِمْ ﴿شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم. قال النسفي: "الآية الأولى فيمن نافق من المتخلفين أو ارتد عن الإسلام، والثانية في جميع الكفار، أو على العكس." ﴿١٧٨﴾﴿وَلاَ يَحْسَبَن الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ من الإملاء، وهو الإمهال والتخلية بين العامل والعمل ليبلغ مداه. أي لا يظنّنّ الكافرون أن إمهالنا بتطويل أعمارهم وبإعطائهم الكثير من وسائل العيش بدون جزاء وعذاب ﴿خَيْر لأَنْفُسِهِمْ﴾ كلاَّ ﴿إِنَّمَا نُمْلِي﴾ نُمْهِل ﴿لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾ بِكَثْرَةِ الْمَعَاصِي ﴿وَلَهُمْ عَذَاب مُهِين﴾ ذُو إِهَانَة فِي الآخرة. ﴿١٧٩﴾﴿مَا كَانَ الله لِيَذَر الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي ما كان الله مريدًا لأن يذر المؤمنين، أي لن يترك الله المؤمنين ﴿عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ﴾ مختلطين بالمنافقين ﴿حَتَّى يَمِيز﴾ يَفْصِل ﴿الْخَبِيث﴾ الْمُنَافِق ﴿مِنَ الطَّيِّب﴾ الْمُؤْمِن بِالتَّكَالِيفِ الشَّاقَّة الْمُبَيِّنَة، كما فعل في غزوة أُحد حيث ظهر أهل الإيمان وأهل النفاق ﴿وَمَا كَانَ الله لِيُطْلِعكُمْ عَلَى الْغَيْب﴾ فَتَعْرِفُوا الْمُنَافِق مِنْ غَيْره قَبْل التَّمْيِيز ﴿وَلَكِنَّ الله يَجْتَبِي﴾ يَخْتَار ﴿مِنْ رُسُله مَنْ يَشَاء﴾ فَيُطْلِعهُ عَلَى غَيْبه كَمَا أَطْلَعَ النَّبِيّ ﷺ عَلَى حَال الْمُنَافِقِينَ ﴿فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُله وإن تؤمنوا وتتقوا﴾ النفاق ﴿فلكم أجر عظيم﴾ في الآخرة.

قال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما بالغ في التحريض على بذل النفس في الجهاد في الآيات المتقدمة شرع هاهنا في التحريض على بذل المال في الجهاد، وبين الوعيد الشديد لمن يبخل ببذل المال في سبيل الله."

وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ

خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾

﴿١٨٠﴾﴿وَلاَ يَحْسَبَنّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمْ اللهُ مِنْ فَضْلِه﴾ أَيْ بِإنفاقه في سبيله ﴿هُوَ﴾ أَيْ بُخْلهمْ ﴿خَيْرًا لَهُمْ﴾ كلاَّ ﴿بَلْ هُوَ شَرّ لَهُمْ﴾ خلاف ظنهم ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾ مِنَ الْمَال ﴿يَوْم الْقِيَامَة﴾ بِأَنْ يُجْعَل حَيَّة فِي عُنُقه، أو بأن يلزم إثمه في الآخرة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاث السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ يَرِثهُمَا بَعْد فَنَاء أَهْلهما، فما لهم يبخلون عليه بملكه ولا ينفقونه في سبيله ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِير﴾ فَيُجَازِيكُمْ بِهِ. قال الغزالي: "فَالْبَخِيلُ هُوَ الَّذِي يَمْنَعُ حَيْثُ يَنْبَغِي أَنْ لا يَمْنَعَ؛ إِمَّا بِحُكْمِ الشَّرْعِ، وَإِمَّا بِحُكْمِ المروءة. والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة؛ فإن منع واحدًا منهما فهو بخيل، ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة ويمنع عياله وأهله النفقة، أو يؤديها ولكنه يشق عليه فإنه بخيل بالطبع." وقال النبي ﷺ فيمن يمنع الزكاة: "مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالاً فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوَّقُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ، يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ -يَعْنِي بِشِدْقَيْهِ- يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ أَنَا كَنْزُكَ." ثُمَّ تَلاَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَلاَ يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ." (البخاري، ٤٥٦٥).

المبحث الثالث: علاقات مع أهل الكتاب

المطلب الأول: مكائد اليهود

اعلم أن في كيفية النظم وجهين: الأول: أنه تعالى لما أمر المكلفين في هذه الآيات ببذل النفس وبذل المال في سبيل الله وبالغ في تقرير ذلك، شرع بعد ذلك في حكاية شبهات القوم في الطعن في نبوته. فالشبهة الأولى: أنه تعالى لما أمر بإنفاق الأموال في سبيله قالت الكفار: إنه تعالى لو طلب الإنفاق في تحصيل مطلوبه لكان فقيرا عاجزا، لأن الذي يطلب المال من غيره يكون فقيرا، ولما كان الفقر على الله تعالى محالا، كان كونه طالبا للمال من عبيده محالا، وذلك يدل على أن محمدا كاذب في إسناد هذا

الطلب إلى الله تعالى. الوجه الثاني: في طريق النظم أن أمة موسى عليه السلام كانوا إذا أرادوا التقرب بأموالهم إلى الله تعالى، فكانت تجيء نار من السماء فتحرقها، فالنبي صلى الله عليه وسلم لما طلب منهم بذل الأموال في سبيل الله قالوا له لو كنت نبيا لما طلبت الأموال لهذا الغرض، فإنه تعالى ليس بفقير حتى يحتاج في إصلاح دينه إلى أموالنا، بل لو كنت نبيا لكنت تطلب أموالنا لأجل أن تجيئها نار من السماء فتحرقها، فلما لم تفعل ذلك عرفنا أنك لست بنبي، فهذا هو وجه النظم.

لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾

﴿١٨١﴾﴿لَقَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قال ذلك اليهود حين سمعوا قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ (البقرة، ٢/٢٤٥)، وقالوا: "إن إله محمد يستقرض منا، فنحن إذًا أغنياء، وهو فقير." ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ أي سنأمر الحفظة بكتابة ما قالوه في صحائف أعمالهم لِيُجَازَوْا عَلَيْهِ ﴿و﴾ نَكْتُب ﴿قَتْلَهُمُ الأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ والمراد به رضاهم بفعل أسلافهم ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ أَيْ ويقول الله لَهُمْ فِي الآخِرَة عَلَى لِسَان الْمَلائِكَة: "ذوقوا عذاب النار المحرقة." وَيُقَال لَهُمْ إِذَا أُلْقُوا فيها: ﴿١٨٢﴾﴿ذَلِكَ﴾ الْعَذَاب ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ عَبَّرَ بِهَا عَنْ الإِنْسَان لأَنَّ أَكْثَر الأَفْعَال تُزَاوَل بِهَا ﴿وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ﴾ أَيْ بِذِي ظُلْم ﴿لِلْعَبِيدِ﴾ فَيُعَذِّبُهُمْ بِغَيْرِ ذَنْب. ﴿١٨٣﴾﴿الَّذِينَ﴾ نَعْت لِلَّذِينَ قَبْله ﴿قَالُوا﴾ لِمُحَمَّدٍ ﴿إِنَّ اللهَ﴾ قَدْ ﴿عَهِدَ إِلَيْنَا﴾ فِي التَّوْرَاة ﴿أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّى يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ أي أمرنا بأن لا نصدق لرسول حتى يأتينا بآية خاصة، وهي أن يقدّم قربانًا فتنزل نار من السماء فتأكله، وهذا افتراء على الله حيث لم يعهد إليهم بذلك ﴿قل﴾ تَوْبِيخًا ﴿قَدْ جَاءَكُمْ

رُسُل مِنْ قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بِالْمُعْجِزَاتِ ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ﴾ أي بالقربان يعني قد جاء أسلافكم الذين أنتم على ملتهم وراضون بفعلهم ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ فِي أَنَّكُمْ تُؤْمِنُونَ عِنْد الإِتْيَان بِهِ.

المطلب الثاني: التسليات والإيقاظات

فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾

﴿١٨٤﴾﴿فَإِنْ كَذَّبُوك فَقَدْ كُذِّبَ رُسُل مِنْ قَبْلك جاؤوا بالبينات﴾ المعجزات ﴿والزبر﴾ أي المواعظ. من الزبر بمعنى الزجر ﴿والكتاب الْمُنِير﴾ والمراد جنسه، أي الصحف والكتب، فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرُوا. إنها تسلية أولى. ﴿١٨٥﴾﴿كُلّ نَفْس ذَائِقَة الْمَوْت وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُوركُمْ﴾ جَزَاء أَعْمَالكُمْ ﴿يَوْم الْقِيَامَة﴾ فإن الدنيا ليست بدار الجزاء ﴿فَمَنْ زُحْزِحَ﴾ بُعِدَ ﴿عَنِ النَّار وَأُدْخِل الْجَنَّة فَقَدْ فَازَ﴾ نَالَ غَايَة مَطْلُوبه. ﴿وَمَا الْحَيَاة الدُّنْيَا﴾ أَيْ الْعَيْش فيها ﴿إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ المتاع ما يتمتع به وينتفع به مما يباع ويشترى. وقد شبهها سبحانه بذلك المتاع الذي يدلس به على المستام ويغير حتى يشتريه، يتمتع به قَلِيلاً ثُمَّ يَفْنَى. إنها تسلية أخرى، كأنه يقول: "لا تضجر، ولا تسأم لما ترى من معاندة الكافرين، فإن هذا منتهٍ، وكل ما له نهاية فلا بد من الوصول إليه، فالذي يصير إليه هؤلاء المعاندون قريب، فيجازون على أعمالهم، ولا تنتظر أن يوفوا جزاء عملهم السيئ كله في هذه الدار، كما أن أجرك على عملك لا توفاه في هذه الحياة، فحسبك ما أصبت من الجزاء." وقال ابن عاشور: "هذه الآية مرتبطة بأصل الغرض المسوق له الكلام، وهو تسلية المؤمنين على ما أصابهم يوم أحد، وتفنيد المنافقين في مزاعمهم أن الناس لو استشاروهم في القتال لأشاروا بما فيه سلامتهم فلا يهلكوا."

لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ

الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ ﴿١٨٦﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾

﴿١٨٦﴾﴿لَتُبْلَوُنَّ﴾ استئناف لإيقاظ المؤمنين إلى ما يعترض أهل الحق وأنصار الرسل من البلوى، وتنبيه لهم على أنهم إن كانوا ممن توهنهم الهزيمة فليسوا أحرياء بنصر الحق ﴿فِي أَمْوَالِكُمْ﴾ كنفقات الجهاد، وتلاشي أموالهم التي تركتموها بمكة ﴿وَأَنْفُسِكُمْ﴾ كالقتل والجراح ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَاب مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ الْيَهُود وَالنَّصَارَى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ مِنَ الْعَرَب ﴿أَذًى كَثِيرًا﴾ مِنَ السَّبّ، وَالطَّعْن، والردّ ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا﴾ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَتَتَّقُوا﴾ بالدوام على أمور الإيمان والإقبال على بثه وتأييده ﴿فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ والأذى هو الضر بالقول كقوله تعالى: ﴿لن يضروكم إلا أذى﴾ (آل عمران، ١١١/٣) كما تقدم، ولذلك وصفه هنا بالكثير، أي الخارج عن الحد الذي تحتمله النفوس غالبا، وكل ذلك مما يفضي إلى الفشل، فأمرهم الله لذلك بالصبر والتقوى، فإنهما من الأمور التي ينبغي أن تعزموا وتحزموا عليها؛ لأنهما ممّا أمر الله بها.

﴿١٨٧﴾﴿و﴾ اذْكُرْ ﴿إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ أَيْ الْعَهْد المؤكد على اليهود فِي التَّوْرَاة ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ يَكْتُمُونَهُ﴾ أي لتظهرنَّ ما في الكتاب من آيات الله ولا تخفونها، ومنها أمر النبي ﷺ ﴿فَنَبَذُوهُ﴾ طَرَحُوا الْمِيثَاق ﴿وَرَاء ظُهُورهمْ﴾ فَلَمْ يَعْمَلُوا بِهِ ﴿وَاشْتَرَوْا بِهِ﴾ أَخَذُوا بَدَله ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ مِنَ الدُّنْيَا مِنْ سَفَلَتهمْ بِرِيَاسَتِهِمْ فِي الْعِلْم فَكَتَمُوهُ خَوْف فَوْته عليهم ﴿فبئس ما يشترون﴾ أي بئس شيئا يشترونه ذلك الثمن. معطوف على قوله ﴿ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم﴾؛ فإن تكذيب الرسول من أكبر الأذى للمسلمين. ﴿١٨٨﴾﴿لا تَحْسَبَن الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا﴾ أي يفرحون بما فعلوا من بيعهم الدين بالدنيا كإخفاء أمرك عن الناس ﴿وَيُحِبُّونَ أَنْ

يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ مِنَ التَّمَسُّك بِالْحَقِّ وَهُمْ عَلَى ضَلَال ﴿فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ﴾ فِي الْوَجْهَيْنِ تَأْكِيد ﴿بِمَفَازَةٍ﴾ بِمَكَانٍ يَنْجُونَ فِيهِ ﴿مِنَ الْعَذَاب﴾ مِنْ الْآخِرَة بَلْ هُمْ فِي مَكَان يُعَذَّبُونَ فِيهِ وَهُوَ جَهَنَّم ﴿وَلَهُمْ عَذَاب أَلِيم﴾ مُؤْلِم فِيهَا.

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٩﴾

﴿١٨٩﴾﴿وَلِلَّهِ مُلْك السَّمَاوَات وَالأَرْض﴾ كيف يكون من له ما في السماوات والأرض فقيرًا؟ وكيف لا يمكن له أن يصطفي من يشاء من عباده رسولاً؟ ﴿وَاللهُ عَلَى كُلّ شَيْء قَدِير﴾ يتصرف فيهما كيفما يشاء ويختار، لا يعجزه شيء.

المبحث الرابع: قوام المؤمن

ربى الله تعالى المؤمنين في هذه السورة بالتعليمات والإيقاظات كما في سورة البقرة، ثم ختمها ببيان درجة المؤمنين الذين تَشَرَّبوا هذه التعالم وأدعيتهم. وتلك الدرجة هي النتيجة المرجوة من هذه التربية.

قال الرازي: "اعلم أن المقصود من هذا الكتاب الكريم جذب القلوب والأرواح عن الاشتغال بالخلق إلى الاستغراق في معرفة الحق، فلما طال الكلام في تقرير الأحكام والجواب عن شبهات المبطلين عاد إلى إنارة القلوب بذكر ما يدل على التوحيد، والكبرياء، والجلال، فقال:

إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ

أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾

﴿١٩٠﴾﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ وما فيهما مِنَ الْعَجَائِب ﴿وَاخْتِلاَف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ بِالْمَجِيءِ وَالذَّهَاب وَالزِّيَادَة وَالنُّقْصَان ﴿لآيَاتٍ﴾ دَلالاَت واضحات على صانع قديم عليم حكيم قادر ﴿لأُولِي الأَلْبَابِ﴾ لذَوِي الْعُقُول الخالصة. والأَلْبابِ جمع لب، وهو العقل الخالص من شوائب الأوهام، أو العقل الذكي الذي يستبين الحقائق بسرعة وفطنة، ويستخرج لطائف المعاني من مكانها ببراعة. ﴿١٩١﴾﴿الَّذِينَ﴾ نَعَتَ لِمَا قَبْله أَوْ بَدَل ﴿يَذْكُرُونَ اللهَ﴾ بألسنتهم وقلوبهم ﴿قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ﴾ مُضْطَجِعِينَ، أَيْ فِي كل حال ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ لِيَسْتَدِلُّوا بِهِ عَلَى قُدْرَة صَانعهمَا، ويَقُولُونَ ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا﴾ الْخَلْق الَّذِي نَرَاهُ ﴿بَاطِلاً﴾ حَال عَبَثًا، بَلْ دَلِيلاً عَلَى وجودك وقُدْرَتك ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي ننزهك عن العبث ﴿فقنا عذاب النار﴾ أي إذا نزهناك فقنا من عذاب جهنم. ﴿١٩٢﴾﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ﴾ لِلْخُلُودِ فِيهَا ﴿فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ﴾ أذللته، وأهنته، وفضحته على رؤوس الأشهاد ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾ الْكَافِرِينَ ﴿مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يَمْنَعُونَهُمْ مِنْ عَذَاب الله تعالى. ﴿١٩٣﴾﴿رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ﴾ أَيْ يدعو إلى الإسلام، وَهُوَ مُحَمَّد ﷺ ﴿أَنْ﴾ أَيْ بِأَنْ يقول: ﴿آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ بِهِ ﴿رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ أي استر لنا ذنوبنا ولا تفضحنا بها ﴿وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا﴾ أي امح بفضلك ورحمتك ما ارتكبناه من سيئات. قال ابن عباس: "الذنوب هي الكبائر، والسيئات هي الصغائر." ويؤيده ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء، ٣١/٤). وقال الشوكاني: "والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين، والآخر بالآخر، بل يكون المعنى في الذنوب والسيئات واحدا، والتكرير للمبالغة والتأكيد، كما أن معنى الغفر والكفر الستر." ﴿وَتَوَفَّنَا﴾ اقْبِضْ أَرْوَاحنَا ﴿مَعَ الأَبْرَارِ﴾ أي على مثل أعمالهم حتى نكونوا في درجاتهم

يوم القيامة أو ألحقنا بالصالحين. ﴿١٩٤﴾﴿ربنا آتنا﴾ أَعْطِنَا ﴿مَا وَعَدْتَنَا﴾ بِهِ ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾ أي على ألسنة رسلك، أو على تصديق رسلك، أو ما وعدتنا منزلاً على رسلك، ﴿وَلاَ تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي لا تفضحنا كما فضحت الكفار ﴿إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ بإثابة المؤمن وإجابة الداعي. ﴿١٩٥﴾﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ﴾ دُعَاءَهُمْ ﴿أَنِّي﴾ أَيْ بِأَنِّي ﴿لاَ أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى﴾ هم سواء في المجازاة بالأعمال وترك تضييعها ﴿بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ الرجل مولود من المرأة، والمرأة مولودة من الرجل، فلا فرق في البشرية، ولا تفاضل بينهما إلا بالأعمال. وَالْجُمْلَة مُؤَكِّدَة لِمَا قَبْلهَا. نَزَلَتْ هذه الآية لَمَّا قَالَتْ أُمّ سَلَمَة: "يَا رَسُول الله! لاَ أَسْمَعُ اللهَ ذَكَرَ النِّسَاءَ فِي الهِجْرَةِ." (الترمذي، ٣٠٢٣)، وفي رواية قالت: "يَا رَسُولَ اللهِ! يُذْكَرُ الرِّجَالُ وَلاَ يُذْكَرُ النِّسَاءُ." (الحاكم، ٣٥٦٠) ﴿فَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ مِنْ مَكَّة إِلَى الْمَدِينَة ﴿وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي﴾ دِيني ﴿وَقَاتَلُوا﴾ الْكُفَّار ﴿وَقُتِلُوا﴾ في سبيلي ﴿لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ أي لأمحونَّ ذنوبهم بمغفرتي ورحمتي ﴿وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ أي خلال أشجارها الأنهار ﴿ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ جزاءً من عند الله على أعمالهم الصالحة ﴿وَاللهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ الْجَزَاء.

اعلم أنه تعالى لما وعد المؤمنين بالثواب العظيم، وكانوا في الدنيا في نهاية الفقر والشدة، والكفار كانوا في النعم، ذكر الله تعالى الآية الآتية ما يسليهم ويصبرهم على تلك الشدة، فقال:

لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا عِنْدَ اللهِ خَيْرٌ لِلأَبْرَارِ ﴿١٩٨﴾

﴿١٩٦﴾﴿لاَ يَغُرَّنك تَقَلُّب الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَد﴾ بالتجارة والكسب. ﴿يغرنك﴾ من الغرور وهو الأطماع في أمر محبوب على نية عدم وقوعه، أو إظهار الأمر المضر في صورة الأمر النافع. والتقلب في البلاد التصرف فيها على جهة السيطرة والغلبة ونفوذ

الإرادة. هُوَ ﴿١٩٧﴾﴿مَتَاع قَلِيل﴾ يَتَمَتَّعُونَ بِهِ يَسِيرًا فِي الدُّنْيَا وَيَفْنَى ﴿ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّم وَبِئْسَ الْمِهَاد﴾ الفراش هي. ﴿١٩٨﴾﴿لَكِنْ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبّهمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الأَنْهَار خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبدًا ﴿نُزُلاً﴾ أي ضيافة وكرامة. وَالنزل مَا يُعَدّ للنزيل والضيف لإكرامه من طعام وشراب وغيرهما ﴿مِنْ عِنْد الله وَمَا عِنْد الله﴾ مِنَ الثَّوَاب والكرامة ﴿خَيْر لِلأَبْرَارِ﴾ مِنْ مَتَاع الدُّنْيَا.

اعلم أنه تعالى لما ذكر حال المؤمنين، وكان قد ذكر حال الكفار من قبل بأن مصيرهم إلى النار، بين في الآية الآتية أن من آمن منهم كان داخلا في صفة ﴿الذين اتقوا﴾ فقال:

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

لَمَّا جَاءَ نَعْيُ النَّجَاشِيِّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "صَلُّوْا عَلَيْهِ." قَالُوا: "يَا رَسُولَ اللهِ! نُصَلِّي عَلَى عَبْدٍ حَبَشِيٍّ؟" فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ (النسائي، الكبرى، ١١٠٢٢): ﴿١٩٩﴾﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْل الْكِتَاب لَمَنْ﴾ كَالنَّجَاشِيّ وعَبْدِ الله بْن سَلاَم ﴿يُؤْمِن بِالله﴾ بدون شرك ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ أَيْ الْقُرْآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ أَيْ التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل ﴿خَاشِعِينَ لِلَّهِ﴾ أَيْ مُتَوَاضِعِينَ خاضعين له ﴿لاَ يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ الله﴾ الَّتِي عِنْدهمْ فِي التَّوْرَاة وَالإِنْجِيل. أي لا يحرّفون نعت محمد ﷺ، ولا أحكام الشريعة الموجودة في كتبهم ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ مِنَ الدُّنْيَا بِأَنْ يَكْتُمُوهَا خَوْفًا عَلَى الرِّيَاسَة كَفِعْلِ غَيْرهمْ مِن أهل الكتاب. ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرهمْ﴾ ثَوَاب أَعْمَالهمْ ﴿عِنْد رَبّهمْ﴾ يُؤْتَوْنَهُ مَرَّتَيْنِ كَمَا قال الله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ (القصص، ٥٤/٢٨) بصبرهم على الإيمان بالتوراة والإيمان بالقرآن ﴿إِنَّ الله سَرِيع الْحِسَاب﴾ لنفوذ علمه في كل شيء.

وختمت السورة بوصاية جامعة خير الدنيا والآخرة:

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿٢٠٠﴾﴿يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا﴾ عَلَى الطَّاعَاتِ وَالْمَصَائِبِ وَعَنِ الْمَعَاصِي ﴿وَصَابِرُوا﴾ الْكُفَّار، فَلاَ يَكُونُوا أَشَدّ صَبْرًا مِنْكُمْ. أي غالبوهم في الصبر على شدائد الحرب، ﴿وَرَابِطُوا﴾ أي أقيموا على مرابطة الغزو في نحر العدو بالترصد له، والاستعداد لمحاربته، وكونوا دائما على حذر منه حتى لا يفاجئكم بما تكرهون ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أي خافوا الله فلا تخالفوا أمره في الجهاد وغيره ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بالنصر في الدنيا، والثواب في الآخرة، وتنجون من النار.

ههنا تم الكتاب، واليوم ٢٤ رمضان ١٤٤١، والساعة: ١٧: ٥٣.

﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾، ﴿رَبَّنَا لاَ تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾، ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ۞ دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلاَمٌ وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

وصلى الله وسلم وبارك دائمًا أبدًا على نبينا محمد سيد المرسلين!

أهم المراجع

الآلوسي، محمود بن عبد الله الآلوسي (م ١٢٧٠ هـ)، *روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني*، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٥ هـ.

البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي (م ٢٥٦ هـ)، *الجامع الصحيح (صحيح البخاري)*، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي/شرح: محب الدين الخطيب، ط ١، القاهرة: المطبعة السلفية، ١٤٠٠ هـ.

البرسوي، إسماعيل حقي بن مصطفى البرسوي (م ١١٣٧ هـ)، *روح البيان في تفسير القرآن*، بيروت: دار الفكر.

البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (م ٦٨٨ هـ)، *أنوار التنزيل وأسرار التأويل*، ط١، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤١٨ هـ.

الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي (م ٢٧٩ هـ)، *سنن الترمذي*، تحقيق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣) وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، مصر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٣٩٥ هـ/١٩٧٥ م.

الجزيري، عبد الرحمن بن محمد عوض الجزيري وأصدقاؤه (م ١٣٦٠ هـ)، *الفقه على المذاهب الأربعة*، ط ٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٤ هـ/ ٢٠٠٣ م.

الجلالين، جلال الدين محمد بن أحمد المحلي (م ٨٦٤ هـ) وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (م ٩١١ هـ)، *تفسير الجلالين*، ط ٤، اسطنبول: دار الشفا،

٢٠١٩ مـــ.

الحاكم، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله النيسابوري المعروف بابن البيع (م ٤٠٥ هـــ)، *المستدرك على الصحيحين*، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط ١، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١١ هـــ/١٩٩٠ م.

الحدادي، أبو بكر بن علي بن محمد الحدادي العبادي الزَّبِيدِيّ اليمني (م ٨٠٠ هـــ)، *الجوهرة النيرة*، ط ١، المطبعة الخيرية، ١٣٢٢ هـــ.

الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي (م ٢٥٥ هـــ)، *مسند الدارمي المعروف بـــ (سنن الدارمي)*، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، ط ١، المملكة العربية السعودية: دار المغني للنشر والتوزيع، ١٤١٢ هـــ/٢٠٠٠ م.

الرازي، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (م ٦٠٦ هـــ)، *مفاتيح الغيب (التفسير الكبير/تفسير الرازي)*، ط ٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي، ١٤٢٠ هـــ.

الراغب، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني (م ٥٠٢ هـــ)، *مفردات ألفاظ القرآن*، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط ٤، دمشق: دار القلم، ١٤٣٠ هـــ/٢٠٠٩ م.

الزحيلي، وهبة بن مصطفى الزحيلي (م ٢٠١٥ م)، *الفقه الإسلامي وأدلته*، ط ٤، دمشق: دار الفكر.

ـــــــــ، *التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج*، ط ٢، دمشق: دار الفكر، ١٤١٨

هـ.

الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمرو (م ٥٣٨ هـ)، *الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل*، ط ٣، بيروت: دار الكتاب العربي ١٤٠٧ هـ.

الشوكاني، محمد بن علي الشوكاني (م ١٢٥٠ هـ)، ط ١، *فتح القدير*، دمشق: دار ابن كثير، ١٤١٤ هـ.

الصابوني، محمد علي الصابوني، *صفوة التفاسير*، ط ١، القاهرة: دار الصابوني، ١٩٩٧ م.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (م ٣١٠ هـ)، *جامع البيان في تأويل القرآن*، ط ١، دمشق: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠٠ م.

الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني (م ٣٦٠ هـ)، *المعجم الكبير*، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط ٢، القاهرة: مكتبة ابن تيمية.

القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد (م ٦٧١ هـ)، *الجامع لأحكام القرآن*، ط ٢، القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٣٨٤ هـ.

النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي (م ٣٠٣ هـ)، *السنن الكبرى*، تحقيق: حسن عبد المنعم شلبي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١ م.

المتقي، علاء الدين علي بن حسام الدين المتقي الهندي (م ٩٧٥)، *كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال*، ط ٥، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٠١ هـ/١٩٨١ م.

الموصلي، أبو الفضل مجد الدين عبد الله بن محمود بن مودود الموصلي (م ٦٨٣ هـ)، *الاختيار لتعليل المختار*، بيروت: دار الكتب العلمية.

المودودي، أبو الأعلى المودودي (م ١٩٧٩ م)، *تفهيم القرآن*، اسطنبول: دار إنسان،

.٢٠٠٣

الميداني، عبد الغني بن طالب الميداني الغنيمي (م ١٢٩٨ هـ)، *اللباب في شرح الكتاب*، بيروت: المكتبة العلمية.

النسفي، أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (م ٧١٠ هـ)، *مدارك التنزيل وحقائق التأويل*، تحقيق: يوسف علي بديوي، ط ١، بيروت: دار الكلم الطيب، ١٤١٩ هـ/١٩٩٨ م.

ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز الدمشقي (م ١٢٥٢ هـ)، *رد المحتار على الدر المختار*، ط ٢، بيروت: دار الفكر، ١٤١٢ هـ/١٩٩٢ م.

ابن عاشور، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (م ١٣٩٣ هـ)، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، تونس: الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤ م.

ابن قيم، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بالمعروف ابن قيم الجوزية (م ٧٥١ هـ)، *زاد المعاد في هدي خير العباد*، ط ٢، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٨ هـ/٢٠٠٧ م.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (م ٧٧٤ هـ)، *تفسير القرآن العظيم*، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط ٢، دار طيبة، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩ م.

أبو زهرة، محمد أبو زهرة (م ١٩٧٤ م)، *زهرة التفاسير*، دار الفكر العربي.

أبو داود، أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (م ٢٧٥ م)، *سنن أبي داود*، تحقيق:

محمد ناصر الدين الألباني، ط ٣، الرياض: مكتبة المعارف.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله الأصبهاني (م ٤٣٠ هـ)، *دلائل النبوة*، ط ٢، بيروت: دار النفائس، ١٤٠٦ هـ/١٩٨٦ م.

حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني (م ٢٤١ هـ)، *مسند الإمام أحمد بن حنبل*، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٤٢١ هـ/٢٠٠١ م.

دروزة، محمد عزت دروزة (م ١٩٨٤ م)، *التفسير الحديث*، ط ٢، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٠ م.

رشيد رضا، محمد رشيد بن علي رضا (م ١٩٣٥ م)، *تفسير المنار*، الهيئة المصرية العامة، ١٩٩٠ م.

سيد قطب، سيد قطب (م ١٩٦٦ م)، *في ظلال القرآن*، ط ٣٢، القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣ م.

طنطاوي، محمد سيد طنطاوي (م ٢٠١٠ م)، *التفسير الوسيط للقرآن الكريم*، ط ١، القاهرة: دار نهضة مصر، ١٩٩٧ م.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، *المعجم الوسيط*، القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط ٤، ١٤٢٥ هـ-٢٠٠٤ م.

مسلم، مسلم بن الحجاج أبي الحسين القشيري النيسابوري (م ٢٦١ هـ)، *الجامع الصحيح*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط ١، بيروت: دار إحياء الكتب العربي،

١٤١٢ هـ/١٩٩١ م.

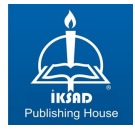

ISBN: 978-625-367-549-3